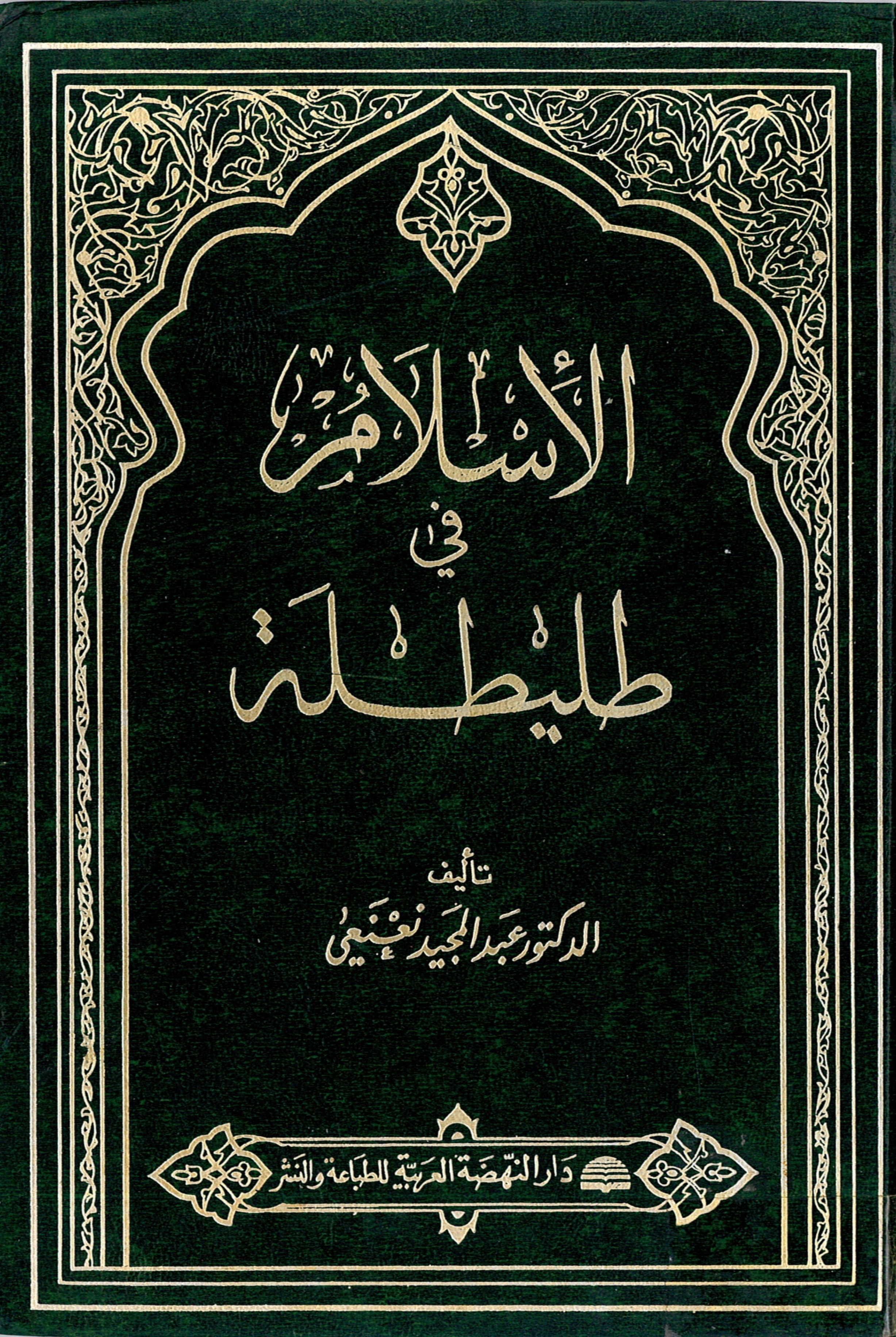
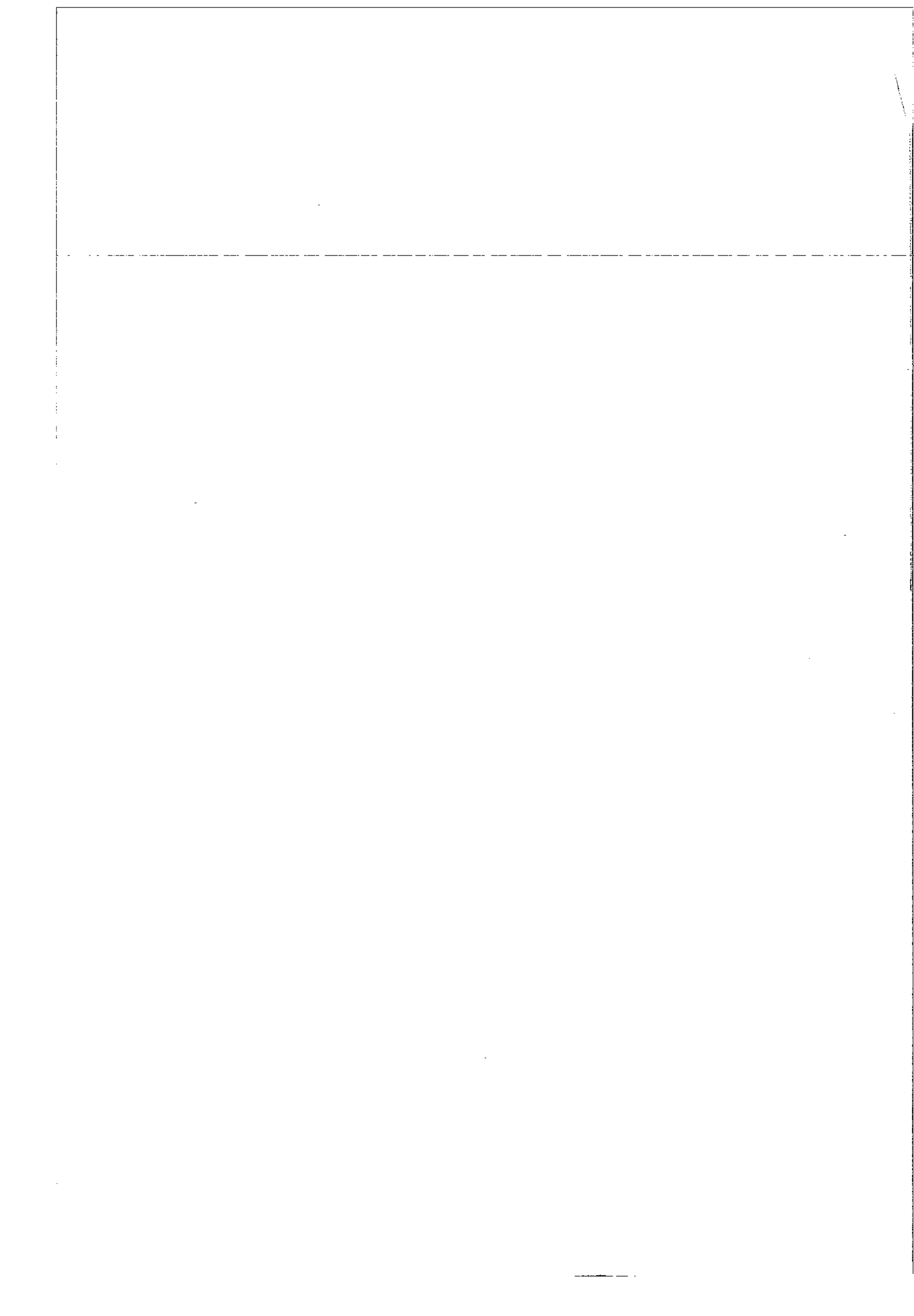

الإسلام
في
طليطلة
تأليف
الدكتور عبد المجيد نعنعي
دار النهضة العربية للطباعة والنشر

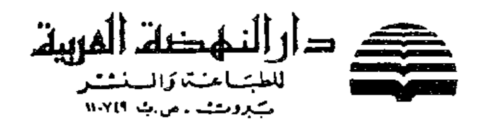
الإسلام
في
طليطلة





تأليف

الدكتور عبد المجيد نعنعي



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٧٤٩-١١

* الإدارة : بيروت ، شارع مدحت باشا ، بناية كريدية ، تلفـون : ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً : دانهضة ، ص . ب ٧٤٩-١١
تلكس : NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة : شارع البستاني ، بناية اسكندراني رقم ٣ ، غربي الجامعة العربية ، تلفون : ٣١٦٢٠٢

* المستودع : بئر حسن ، تلفون : ٨٣٣١٨٠

مقدّمة

شهد العالم الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد كارثة كبيرة تنزل به في أقصى طرفه الغربي حين خرجت من حوزته طليطلة ومعها ربع أرض الأندلس لتصير من بعض مملكة قشتالة الإسبانية. ولعل ما أثار أسى المسلمين وأدمى قلوبهم آنذاك كون طليطلة غادرت عالمهم في وقت كانت قد صارت فيه في قمة نموها وازدهارها وقدرتها على العطاء العلمي والحضاري. ذلك أن هذه المدينة بعد أن صارت منذ مطلع هذا القرن عاصمة لواحدة من ممالك الطوائف يملك عليها بنو ذي النون، سمت مع المأمون، ثاني ملوك هذه العائلة البربرية الأصل، بحيث باتت واحدة من أكبر وأهم حواضر عالم العصور الوسطى. في ذلك الحين كان يعيش داخل أسوارها، على ما تذكر المصادر الأندلسية ما يزيد على مائتي ألف إنسان في وقت ما كان يتجاوز عدد سكان حواضر أوروبية كبرى كباريس ولندن ثلاثين ألفاً. ثم إن طليطلة حين تركت عالم الإسلام كانت تحتضن أبهى وأنشط حركة علمية في غربي البحر الأبيض المتوسط كما كانت قادرة ليس فقط على مجاراة بغداد والقسطنطينية حضارياً وإنما وربما على منافستهما. لقد جعل المأمون بن ذي النون من عاصمته، بما أعطى العلماء والباحثين من مساعدات مادية وبما أحاطهم به من حماية ورعاية، القاعدة الأولى للبحث العلمي ليس في الأندلس فقط وإنما في كل غرب أوروبا وشمال إفريقيا. وكان سلفه

الظافر قبل ذلك قد فتح أبواب عاصمته حين اجتاحت قرطبة الفتنة التي أطاحت بالخلافة الأموية فيها وشرذمت سلطانها المركزي أمام كل باحث وعالم وفقيه افتقد الأمن والأمان في العاصمة كما في أية حاضرة أندلسية أخرى. في طليطلة وفي ظل ملك بني ذي النون نشأت وازدهرت مدرسة صاعد الطليطلي التي أعطت عالم العصور الوسطى بعض أعظم علماء الفلك والرياضيات من مسلمين ومستعربين ويهود كان منهم إبراهيم النقاش، المعروف بالزرقالي، الذي يعتبر أعظم علماء الفلك عند العرب ومن أعظمهم في العالم على امتداد العصور الوسطى. وفيها أيضاً قام أول وأنشط مركز لدراسات الصيدلة وعلوم النبات كانت حدائق قصر المأمون الواسعة ميادين أبحاث وتجارب لعلمائه برعاية صاحب القصر وبتشجيع مادي ومعنوي منه. من هذا المركز تخرج وفيه عمل عبد الرحمن بن وافد أعظم أطباء عصره على الإطلاق. وفي بلاط المأمون وحوله عاش وأعطى وأبدع الشاعر ابن أرفع راسه أحد اثنين يعود إليهما فضل تطوير فن الموشحة وإطلاقه بين الأندلسيين على نطاق واسع.

ولعل أكثر ما أثار حزن المسلمين وجزعهم مما حدث في الأندلس كون عقالهم وأصحاب البصيرة النافذة منهم أدركوا أن خسارتهم لطليطلة ما كانت في الواقع إلا الخطوة الأولى والأهم في طريق عودة هذه الأرض بكل ما فيها من بشر وتراث حضاري إسلامي تراكم على مدى أربعة قرون تقريباً إلى حظيرة إسبانيا المسيحية.

وفي الواقع وأنا أدرس تاريخ عصر الطوائف في الأندلس وأتعرف إلى أخبار ممالكه وملوكه وانجازات هؤلاء من سلبية وإيجابية، على ندرة هذه الأخيرة، كنت أتوقف دائماً عند أخبار طليطلة وسادتها من آل ذي النون وعلمائها وباحثيها وفقهائها فأجد فيها من المنجزات الحضارية ما كان يشدني إليها باستمرار. بل كثيراً ما رأيت في تلك النهضة العلمية الباهرة التي

احتضنتها طليطلة في ظل بني ذي النون في القرن الحادي عشر وكأنها شعلة من نور تمزق ظلمة عصر الطوائف.

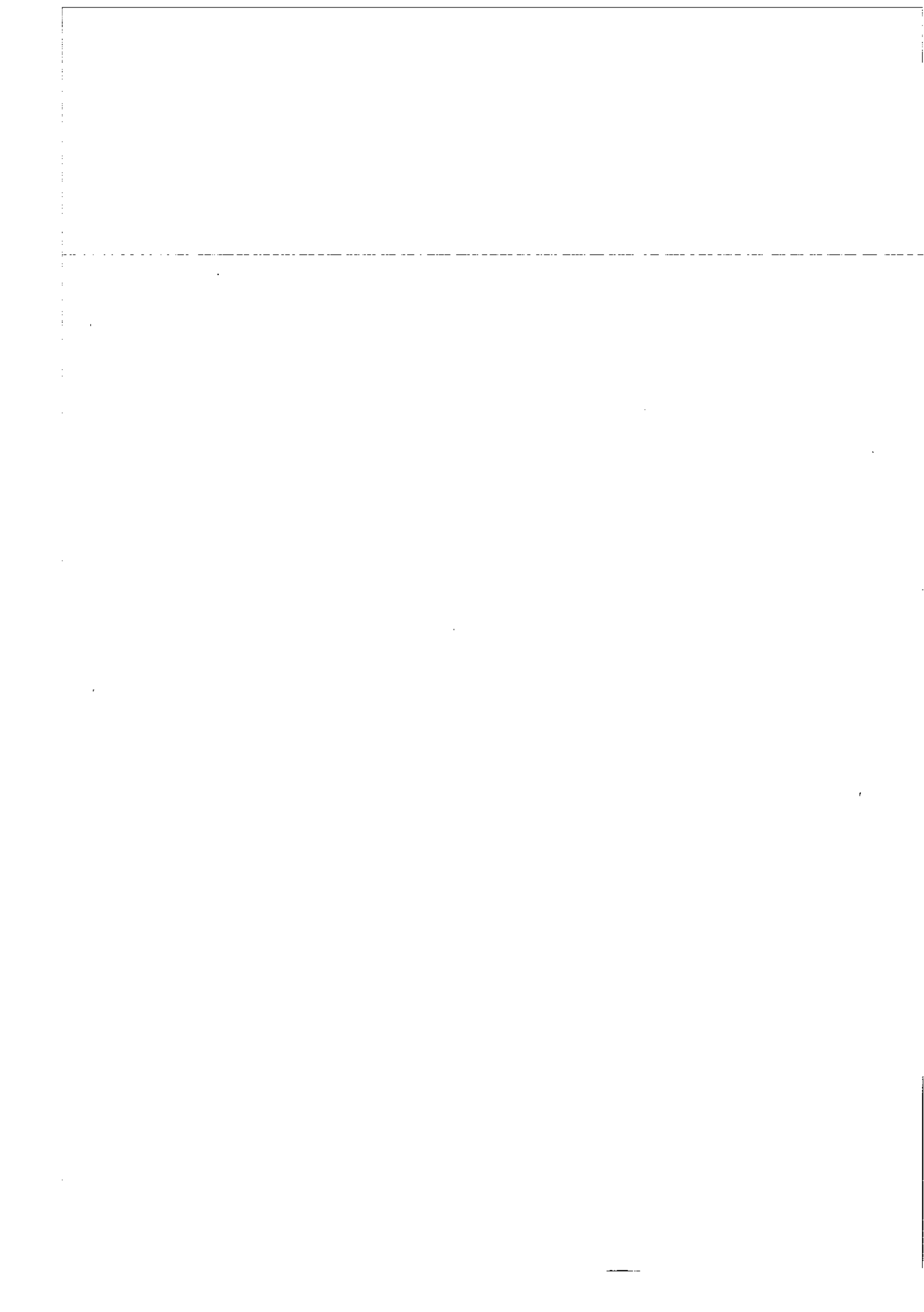
ومن هذا المنطلق عملت خلال سنوات على دراسة تاريخ هذه المملكة وأسباب قيامها وتعرفت إلى أخبار رجالها وكشفت عن مسار أحوالها على امتداد السنوات التي عاشتها والتي ما زادت كثيراً عن نصف القرن. وقد توقفت كثيراً عند الأسباب التي آلت إلى زوالها وانتقال عاصمتها درة الأندلس وفخر عالم الإسلام في العصور الوسطى إلى سيادة الإسبان. إلا أنني مع الوقت رأيت نفسي مسوقاً إلى استكمال البحث بدراسة تاريخ المدينة في عصر الولاة كما في ظل بني أمية إذ وجدت دائماً أن خطأً واحداً يحكم علاقة المدينة بدولة الإسلام في الأندلس. وبصورة أوضح وجدت أنه قد لا يكون من السهل فهم تطور الأحداث التي ساقت مملكة طليطلة إلى خروجها من إطار العالم الإسلامي دون تفهم عميق لإشكالية العلاقة التي قامت بينها وبين سائر حكام قرطبة منذ ارتفع علم الإسلام في سمائها.

وعلى هذا رأيت نفسي في النهاية أخرج عما كنت قد قمت به في البداية من تسطير قصة «بنو ذي النون في طليطلة»[1] لأضع بين يدي القارىء العربي تاريخ «الإسلام في طليطلة» منذ رفع في سمائها طارق بن زياد لواء الإسلام إلى أن أنزله من عليائها ألفونسو السادس في سنة ١٠٨٥ م.

ولما كانت غايتي في الأساس أن أكشف عن واحدة من أسنى وأبهى صفحات تاريخ الحضارة الإسلامية على امتداد العصور أرجو أن يكون الله تعالى قد وفقني إلى ذلك.

عبد المجيد نعنعي

(١) بحث وضع أساساً باللغة الإسبانية ونشر قسم منه بهذه اللغة.



الباب الأول

- طليطلة قبل الفتح الإسلامي .
- طليطلة في ظل الأمويين .
- طليطلة أيام الفتنة .
- بنو ذي النون .



الفصل الأول

طليطلة قبل الفتح الإسلامي

مدينة طليطلة، قديمة، عريقة، جذورها تضرب بعيداً في عمق تاريخ شبه الجزيرة الإيبرية حتى أن بعض من أرخوا لها من المسلمين ما ترددوا في أن يصفوها بأنها «أزلية من بناء العمالقة»[1]. ليس من السهل والميسور تحديد زمن بنائها على وجه دقيق وحاسم. فهي في رواية تدين بوجودها إلى رحالة فينيقيين ربما أقاموها، في وقت غير معروف تماماً، لتكون محطة على طرق خطوط تجارتهم الدولية. وفي أخرى أن اليونان أسسوها لتكون واحدة من القواعد التجارية المتعددة التي بنوها في غرب أوروبا. ولما اجتاحت جيوش الامبراطورية الرومانية أراضي شبه جزيرة إيبريا في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد دخلت طليطلة في تبعية هذه الامبراطورية وصارت واحدة من حواضرها الهامة منذ السنة **١٩٢** ق م على وجه التحديد.

ولم يحاول الرومان توحيد شبه جزيرة إيبريا[2] في إطار وطني ولا تعاملوا

(١) الروض المعطار الحميري ص ١٣٠.

(٢) تضم شبه جزيرة إيبريا أراضي إسبانيا والبرتغال الحاليتين.

معها كوحدة سياسية، وإنما قسموها إلى مستعمرات متعددة، ليس بينها روابط جدية وفعالة ومباشرة، يديرون أمور كل واحدة منها بواسطة موظفين تعينهم سلطات روما، مما لم يفترض ولم يستوجب وجود عاصمة للبلاد ترمز لوحدتها وتستقطب مؤسساتها الوطنية والقومية. وقد اختار الرومان مدينة طركونة، القريبة من حدود بلاد غالة وجعلوا منها قاعدة أساسية لقياداتهم العسكرية في شبه الجزيرة ومقراً لحكامهم إنما دون أن ترتقي إلى مرتبة عاصمة وطنية. أبقى الرومان على هذا الوضع حتى خروجهم النهائي من إيبريا. في ظل هذه التنظيمات، ومع هيمنة طركونة على الحياة السياسية أيام الرومان، تمتعت طليطلة بمكانة ممتازة فصارت قاعدة لمستعمرة هامة وحققت ازدهاراً كبيراً شمل مختلف مظاهر الحياة فيها.

ومع انتشار المسيحية في أوروبا ودخولها إلى شبه جزيرة إيبريا كان أهل طليطلة من السباقين إلى اعتناق ديانة السيد المسيح، مما جعل للمدينة من الأهمية أكثر مما كان لها أساساً، ومما أعطاها مكانة متقدمة على غيرها من الحواضر الإيبرية الهامة. وقد تكرست بصورة خاصة زعامة هذه المدينة في ظل النصرانية، على سائر المدن والحواضر الأخرى حين استضافت في ظل الحكم الروماني، وقبل سقوط الامبراطورية مجمعين دينيين مقدسين أولهما في سنة ٣٩٦ والثاني في سنة ٤٠٠ م.

وحين كانت الامبراطورية الرومانية، منذ بداية القرن الخامس للميلاد، تسرع الخطى نحو الانهيار والزوال اندفعت حشود من قبائل الفندال والسويفيين والآلان الجرمان فعبرت منذ السنة ٤٠٥ م نهر الراين إلى بلاد غالة حيث دمرت ونهبت لمدة سنوات ثلاث انتقلت بعدها عبر جبال البيرينيه إلى شبه جزيرة إيبريا. استقر السويفيون في أراضي شمال غرب

(١) فجر الأندلس حسين مؤنس ص ٧.

إيبـريا وانتشـر الآلانيون في أراضـي لوزيتـانيا (بـلاد البرتغال الحالية) ونزل الفندال في أراضي بيتيكا في جنـوب إسبـانيا الحـالية. ومـا استطاعت هذه الشعوب أن تركز دعائمها وتؤكد وجودها في هذه الأراضـي لأن حشوداً من قبائل القوط الغربيين كانـت في نفس الفتـرة الـزمنية تقريبـاً تعمل، آتية من إيطاليا بموافقة ورضى الامبراطور الرومانـي، علـى إقامـة وطن دائم لهـا في إقليم أكيتـانيا في جنـوب غالـة بين نهـر اللـوار وجبـال البيرينيه. إذ ان ملوك القوط الغربيين في سعيهم الدائم والعنيف لإقامة وطن دائم لشعبهم طيلة القرن الخامس للميلاد ما التزموا بالحدود التي رسمها لهم الامبراطور الروماني فاجتازوا جبال البيرينيه وعملوا على طرد الفنـدال من جنـوب إسبـانيا في سنـة ٤٢٩ كمـا سعـوا بعـد ذلك لإخضـاع الســويفيين والآلانيين.

حين غابت نهائياً، في سنة ٤٧٦ ميلادية الامبراطورية الرومانية، عن الخريطة السياسية للقارة الأوروبية كان أوريك زعيم القوط الغربيين سباقاً إلى الإفادة من الفرصة المتاحة فبادر إلـى إعـلان استقلالـه في الأراضـي الخاضعة لسلطانه في بلاد غالة وأيضاً في تلك التي في إيبريا. ومن قاعدته الأساسية في بلاد غالة أخذ يدبر شؤون القوط الغربيين ويسعى بصورة خاصة لتأكيد نفوذه وسطوته وبصورة تامة ونهائية على كل أراضي إيبريا. والواقع أنه ما وجد كبير صعوبة في الاستيلاء على كل الأراضي التي تركها الفندال في جنوب إسبانيا. تحول الزعيم القوطي بعد ذلك إلى السويفيين المنتشرين في شمال غرب إيبريا فأذلهم وجعلهم أتباعاً لشعبه ورعايا لعرشه. وفـي نفس الوقت أيضاً كانت جيوشه تجتاح أراضي لوزيتانيا وتخضع أهلها ومن فيها من الآلانيين لسلطانه. وبذلك خطا الملك القوطي أوريك الخطوات الأولـى في طريق تحقيق وحدة إيبريا السياسية ربما للمرة الأولى في حياتها. ومـع تقدم العمل في طريق تكوين وحدة سكان وأراضي شبه الجزيرة الإيبرية في

ظل القوط الغربيين رأى ملكهم وزعيمهم أتانا خيلدو أن ينقل مقر إقامته من غالة إلى طليطلة التي اتجهت لأن تصبح منذ ذلك الوقت فعلياً ورسمياً عاصمة لإيبريا الموحدة .

ومن هنا يبدو واضحاً أن الإسبان يدينون وإلى حد كبير للقوط الغربيين بصنع وحدة أراضيهم السياسية وتكوين هويتهم القومية . ذلك أن أحداً من الشعوب التي سبقت هؤلاء إلى الإقامة في إيبريا ، وتعاقبت على الهيمنة عليها أو على حكمها ، ما أرادت أو ما تنبهت إلى ضرورة تحقيق وحدة أراضي وسكان شبه الجزيرة الإيبرية . فالفينيقيون اهتموا حين نزلوا في هذه البلاد بإقامة وإعمار مرافىء ومحطات تكون في خدمة تجارتهم العالمية دون أي أمر آخر . واليونان ما تعاطوا إلا مع جيوب صغيرة كانت ذات أهمية لتحركات أسطولهم البحري أو قوافل تجارتهم البرية . أما الرومان ، فقد اكتفوا كما ذكرنا سابقاً ، بتقسيم شبه الجزيرة إلى مقاطعات ، أو مستعمرات كما كانوا يسمونها آنذاك ، ترتبط بهم مباشرةً ودون أن تكون مترابطة فيما بينها ، أو على صلة ببعضها البعض بما يكفي لصنع أسس لوحدة الأرض والسكان .

ويبدو أنه منذ انتقال الزعامة القوطية إلى طليطلة للإقامة فيها ، في منتصف القرن السادس الميلادي بدأنا نرى تزايد انتشار النصرانية في إيبريا وتكوين وحدة الأمة الإسبانية وتقدم هذه المدينة على حواضر البلاد الأخرى تتم في نفس الوقت وعلى وتيرة متشابهة . بل ربما أمكننا القول بأن مدينة طليطلة لعبت في تلك الفترة وحتى مجيء المسلمين إلى إيبريا دوراً أساسياً في تثبيت دعائم النصرانية وأيضاً في المساعدة على تكوين الوحدة القومية الإسبانية . فالقوط حين اختاروا هذه المدينة مقراً لملكهم أولاً ، ثم عاصمة لدولتهم في شبه الجزيرة الإيبرية ، إنما فعلوا ذلك إدراكاً منهم لأهمية المدينة ولقدرتها على تحقيق أغراضهم . فلطليطلة موقع جغرافي واستراتيجي هام لكونها تقوم على مرتفع صخري يعلو حوالي ثمانمائة متر عن سطح البحر

ويحيط به نهر التاج العظيم من جهات ثلاث مما كان يعطي المدينة في ذلك الحين حصانة عسكرية كبيرة ويمدها بقدرات لا حدود لها على الدفاع والصمود بوجه أي حصار قد تتعرض له. ثم هي فوق ذلك في موقع متوسط بين سائر مناطق شبه الجزيرة الإيبرية مما ليس فقط سيحفز القوط الغربيين على متابعة جهودهم لتحقيق وحدة شعوب إيبريا وإنما سيساعد حكامهم، وإلى حدٍ كبير، على تحقيق هذه الوحدة وأيضاً على حسن إدارة أمور المواطنين ومراقبة سائر أطراف المملكة[1]. ويمكن التأكيد إنه من طليطلة بالذات أخضع الملوك القوط كل من كان ما يزال رافضاً لسيادتهم وفرضوا سلطانهم على كل بقعة من أراضي شبه جزيرة إيبريا بمن كان عليها من بشر ومؤسسات. ومن هذه المدينة أيضاً كانت الوطنية الإسبانية المتنامية تستمد أسباب القوة والازدهار لتأخذ في إطارها وفي ظل هيمنة القوط الغربيين، كل الشعوب المتواجدة على أراضي إيبريا.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن عقبة أساسية ظلت ولمدة طويلة تعيق مسار الوحدة الوطنية الإسبانية، على وفرة ما بذل الملوك القوط من جهود في هذا السبيل. ذلك إن القوط الغربيين حين تعرفوا إلى المسيحية، وأخذوها كدين لهم، آمنوا بها ومارسوا طقوسها وعباداتها وفق مذهب آريوس الذي كانت كنيسة روما تحاربه أشد الحرب وتكفر القائلين به. وهذا أبقى، على الصعيد العقائدي على هوة عميقة ظلت تباعد بينهم وبين سائر سكان البلاد الأصليين الشديدي الولاء للكاثوليكية ولكنيسة روما. ولتجاوز هذه العقبة، وللوصول إلى وحدة حقيقية لكل من كانوا يقيمون على أرض إيبريا في ظل عرش القوط وبزعامة عاصمتهم طليطلة، لم يتردد الملك ريكاريدو في الدعوة إلى عقد مجمع مقدس في العاصمة القوطية أعلن في نهايته، في سنة ٥٨٩، اعتناقه للكاثوليكية وفق نهج روما ودعا شعبه لعمل الشيء نفسه. ومنذ ذلك التاريخ

(١) فجر الأندلس ص ٧.

غاب الانقسام الديني عن مسرح الأحداث مما أعطى القومية الإسبانية قدرات أفضل للنمو والازدهار ولأخذ كل من على أرض إيبريا في إطارها.

وبالفعل ومنذ ذلك التاريخ، وبصورة خاصة منذ مطلع القرن السابع للميلاد بدا كل المقيمين على أرض شبه جزيرة إيبريا موحدين سياسياً ودينياً واجتماعياً ولغوياً، خاصة وأنه تبع التحول نحو الكاثوليكية اعتماد اللغة اللاتينية لغة واحدة لكل الإسبان[1]. وخلال هذا القرن تأكدت زعامة طليطلة ووضح تقدمها على سائر حواضر إيبريا القديمة والعريقة كإشبيلية وماردة وقادش. بل أكثر من ذلك صارت العاصمة الرسمية والفعلية لدولة القوط الغربيين، الذين نجحوا في أن يقيموا في شبه الجزيرة الإيبرية، ولأول مرة في تاريخها، دولة موحدة لغة وسكاناً ونظماً ومؤسسات ضمن حدود سياسة وجغرافية ثابتة وواضحة. وأيضاً صارت طليطلة عاصمة موحدة للنصرانية الإسبانية لوجود المقر الدائم لكبير أساقفة البلاد فيها[2].

ومع الوقت احتضنت المدينة حركة ثقافية ودينية ناشطة للغاية أغنت القومية الإسبانية الناشئة وأعطتها مضامين فكرية وعقائدية زادت في اللحمة بين أبنائها وشدتهم جميعاً إليها. ويبدو أن انتشار الكاثوليكية وتكون وتكامل القومية الإسبانية، في فترة زمنية واحدة، مع ارتفاع نجم طليطلة وتقدمها ربط العناصر الثلاثة ببعضها لمدة طويلة جداً في التاريخ الإسباني على امتداد العصور الوسطى.

وحين صار المسلمون سادة على الضفة الإفريقية لمضيق جبل طارق، وأخذوا يعدون منذ مطلع القرن الثامن للميلاد للزحف على إيبريا[3]، كانت طليطلة عاصمة شبه الجزيرة هذه وكبرى حواضرها ومستقر ملوكها وحكامها

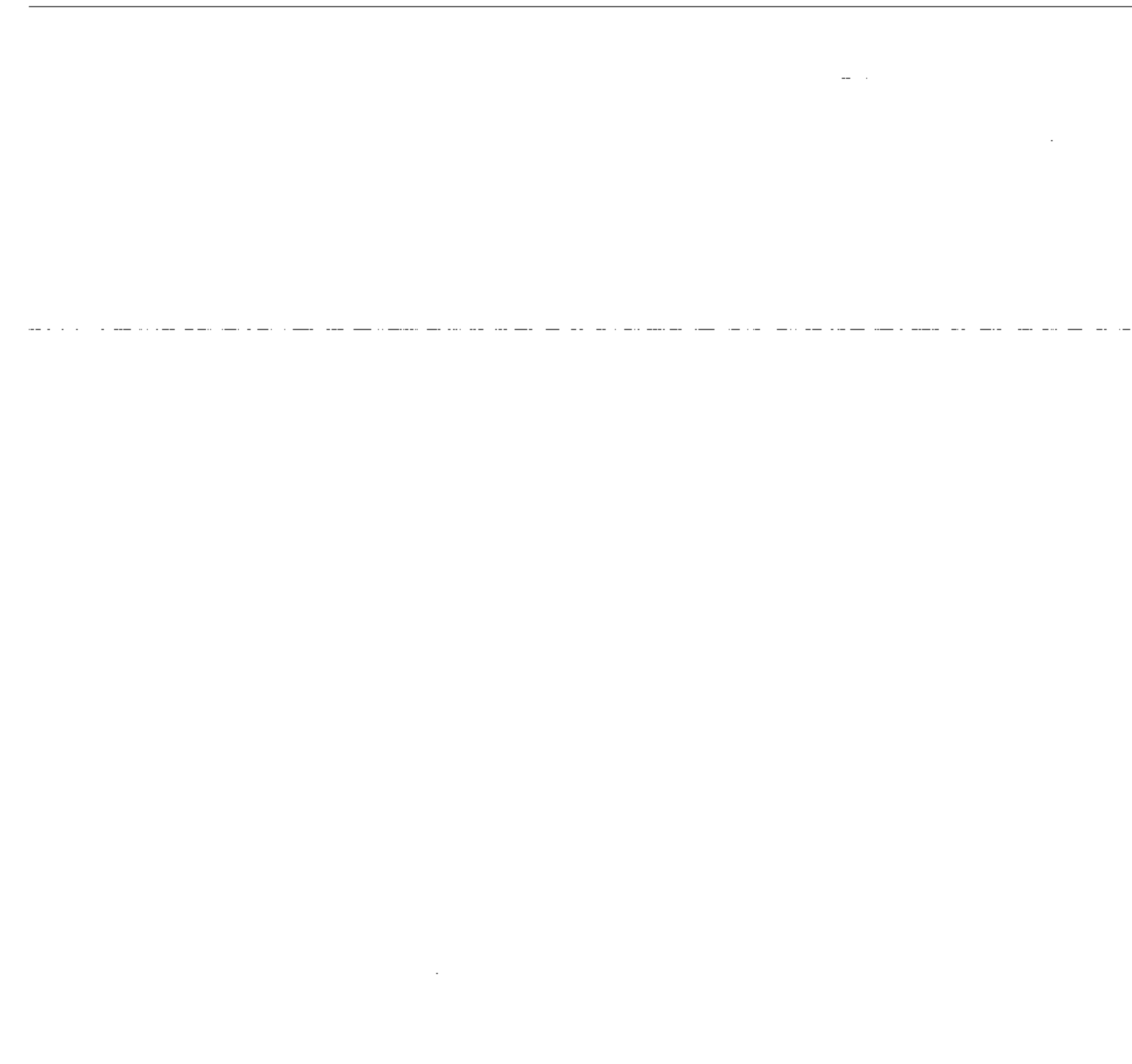
(١) فجر الأندلس صفحة ٩.

(٢) لا يزال كبير أساقفة إسبانيا حتى يومنا هذا يتخذ من العاصمة القوطية القديمة مقراً لكرسيه.

(٣) بلاد إسبانيا والبرتغال اليوم.

ومقر أعلى سلطة دينية فيها. بعد الانتصارات السريعة والباهرة التي حققها رائدا الإسلام في غرب أوروبا، موسى بن نصير وطارق بن زياد، أدخل المسلمون أراضي شبه الجزيرة الإيبرية في إطار العالم الإسلامي ورفعوا علم الإسلام على معظم أنحائها. كذلك بادر أوائل من حكم هذه البلاد من ولاة الدولة الأموية إلى تمصير وتعريب حواضرها الكبيرة ومنها العاصمة طليطلة.

وقد ظهر منذ البداية، وربما بسبب الاعتبارات التاريخية التي أوردنا، أن طليطلة لم تستطع أن تتفهم الحادث الكبير الذي تم على أرض إسبانيا ولا تمكن أهلها من إدراك الأبعاد الحقيقية لارتفاع علم الإسلام في سماء بلادهم. بل أكثر من ذلك ما استطاع هؤلاء إدراك ما كان يستجد في كل يوم من تحولات جذرية في مدينتهم وحولها، ليس أقله إقبال متزايد وطوعي من أهالي البلاد على اعتناق دين الفاتحين الجدد. ومن هنا التزم سادة المدينة ومقدموها موقف الرفض المطلق لسلطة دولة الإسلام عليها وعلى شبه الجزيرة بصورة عامة. والغريب أن انتشار الدين الإسلامي السريع بين الطليطليين فيما بعد وتجذر قيمه ومبادئه وشرائعه في عقولهم كما في ضمائرهم لم يخففا كثيراً من عدائهم ورفضهم لسلطات الحكام المسلمين. ومع أن طليطلة صارت بعد ذلك ولمدة تزيد عن أربعة قرون من بعض أرض الإسلام في أوروبا فأن أهلها ما تخلفوا في يوم من الأيام عن التزام فرضوه على أنفسهم بمقاومة سلطات قرطبة ورجالها وحكامها، مع تمسك متزايد وولاء لا حدود له لدين الإسلام ولشريعته. موقف يكتنفه الكثير من الغموض وازدواجية قد لا تكون معقولة ولا مقبولة، إنما في كل الحالات هكذا تصرف الطليطليون حيال الفتح الإسلامي وعلى هذا بقوا حتى صار لهم استقلال كامل وباتت لهم مملكتهم الخاصة بعد انهيار الدولة الأموية وفي ظل عائلة من بني ذي النون.



الفصل الثاني

طليطلة في ظل الأمويين

كان انتصار طارق بن زياد في سنة ٧١١ م في معركة «وادي لكة» عظيماً وباهراً وحاسماً. لقد حطم هذا الإنجاز عماد المقاومة العسكرية لدولة القوط الغربيين وآذن بقرب زوالها وفتح الباب واسعاً أمام المسلمين لاجتياح كل أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية. والواقع إن انتصار طارق بن زياد كان حاسماً بحيث ما اضطر المسلمون بعد ذلك، لإنجاز فتوحهم، إلى خوض معركة بهذه الأهمية[١]. لكن القائد المسلم أدرك بعبقريته العسكرية أنه وإن كان قد ربح معركة عسكرية كبيرة وحاسمة على القوط إلا أن هؤلاء ما زالوا يحتفظون بالسيطرة على جل أرض إيبريا والذين سارع زعماؤهم إلى الانكفاء نحو عاصمتهم، العظيمة التحصين، طليطلة للملمة قواهم وإعادة تكوين جيشهم. وعلى هذا قرر، بناء لنصيحة صديقه وحليفه يوليان صاحب سبتة[٢]، أن يتوجه وبأقصى السرعة، وربما دون استئذان سيده والي إفريقيا

(١) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس د. عبد المجيد نعنعي صفحة ٥٥.

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٨.

موسى بن نصير، أن يتوجه ومعه معظم جنود المسلمين نحو طليطلة لكي لا يعطي أخصامه فرصة إنجاز ما عزموا عليه. ولما كان القوط ما استطاعوا أن يجمعوا من القوة ما يمكنهم من مواجهة عدوهم الزاحف إليهم سريعاً فقد اختار زعماؤهم وقادتهم وجل أهل طليطلة مغادرة المدينة تاركينها لمصيرها. ولم يشذ عن ذلك كبار رجال الكنيسة إذ اختار كبير أساقفتها سِندرِد الذهاب إلى روما ومعه كبار أعضاء المجمع الطليطلي ربما لإبلاغ قداسة البابا بما حل بإيبريا وبما نزل بالكنيسة في هذه البلاد من خطب كبير. استولى المسلمون على المدينة دون مقاومة تذكر ودخلوها فما وجدوا فيها غير نفر قليل من اليهود اختاروا البقاء والتعامل مع المسلمين. اتخذ طارق بن زياد من هؤلاء، مع بعض جنوده، حامية للدفاع عن المدينة ولاحق، هو الهاربين شمالاً حتى قريباً من قلعة هنارس مخضعاً الأراضي التي يعبرها. إلا أنه لم يلبث أن أوقف زحفه، خوفاً من برد الشتاء الذي بدأ يداهمه، وعاد ليستقر في طليطلة بانتظار طقس أكثر ملاءمة لمتابعة الأعمال الحربية.

وقد أصاب المسلمون بقيادة طارق بن زياد كسباً سياسياً كبيراً من استيلائهم على طليطلة لما كان لها من مكانة بين الإسبان على الصعيدين الوطني والديني، كما حققوا إنجازاً عسكرياً هاماً نظراً لموقع المدينة الاستراتيجي ولتوسطها أراضي شبه الجزيرة الإيبرية. ثم فوق هذا وذاك حصلوا على غنائم عظيمة وثروات طائلة وجدوها في قصور أثرياء المدينة ودور الحكم فيها. وقد بالغ بعض المؤرخين في تقدير قيمة وأهمية ما وجد في هذه المدينة إلى حدٍ كبير قد يفوق المعقول والمقبول. لقد ذكر الحميري مثلاً شيئاً من ذلك فقال[1] «ووجد أهل الإسلام فيها ذخائر عند افتتاح

(١) فجر الأندلس ص ٧٩.

الأندلس، كادت تفوق الوصف كثرة، فمنها مائة وسبعون تاجاً مرصعة بالدر، وأصناف الحجارة الثمينة، ووجد فيها ألف سيف مجوهر ملوكي، ووجد بها من الدر والياقوت أكيالاً وأوساقاً، ومن آنية الذهب والفضة وأنواعها ما لا يحيط به وصف،»[1]. على أن من الثابت والمؤكد أن أفضل ما وجده المسلمون واستولوا عليه في مدينة طليطلة هو مذبح كنيستها العظمى، الذي كان وكما يؤكد كل المؤرخين تحفة فنية نادرة والذي طالما كان موضع اهتمام ورعاية ملوك القوط يبالغون في تحسينه ويزيد كل واحد منهم فيه على الآخر[2]. وقد نقل هذا المذبح إلى دمشق بعد ذلك، حمله القائدان المسلمان طارق بن زياد وموسى بن نصير حين عادا إليها وقدماه إلى خليفتها الوليد بن عبد الملك كدليل وبرهان على أهمية ما أنجزا في إيبريا وعلى عظيم ما وجدا فيها من ثروات.

وفي العاصمة القوطية العريقة تفرغ طارق بن زياد لتنظيم أمور المدينة وتدبير شؤون أهلها الذين كانوا قد عادوا للعيش فيها وأيضاً لوضع أسس دولة الإسلام فيها وحولها. عامل القائد المسلم أهل المدينة برفق وتسامح، فاختار من بينهم أحد كبار رجال دينهم جعله حاكماً عليهم ومسؤولاً عن تدبير أمورهم وترك لهم كنائسهم وأديرتهم، وأعطاهم حرية تامة في عقائدهم وطقوسهم كما في الاستمرار على نظمهم وأعرافهم القديمة.

يبدو أنه حتى ذلك الوقت، أي حتى حلول طارق بن زياد في طليطلة، واستقراره فيها كان كثيرون من الإسبان، وخاصةً أولئك الذين تعاونوا مع المسلمين وسهلوا دخولهم إلى أراضيهم ما يزالون يعتقدون أن حملة هؤلاء ليست أكثر من غارة عابرة يكسبون فيها وينهبون ويسبون ثم يعودون من حيث

(١) الروض المعطار ص ١٣٠.

(٢) الروض المعطار صفحة ١٣١.

أتـوا . أمـا كان كثيرو ن من مقدميهـم و زعمائهـم يرددون فيمـا بينهـم أن المسلمين «قوم لا حاجة لهم بإئطـان بلدنا إنما يريدون أن يملوا أيديهم ثم يخرجو ن»[1]؟ أما وقد أخذ علم دولة الإسلام الذي ارتفع لأول مرة في سماء طليطلة ، مع وصول طارق بن زياد ، يتركز وتتدعم قواعده بما صار يتخذه القائد المسلم من ترتيبات وتنظيمات ذات طبيعة دائمة ، فقد بدأت تتوضح في عقول الإسبان وضمائرهم الأبعاد الحقيقية لهزيمتهم العسكرية ومن هنا بدأ الطليطليو ن يدركو ن بصورة متزايدة أن ما حدث و يحدث حولهم كان أكثر من حادث طارىء وأن دخول لواء الإسلام إلى بلادهم يجب أن ينظر إليه بجدية أكثر وأن يعتبر نقطة تحو ل أساسية في حياة شبه الجزيرة الإيبرية . ومن هذا المنطلق بالذات بدأت تظهر عند هؤلاء ردود فعل سلبية و ربمـا عدائية و بدأوا يجنحو ن بصورة سريعة ومتزايدة نحو موقف رافض ومعارض لوجود الإسلام كدولة على أراضيهم وفي مدينتهم . وإذا كانت هذه المعارضة على أيام طارق بن زياد ، وبعدها بقليل لم تأخذ شكلاً صريحاً وعنيفاً فذلك يعود لكون المسلمين قد عاملوا سكان طليطلة بمرونة كبيرة في ذلك الوقت .

انتقال العاصمة ، بعد ذلك ، من طليطلة إلى إشبيلية[2] أولاً ثم إلى قرطبة كان نقطة تحول أساسية في موقف الطليطليين من الفاتحين الجدد . ذلك إن هذا الحادث أفقد عاصمة إيبريا القديمة تفوقاً وهيمنة طالمـا تمتعـت بهمـا وصيرها إلى وضع حاضرة ثانوية مساوية لسائر حواضر إيبريا الأخرى . وما كان مثل هذا الأمر إلا ليثير الكثير من النقمة والحقد على المسلمين في نفوس سكان طليطلة وليدفعهم إلى مزيد من المعارضة والرفض لدولة الإسـلام . ومع هذا فقد بقيت معارضة الطليطليين في إطار المعقول والمقبـول لكون

---

(١) أخبار مجموعة صفحة ٨ .

(٢) ظلت إشبيلية لمدة أربع سنوات عاصمة لدولة الإسلام في الأندلس إلى أن فضـل الوالـي أيوب بن حبيب اللخمي جعل قرطبة عاصمة للمسلمين في إسبانيا .

وطأة المسلمين عليهم ما كانت شديدة لانشغال هؤلاء عن قضايا شبه جزيرة إيبريا التنظيمية والإدارية بمتابعة فتوحهم في الشمال أولاً ثم في بلاد غالة فيما وراء جبال البيرينيه. إلا أن تطور الأحداث وهزيمة المسلمين الحاسمة في غالة في سنة ٧٣٢ ميلادية فرضا تغييراً جذرياً في سياسة هؤلاء حيال الشعب الإسباني. ذلك إن الهزيمة في معركة «بلاط الشهداء» قضت على آمالهم في مزيد من الفتوح والتوسع في غرب أوروبا وبات مطمحهم الأساسي هو تأكيد وجودهم وسيادتهم في الأراضي الأوروبية التي تواجدوا فيها.

بعد ذلك مباشرةً مال الفاتحون العرب إلى اعتماد سياسة جديدة في إيبريا تهدف أساساً إلى تقوية دعائم دولة الإسلام فيها وتنظيمها على أسس ثابتة ودائمة ومستقرة. وكانت الخطوة الأولى العمل على تعريب المدن والسكان والنظم والقوانين كلما كان ذلك ممكناً. ومع تقدم هذه السياسة وتحقيقها النجاح السريع كان الطليطليون يشعرون بصورة متزايدة بوطأة الحكم الجديد وبالخطر الذي يتهدد قوميتهم وعقائدهم وتقاليدهم. وهذا جعلهم يجنحون بالمقابل إلى مزيد من المعارضة لدولة الإسلام وإلى مزيد من العداء لحكامها وسادتها في قرطبة العاصمة الجديدة والمنافسة لمدينتهم العريقة. ومع هذا فإن معارضة الطليطليين لم تصل بهم إلى حد المواجهة المسلحة وحمل السلاح بوجه المسلمين لأن مشاغل هؤلاء كانت كثيرة، ثم أن وضعاً قلقاً ما لبث أن ساد صفوفهم الداخلية بسبب ما بدأ ينتشر بينهم من خلافات وانقسامات عربية - بربرية، عرقلت عملية التعريب بعض الشيء وأضعفت قليلاً حركة الأسلمة. وهذا كله خفف مجدداً مخاوف الطليطليين وأعاد إليهم بعض الاطمئنان ولو إلى حين. ولكن بالمقابل عداءهم لقرطبة وحكامها لم يفتر أبداً. وكانت مصاعب المسلمين المتزايدة بعد ذلك تدفعهم إلى مزيد من الوضوح والعلنية في رفضهم لسيادة قرطبة وفي معارضتهم

لحكامها وسادتها بل إنهم مع الوقت ذهبوا في معارضة سلطات العاصمة إلى درجة صاروا لا يترددون معها في استقبال وإيواء كل ثائر ومتمرد عليها يمدونه بالمال والغذاء والأعتدة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الطريقة التي تمت بها عملية توزيع المسلمين من عرب وبربر في شبه الجزيرة الإيبرية، لإقامتهم الدائمة في أراضيها، لم تساعد مطلقاً على استقرار الأوضاع في طليطلة بل على العكس من ذلك أمدتها بأسباب جديدة للثورة والتمرد. كثيرون من أبناء القبائل اليمنية اختاروا أن يستوطنوا مدينة طليطلة والأراضي المجاورة لها. واليمنيون، كما سنرى، سينهجون في أكثر الحالات وطيلة عصر الولاة خط المعارضة للقيسيين الذين هيمنوا على العاصمة وتسلطوا إلى حدٍ كبير على مقدرات دولة الإسلام في الأندلس. وكذلك حلت جموع كبيرة من البربر في كل مناطق الثغر الأوسط[1] حول طليطلة. والمعروف أن خلافاً كبيراً ما لبث أن دب بعد سنوات قليلة من فتح الأندلس بين العرب والبربر جعل هؤلاء طيلة عصر الولاة وفي بعض عصور الإمارة الأموية في موقف المجابهة والعداء المسلح مع سلطات قرطبة. ومن هنا تظهر التركيبة السكانية التي تشكلت في طليطلة وحولها في مطلع عصر دولة الإسلام في الأندلس قلقة ومضطربة وغير متجانسة ومعادية في أكثر الحالات لسلطات قرطبة كائناً من كان الجالس في سدة الحكم فيها.

إنما يبدو أن موقف الخصومة والعداء تجاه سلطات قرطبة أخذ يغلب

(١) درج الأندلسيون على إطلاق اسم الثغور على مناطقهم القريبة والمحاذية لأراضي الإسبان النصارى. وكانوا يسمون أراضي الثغور الواقعة في شمال شرق الأندلس القريبة والمحيطة بمدينة سرغوسة «الثغر الأعلى» وأسموا مناطق الثغور المحيطة بطليطلة «الثغر الأوسط». أما المناطق الحدودية الواقعة في غربي الأندلس والمحيطة بماردة فكانت تعرف بـ «الثغر الأدنى».

عليه مع الوقت الطابع السياسي والوطني ليتخذ موقف الرفض لدولة الإسلام مع الميل المتزايد لقبول الإسلام كدين وعقيدة. ذلك أنه ومنذ سنوات الفتح الأولى أخذ طليطليون كثيرون يتحولون عن النصرانية إلى الدين الجديد يفعلون ذلك عن قناعة وإيمان حقيقي في حالات وفي أخرى عن مصلحة. وكان يرافق حركة الأسلمة حركة استعراب سريعة باعتبار اللغة العربية ضرورة أساسية لأولئك الذين اعتنقوا الإسلام لفهم أحكامه وللتفقه بقواعده ولقراءة كتابه المعظم وبالنسبة للجميع للتعامل مع الحكام الجدد ولو عن كره لهم ومن موقف الرفض لسيادتهم. وعند نهاية عصر الولاة في مطلع النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد، وكان قد انقضى على وجود العرب والإسلام في طليطلة وحولها ما يقرب من نصف القرن كان قد نشأ في طليطلة جيل جديد من أبنائها الأصليين ولد ونشأ وعاش معظم أفراده في ظل الإسلام وتحت سيادة العرب وباتوا بالأمر الواقع من ضمن المجتمع الأندلسي الناشىء والقائم أساساً على سيادة الإسلام والعرب في أرض إيبريا. ظهور هذا الجيل من الطليطليين المتعايش مع من نزل في المدينة وحولها من عرب يمنيين ومن بربر جعل المدينة إسلامية الطابع بشكل شبه كامل وفرض عليها لغة العرب وعاداتهم وتقاليدهم مما أعطاها شكلاً مغايراً وبصورة جذرية لما كانت عليه زمن القوط. إنما كل هذه التحولات على أهميتها ما قربت المدينة من قرطبة وحكامها ولا أزالت من ضمائر الطليطليين روح القومية الإسبانية وجذور الولاء والمحبة لأرض إسبانيا. وما كانوا يرون إطلاقاً صعوبة في التمييز بين دين الإسلام ودولة الإسلام في قرطبة يساعدهم في ذلك كون من حلوا بينهم من عرب وبربر كثيراً ما أظهروا، على عظيم ولائهم للإسلام، من العداء لقرطبة وسلطاتها ما لا حدود له.

انقضى عصر الولاة بانقساماته وخلافات أهله وحكامه وحروبه الأهلية وطليطلة مستمرة على موقفها المتمرد والرافض، لما أوجده الفتح الإسلامي

في إيبريا من مستجدات عسكرية وسياسية مع قبول متزايد للدين الإسلامي. قامت بعد ذلك في هذه الأراضي دولة شابة فتية وناشطة لبني أمية عرفت باسم «الإمارة الأموية». أقام هذه الدولة شاب مغامر طموح هرب من سيوف العباسيين في المشرق هو عبد الرحمن بن معاوية الذي حكم باسم الأمير عبد الرحمن الأول والذي عرف عند المؤرخين باسم عبد الرحمن «الداخل». وأظهر الأمير الجديد منذ البداية طموحاً كبيراً وتصميماً لا حد له على إقامة دولته على ركائز ثابتة ودائمة أساسها وحدة الأمة الأندلسية من فوق كل الفروقات الجنسية والقبلية والدينية. ومن هذا الموقع رفض القبول والتسليم بوجود مناطق أو حواضر في بلاد الأندلس على بعض الاستقلال عن سيادة دولته أو على شيء من التمرد والرفض لسلطانه وحكمه. وقد أظهر منذ البداية رغبة واضحة في القضاء على كل مراكز القوى الرافضة والمتمردة، وطليطلة في مقدمتها.

طليطلة وعبد الرحمن «الداخل»:

أدركت طليطلة منذ البداية الأبعاد الحقيقية لقيام الإمارة الأموية في الأندلس وفهمت أنها لا بد أن تسعى لأن تكون قوية وفاعلة ونافذة ومركزية السلطان كما كانت الخلافة الأموية في دمشق. كانت تعرف أن عبد الرحمن سيقضي، أو على الأقل سيحاول القضاء، على كل بؤر التمرد ومراكز القوى شبه المستقلة التي ازدهرت كثيراً في فترة الفتنة التي عمت الأندلس في السنوات الأخيرة من عصر الولاة ليقيم على أنقاضها دولة الإسلام الواحدة الموحدة. ومن هذا المنطلق والى الطليطليون حاكمهم هشام بن عزرة الفهري قريب وحليف يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس الذي هزمه عبد الرحمن الأول وقضى على نفوذه وحكمه. ليس هذا فقط بل قدموا للفهريين عموماً ولسائر أتباع الوالي السابق الملجأ والمأوى وكل الدعم المالي والعسكري في مواجهتهم لسلطان قرطبة. وحين هرب يوسف الفهري

من داره في قرطبة ، بعد أن كان قد صالح الأمير الأموي واعترف بدولته ، ثائراً متمرداً وساعياً في القضاء على الإمارة الأموية الفتية كانت طليطلة وأحوازها بمن فيها من عرب يمنية وبربر وإسبان مسلمين أو نصارى على استعداد تام لحمل لوائه وتبني ثورته والقتال تحت زعامته. وقد جمع يوسف الفهري جيشاً ضم عشرين ألف جندي جلهم من البربر واليمنيين قاتل به جيوش الأمير الأموي فهزم في أكثر من موقعة حل بعدها في منطقة طليطلة. وقد ظل هناك بدعم من الطليطليين يتجول في المنطقة ويثير الاضطراب والفتن بوجه السلطات الشرعية إلى أن أقدم بعض أنصاره على اغتياله في سنة ٧٥٩ (١٤٢ هـ)[١]. وما لبث ابنه أبو الأسود بعد ذلك أن فر من سجن وضعه فيه عبد الرحمن الداخل وقصد طليطلة حيث رفع فيها وبحماية أهلها وحاكمها هشام الفهري لواء الثورة على قرطبة. ولم يتهاون الأمير عبد الرحمن في مواجهة الثائر الجديد فندب أحد أقرب أعوانه إليه تمام بن علقمة على رأس جيش كبير حاصر طليطلة حتى استسلمت وقبض على الثائر فيها وأرسله إلى قرطبة. وبذلك قضي مؤقتاً على تحركات الفهريين في طليطلة وتسلم تمام حاكمية المدينة إنما دون أن يعني ذلك استكانة أهلها. بقيت طليطلة بعد ذلك على معارضتها لسلطان قرطبة وظلت عواطف أهلها مع الفهريين وزعيمهم هشام أشد أعداء الحكم الأموي آنذاك. ولما تبنى هشام الفهري بعد ذلك دعوى العباسيين في السيادة على كل بلدان العالم الإسلامي بما في ذلك الأندلس ورفع لواءهم الأسود كانت طليطلة السباقة لتأييده ودعمه فاستضافت حركته وتحولت إلى قاعدة لتمرده على سلطان قرطبة. قويت هذه الثورة كثيراً واشتد خطرها وطال أمدها مما جعل الأمير يخرج بنفسه على رأس جيوشه لمحاصرة المدينة والقضاء على الثائرين أكثر من مرة دون نجاح. ولم ينجح في القضاء على حركة هشام الفهري الموالية للعباسيين إلا

(١) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٧٤ (طبعة بيروت).

في سنة ٧٦٤ م (١٤٧ هـ) حين تمكن بدر مولاه والحاجب تمام بن علقمة من محاصرة المدينة بشدة جعلت الجوع يعض أهلها فيسلمون رؤوس الثورة، ومنها رأس هشام الفهري، للسلطة الشرعية مقابل الأمان[1]. وعاد عبد الرحمن الأول، لضمان استمرار الطليطليين على الولاء والاستكانة فعين عليهم مجدداً «تمام بن علقمة» بعد أن كان قد قطع ولايته الأولى عليها ليعينه حاجباً له.

ولكن هل استكانت فعلاً طليطلة وهل أسلست قيادها للوالي تمام بن علقمة الشديد الولاء للأمير الأموي والعامل بصدق على تنفيذ سياسته القاضية بالقضاء على كل مراكز التمرد والاستقلال؟ الواقع إن جذور التمرد والثورة على سلطات العاصمة عند الطليطليين كانت راسخة وعميقة بحيث استحال على هزيمة أو أكثر تحل بهم انتزاع هذه الجذور من عقولهم وضمائرهم وبقي الاعتراف بسيادة قرطبة وهيمنتها عليهم بعيداً جداً عن عواطفهم وقناعاتهم. وحين ثار على عبد الرحمن أحد قادة جيشه المعروف بالسلمي بعد ذلك آوته طليطلة وقوته ودعمته بوجه الأمير إلى أن ندب له سيد قرطبة جيشاً بقيادة حبيب بن عبد الملك قضى على حركته وقتله.

عادت طليطلة بعد ذلك بسنوات لتستقبل متمرداً آخر هو «أبو الأسود الفهري» الذي سبق له أن تمرد في طليطلة وهزم وسجن في قرطبة سنين عديدة قبل أن يستعيد حريته رحمة وشفقة من الأمير لإصابته بالعمى. فر هذا من سجنه في سنة ٧٨٤ (١٦٨ هـ) ولحق بطليطلة ليرفع فيها مجدداً لواء الثورة على قرطبة. جمع جيشاً كبيراً حارب به جيوش الشرعية بقيادة عبد الرحمن نفسه التي هزمته أكثر من مرة وجردته من معظم قواته إلى أن توفي في سنة ٧٨٥ (١٧٠ هـ) في إحدى قرى طليطلة. بعدها حمل شقيقه أبو

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٤.

القاسم لواء الثورة والتمرد فسار إليه عبد الرحمن بنفسه فأخضعه وأسره وفرض على طليطلة الاستكانة والخضوع . ولكن هذه الاستكانة ما كانت إلا قصيرة ومؤقتة إذ ما لبث الأمير أن توفي بعد أشهر قليلة عادت بعدها المدينة لترفع لواء الفرقة والعصيان .

طليطلة وهشام «الرضا» :

عندما وافت الأمير عبد الرحمن الداخل المنيه ما كان بعد قد حسم مسألة خلافته بين اثنين من أكبر أولاده الأحد عشر: سليمان وهشام. ولا كان قد وضع نظاماً ثابتاً لولاية العهد في الإمارة الأموية. وعلى هذا صارت الإمارة بعد وفاته، بناء لوصية شديدة الغموض أفضى بها لولده الثالث عبدالله المعروف بالبلنسي[1]، إلى ابنه هشام الأول المعروف «بالرضا». لم يقبل سليمان كبير أولاد الأمير عبد الرحمن بما حدث ورفض الاعتراف بإمارة أخيه وذهب إلى طليطلة. وفي عاصمة القوط القديمة أعلن سليمان نفسه أميراً على كل الأندلس ولم يجد كبير صعوبة في الحصول على مبايعة الطليطليين وعلى دعمهم ومساعدتهم له وهو يعمل على جمع الأنصار والمؤيدين في جيش يزحف به على قرطبة. وما لبث شقيقه عبدالله البلنسي أن خرج على سلطان الحكومة المركزية وانضم إليه في ثورته وعصيانه. وفي سنة ٧٨٩ (١٧٣ هـ) كانت قد اكتملت استعداداته وتجمع حوله حشد عظيم من المقاتلة بينهم العديد من الطليطليين. ولم يكن هشام، على حداثة عهده في الحكم بغافل عما يعده أخواه فبادر في الوقت المناسب بجيوشه وألقى حصاراً شديداً على طليطلة دام حوالي الشهرين والمدينة مستمرة في عصيانها. وقد انتهت المواجهة بين الأشقاء الثلاثة بتسوية غادر على أثرها الأخوان بلاد الأندلس إلى المغرب يعيشان فيه في حماية قبائل البربر هناك[1]. وانقضت سنوات

(١) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٣٣٤ (طبعة بيروت).

(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٩٤ (طبعة بيروت).

حكم الأمير هشام الرضا الثمانية دون أن تعود المدينة المتمردة إلى رشاد الطاعة بشكل دائم وثابت ومستقر.

طليطلة والحكم «الربضي»:

كل هذا العداء وهذه الخصومة لقرطبة وسادتها العرب، وأبناء جلدتهم عموماً، ما عرقل انتشار الإسلام السريع بين سكانها وفي أوساط المقيمين في منطقتها ولا أوقف حركة الاستعراب بين من أسلموا من الإسبان كما بين من حافظوا على نصرانيتهم. ومع بداية ولاية الأمير الحكم وحين صار القرن الثامن للميلاد في أواخره كان الإسبان الذين تحولوا إلى الإسلام والذين صاروا يعرفون باسم «المولدون»[1] قد صاروا أكثرية كبيرة بين سكان طليطلة. وحتى تلك القلة التي تمسكت بنصرانيتها كانت قد استعربت بشكل شبه كامل وصارت من تلك الفئة التي درج المؤرخون والإسبان عموماً فيما بعد على تسميتها بـ «المستعربون»[2] لتمييز أبنائها عن الإسبان النصارى الذين

(١) المولدون: درجت المصادر العربية على تسمية أبناء الطبقة الثانية من الإسبان التي اعتنق أفرادها الإسلام باسم «المولدون». والمولدون هم بصورة أوضح الجيل الثاني من الإسبان المسلمين. والمولدون بصورة عامة قد أخذوا بدين الإسلام وتعلموا لغة المسلمين واكتسبوا عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم وأساليبهم في العيش والسياسة والإدارة. ومع الوقت وبسبب التزاوج والاختلاط بين مختلف عناصر المسلمين في الأندلس تخلى المولدون عن الكثير من ذكريات تاريخهم القديم وعاداتهم الموروثة من المجتمع القوطي. إلا أنهم في كل الحالات ومن فوق كل المتغيرات تمسكوا بوطنيتهم الإسبانية وحافظوا على شخصية مميزة استمدوا بعض خصائصها من كبير ولائهم لأرض إيبريا. وكانت أهم تجمعات المولدين تتركز في الأرياف والحواضر الكبرى كإشبيلية وسرغوسة وماردة وطليطلة.

(٢) المستعربون: وهم أولئك الإسبان الذين مع تمسكهم بديانتهم الكاثوليكية بقوا في أراضيهم وحواضرهم بعد الفتح الإسلامي ووالوا دولة الإسلام في الأندلس وقبلوا سلطة رجالها وحكامها في قرطبة. وهم بالتالي ومع الوقت أخذوا باللغة العربية والثقافة العربية وتبنوا عادات العرب وتقاليدهم وتعلموا أساليبهم في العيش. ومع أن عدد هؤلاء كان في تراجع مستمر أمام حركة الأسلمة إلا أنهم ظلوا دائماً يشكلون أقليات كبيرة وفاعلة ومؤثرة في الحواضر الكبرى.

ما خضعوا في يوم من الأيام لسيادة دولة الإسلام. والغريب أن هذا التحول الكبير والسريع نحو الإسلام والعربية لم يغير من خط العداء الذي اتخذه الطليطليون منذ البداية تجاه السلطة المركزية ولا حتى خفف من حدة هذا النهج. بل سنرى أن جل حركات التمرد والعصيان التي ستقوم في المدينة منذ مطلع القرن التاسع ستكون بمبادرة من المسلمين وبقيادة أناس منهم.

وهكذا واجه الحكم الأول «الربضي» ومنذ مطلع ولايته عداءً ورفضاً من أهل طليطلة لا يقلان عما طالما واجهوا بهما أباه وجده. بعد عام واحد من ولاية الأمير الحكم الأول أعلن مولد يدعى عبيدة بن حميد ثورة[1] في طليطلة ودعا أهلها من مولدين ومستعربين وبربر إلى تأييده ومساعدته. وكان في المدينة آنذاك شاعر مولد من أهلها، يدعى غربيب بن عبدالله[2]، على عداء شخصي مع أمير قرطبة فتبنى الثورة وصار يدعو الطليطليين لدعمها وتأييدها. استغل بمهارة نادرة ذكاءه وجوده وبلاغته وشهرته كشاعر مبدع لإنجاح هذه الثورة خاصةً وأن أهل طليطلة على عادتهم تجاوبوا مع دعوته وشدوا أزر عبيدة بن حميد في عصيانه على سيد قرطبة. وقد وصف المؤرخ الإسباني سيمونيت هذا الشاعر بقوله: «كان على رأس الوطنيين الطليطليين كمرشد وزعيم شاعر من أصل إسباني يدعى غربيب عرف برجولته وعلمه، احترمه أصحابه كما أخصامه لفضائله ومكارمه. وكان لما له من شعبية بين أهل المدينة يثير فيهم دوماً بقصائده وأغانيه الروح الوطنية المقدسة[3]». ولكونه مسلماً ومن أرومة إسبانية انتشرت دعوته لتأييد الثورة في المناطق المحيطة بالعاصمة القوطية وتحمس الناس لها مما أثار مخاوف وقلق الأمير

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٠٤ (طبعة بيروت).

(٢) بغية الملتمس الضبي رقم ١٢٨١ صفحة ٤٢٨ ـ المغرب في حلى المغرب ابن سعيد جـ ٢ ص ٢٣.

(٣) Historia de los mozarabes simonet. P. 300.

الحكم. وعلى كثرة مشاغل سلطات قرطبة بحركات مناوئه قامت في جنوب الأندلس وبتمرد بعض أقارب الأمير بادر هذا لمحاولة القضاء على تمرد عبيدة بن حميد قبل أن يستفحل. ندب لهذه المهمة حملة عسكرية خاصة جعل على رأسها عمروس بن يوسف، وهو مولد من أهل مدينة وشقة، كما عينه حاكماً على مدينة طليطلة. اختار الأمير هذا الرجل لهذه المهمة الصعبة لكونه من أصل إسباني ومن أبناء مناطق الثغور مما قد يجعل أهل طليطلة يأنسون إليه ويتعاونون معه ولكونه أيضاً كان شديد الولاء لشخص الأمير وكبير الإخلاص للبيت الأموي عامة. وقد أطلق الأمير يدعمروس بالقضاء على الثورة واستئصال نزعة التمرد الدائمة عند أهل طليطلة. نازل عمروس قوى الثائرين في احواز طليطلة في معارك كثيرة دون أن يتوصل للقضاء عليهم فرأى أن يلجأ لخديعة يتخلص بها من قائد الثورة ورئيسها. اتصل سراً برجال داخل المدينة وأغراهم بالمال فقتلوا الزعيم المتمرد عبيدة بن حميد وأرسلوا رأسه إلى عمروس المعسكر مع رجاله في طلبيرة[1].

دخل عمروس بعد ذلك المدينة سلماً وبموافقة أهلها يدبر أمورها بكثير من الحكمة والكياسة حتى اطمأن إليه هؤلاء وتعاملوا معه. وليدخل إلى قلوب أهل طليطلة مزيداً من الاطمئنان اختار السكن خارج الأسوار فبنى لإقامته، هو وجنده، قصراً على مرتفع عند مدخل المدينة[2] وترك أهل المدينة سادة أحراراً في داخلها.

وحين أدرك أن الأمر استقر له بما يكفي وأن الطليطليين استكانوا بعض الشيء قرر تنفيذ المهمة الأساسية التي كلفه بها سيده بشكل يخضع المدينة للدولة وللأمير إن لم يكن للأبد فعلى الأقل لزمن طويل. دعا ولي العهد

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٠٤ طبعة بيروت.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ابن القوطية صفحة ٦٩.

عبد الرحمن ابن الأمير الحكم، وكان يعبر أراضي الثغر الأوسط على رأس حملة عسكرية إلى أراضي الإسبان النصارى في الشمال، إلى وليمة كبرى في قصره الجديد. ودعا إلى هذه المناسبة كبار أهل طليطلة وعلمائها وثراتها وكل من كان يشك في ولائه للأمير. ورسم أن يدخل هؤلاء من باب ليخرجوا من آخر. وعند وصول المدعويين كان الخدم وموظفو التشريفات يرافقونهم من الباب إلى مكان أعد سلفاً وبمنتهى السرية لهذه الغاية وقف فيه سيافون على شفير حفرة. وكان كلما وصل واحد من الطليطليين إلى المكان ضربت عنقه وألقي جسده في الحفرة. ما فطن أهل طليطلة إلى ما كان يحدث إلا متأخرين لأن أصوات قرع الطبول حجبت عن أسماعهم صراخ واستغاثة الضحايا. لقد أجرى عمروس في ذلك اليوم المشؤوم من سنة ٧٩٧ (١٨١ هـ)[٢] على الأرجح مذبحة رهيبة قتل فيها حوالي سبعمائة رجل من مقدمي المدينة. وما تزال هذه المذبحة معروفة حتى اليوم في التاريخ الأندلسي باسم «حفرة عمروس».

أوجدت هذه الواقعة ألماً عميقاً في نفوس الطليطليين كما في بيوتهم وحرمتهم من خيار رجالهم. استكانت المدينة بعد ذلك لسنوات عديدة حتى في الفترات التي كان عمروس يتركها للقيام بحملات عسكرية إلى أراضي الشمال الإسباني. هذا في الظاهر إنما في الواقع هذه المذبحة زادت من كره أهل طليطلة لسلطات قرطبة وأوجدت عندهم سبباً جديداً للإيغال في معاداة الحكام الأمويين. وما أن استدعي عمروس في سنة ٨١١ م (١٩٦ هـ)

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس صفحة ٦٩.

(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٠٤ (طبعة بيروت) - هناك مراجع أخرى تجعل المذبحة في سنة ١٩٠ أو ١٩١هـ مثل ابن الأثير. إنما يبدو أن رواية ابن عذاري أقرب إلى الواقع لقرب صاحبها من الأحداث ولما عرف به من دقة الرواية. ثم إن ابن حيان المعروف بتحريه الشديد للحقيقة وقربه من الأحداث أيضاً يؤكدها.

للمشاركة في حملة عسكرية متوجهة إلى أراضي الثغر الأعلى حتى عادت طليطلة ترفع لواء العصيان والتمرد.

ندب الأمير بعد ذلك أكثر من حملة ألقت الحصار على المدينة وأخضعتها ولكن دائماً بصورة آنية ومؤقتة ليعود بعدها الطليطليون إلى التمرد والعصيان. وفي سنة ٨١٥ م (١٩٩ هـ) قاد الأمير الحكم بنفسه حملة دخلت المدينة، في غفلة من أهلها، ليلاً «واستوسق له ملكها دون مؤونة ولا قتال»[١] وانتقم من أهلها وأحرق بعض ديارها. وأخيراً ومع اقتناع سلطات قرطبة بتجذر نزعة العصيان والتمرد عند أهل طليطلة وصعوبة الحصول على خضوعهم الدائم أمر الأمير الحكم بإنشاء جهاز أمني خاص، ليمنع على الأقل أذاهم عن المناطق المجاورة وليضمن طرق المواصلات في مناطق الثغر الأوسط وخاصة تلك الموصلة بين شقي إيبريا المسيحي والمسلم.

طليطلة وعبد الرحمن الثاني:

حركات التمرد والعصيان وكذلك الانقسامات السياسية والعنصرية التي عرفتها الأندلس منذ بداية الفتح الإسلامي على كثرتها وتنوع أهدافها وأسبابها، وإن عرقلت أحياناً وعقدت مسار دولة الإسلام في الأندلس فإن هذه كانت في تقدم وازدهار مستمرين. وقد سارت شوطاً بعيداً في طريق الوحدة والتكامل والازدهار منذ صارت الأمور في قرطبة إلى أمراء من البيت الأموي العظيم. فإرادة الحياة عند رعايا الدولة الأموية كانت أقوى من كل المعوقات ومنها بالطبع ثورات طليطلة المستمرة./وأيضاً تصميم الأمويين على إقامة دولة لهم في غرب أوروبا لا تقل سناءً وبهاءً عن تلك التي دالت في المشرق، كان قوياً راسخاً ودون حدود. ومن هنا رأينا دولة الإسلام في الأندلس، حين آلت مصائرها إلى الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط في سنة ٨٢٢ م (٢٠٦ هـ)، قوية يرفرف السلام على جل مناطقها، ذات إدارة بالغة

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١١٣ (طبعة بيروت).

التنظيم ولها خزينة عامرة بالمال، واقتصاد ينمو ويزدهر بصورة مضطردة[1].

أدرك الطليطليون منذ مطلع عهده هذا الواقع وتهيبوا ما كان معروفاً به من قوة وإرادة صلبة فمالوا عن أعمال الثورة والعصيان المنظم وجنحوا، انسياقاً وراء أحقادهم الدفينة، نحو أعمال أقل أهمية ولكنها تندرج في إطار أعمال الإجرام واللصوصية بعيداً وإلى حد كبير عن حدود الوطنية والعصبية القومية مما كانت دائماً تزخر به صدورهم. في سنة ٨٢٩ (٢١٤ هـ) ظهر في طليطلة متمرد مغامر يدعى هاشم الضراب ودعا الناس للعصيان على سلطان أمير قرطبة. والضراب هذا هو مسلم من أبناء الإسبان شهد مذبحة «حفرة عمروس» وعاش بعدها سنوات يعمل كضراب في دكاكين الحدادين في قرطبة. استغل فرصة انشغال سلطات قرطبة بقمع اضطرابات قامت في جنوب الأندلس بين قيسيين ويمنيين من أبناء القبائل العربية فقرر العودة إلى بلده ليدعو الناس للتمرد والعصيان في وقت اعتقد أن الدولة لن تكون فيه قادرة على قمعهم. وكان واضحاً منذ البداية أن حركته تفتقر للمضمون الديني أو الوطني أو العقائدي وأنها كانت في الأكثر ذات جذور إجرامية ونفعية. ومع هذا تبنى بعض الطليطليين وبصورة عفوية ولاشعورية هذه الدعوة وانساقوا في تيارها. وفي فترة زمنية قصيرة تحلق حول الضراب عدد من المجرمين والمغامرين والعاطلين عن العمل ومحترفي اللصوصية، جعل منهم عصبة برزت في الاعتداء على سكان المناطق المجاورة وسرقة المسافرين على طرقاتها والتعرض للتجار والقوافل على الطرق الرئيسية. وقد نجح الضراب فعلاً في فترة زمنية قصيرة في إشاعة الخوف والفزع في أرجاء الثغر الأوسط المحيط بطليطلة. انشغال حكومة قرطبة آنذاك في مناطق أخرى وبأمور أكثر إلحاحاً زاد في قدرات هذه العصبة التي أوصلت نشاطها إلى منطقة شنتبرية

---

(١) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس صفحة ٢٠٦.

القريبة تخرب فيها الحقول وتدمر الأبنية والمنازل وتقتل الناس من عرب أو بربر.

في النهاية ولما لم يعد الأمير عبد الرحمن الثاني يستطيع أن يتغاضى أكثر عن ممارسات الضراب وعصبته وما كان يرافق ذلك من اضطراب مستمر لأمن مناطق الثغر الأوسط أمر محمد بن وسيم قائد جيوش الدولة الأموية هناك بوضع حد نهائي لهذه الأعمال. وبعد أكثر من محاولة تمكن هذا القائد في سنة ٨٣١ (٢١٦ هـ) من إنزال هزيمة ساحقة بالمتمرد وقتله وتشريد عصبته[١]. لم ينه الموت حكاية هذا المغامر فتحول، على كثرة موبقاته وشروره، في أنظار الطليطليين إلى بطل وطني مات دفاعاً عن قضية عادلة ونبيلة. ندب الأمير عبد الرحمن شقيقه أمية بن الحكم بعد ذلك بثلاث سنوات إلى طليطلة فحاصرها حصاراً طويلاً وخرب أحوازها ونجح فتاه ميسرة في قتل جمع كبير من أهلها إنما دون أن يفضي ذلك إلى دخولها. وقد طال حصار طليطلة كثيراً، نظراً لإصرار الأمير عبد الرحمن الثاني على إخضاع أهلها، وفي النهاية وبعد أكثر من محاولة وفق الوليد بن الحكم[٢] شقيق أمير قرطبة في حزيران من سنة ٨٣٧ (٢٢٢ هـ) في دخول المدينة بمساعدة أحد مقدميها ويدعى بن مها جر دون قتال[٣]. بعد هذا التاريخ حافظت طليطلة، ربما لتعب أهلها من العصيان ولكثرة ما نزل بساحتهم من خسائر في الرجال والمال، لفترة طويلة على استكانة هادنت معها أمير قرطبة وعماله إلى أن جاءت بعد وفاته أحداث عصر الفتنة والتمزق في قرطبة كما في كل الأندلس تعيدهم إلى الخط الذي طالما أحبوه والتزموا به وهو خط العصيان والتمرد والجنوح نحو الاستقلال بأمورهم.

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٢٥ (طبعة بيروت).

(٢) وفي رواية أخرى أوردها ابن عذارى نفسه إن القائد الاسكندراني هو صاحب هذا الإنجاز.

(٣) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٢٧ (طبعة بيروت).

طليطلة أيام الفتنة والتمزق :

مع صيرورة أمور دولة الإسلام في الأندلس، بعد وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني في سنة ٨٥٢ (٢٣٨ هـ)، إلى ابنه الأمير محمد بدأت مرحلة في حياة الدولة الأموية في قرطبة دامت حوالي ستين سنة وشملت أيامه وأيام ولديه المنذر وعبدالله توقف فيها مسارها في دروب التقدم والعلى وشاع في أقطارها الاضطراب والفتنة وصار الانفصال ورفع لواء الفرقة هو القاعدة والعادة عند حكام وأمراء ومقدمي الأقاليم والحواضر الكبرى[1]. وقد بدت الدولة الأموية في الأندلس خلال هذه الفترة التي يبدو لي من المناسب أن أسميها «عصر الفتنة والتمزق» وكأن كل ما كان في تركيبتها السكانية من انقسامات وحساسيات وعصبيات وتناقضات وكل ما في بنيتها السياسية من خلل وضعف قد ظهر على واجهة الأحداث وأخذ يتفاعل بشكل خطر وأحياناً مدمر. وقد صار نفوذ الأمراء الأمويين وحكوماتهم المركزية في بعض الساعات أضعف من أن يتجاوز أسوار العاصمة وبعض القرى القريبة منها كما حدث بصورة خاصة على أيام الأمير عبدالله.

إذا كان جل ثورات الطليطليين قد انبعث من مدينتهم وبمبادرة من بعضهم ومن وحي قناعاتهم الوطنية فإن تحركاتهم على أيام الأمير محمد كانت ردود فعل لحركة ظهرت في قرطبة وعلى أيدي عناصر غير مسلمة. فقد ظهرت في قرطبة في السنوات الأخيرة من حكم الأمير عبد الرحمن الثاني وعلى يد راهب من المستعربين يدعى أولوخيو، من عائلة مسيحية عريقة في نسبها، مقدمة في مكانتها وبارزة في ثروتها، حركة مقاومة سلبية لحكم دولة الإسلام في الأندلس. ذلك أن السرعة التي كان يتحول بها الإسبان في الأندلس عن لغتهم وقوميتهم ما كان يمكن إلا أن تخلق في الأوساط

(١) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ص ٢٥٤.

المسيحية المحافظة والمتعصبة لوطنيتها ودينها ردود فعل سلبية. إذ إن هذا كان يخلق شعوراً داخلياً بالخوف والقلق من أن يتحول الإسبان النصارى في مستقبل قريب إلى أقلية صغيرة جداً تعيش على هامش الأحداث في أرضها ووطنها. ومما كان يزيد في الخوف والحذر كون الاستعراب ما كان في حالات كثيرة إلا الخطوة الأخيرة في طريق التحول نحو الإسلام وهذا بالذات ما صار يقلق الأوساط المتدينة ورجال الكنيسة في قرطبة. وكانت مظاهر القلق والخوف عند هؤلاء تقوى وتزداد كلما كثر المستعربون وأيضاً كلما كثر أولئك الذين جعلوا من الاستعراب ممراً للإسلام. وفي عهد عبد الرحمن الثاني وما رافق حكمه من هدوء واستقرار، وما صار يحيط بالحكم الإسلامي من فخامة وأبهة ومراسم ملوكانية، ومع ما كان يتحقق لدولة الإسلام في الأندلس من علاقات خارجية وصداقات عبر الحدود، وأيضاً مع ما وصل إليه المجتمع الأندلسي المسلم من تقدم وازدهار وغنى، وصل المحافظون الإسبان إلى نقطة الرفض المطلق لدين الإسلام ودولته مخافة أن تأتي هذه المظاهر على ما تبقى للمسيحية وللقومية الإسبانية من وجود ونفوذ في الأندلس. وللتعبير عن هذا الرفض اختاروا، بزعامة رائد هذه الحركة أولوخيو المقاومة السلبية. لقد اختاروا ذلك لأنهم، وهم في قرطبة العاصمة، كانوا أمام الحكومة المركزية بما لها من قوات أمن لا حد لطاقاتها وبما عندها من جيوش وأموال وبالتالي كانوا يعرفون أنها قادرة على أن تسحق بساعات أي تمرد مسلح أو عصيان. وكان هؤلاء يعبرون عن مقاومتهم بسب الإسلام وشتم رسول المسلمين ومقدساتهم علناً في الأسواق وأمام المساجد. ولما كانت عقوبة مثل ذلك الإعدام فقد أعدم كثيرون من القرطبيين لهذا السبب، كان في مقدمتهم راهب يدعى برفكتو. تكرار هذا العمل أحرج حكومة قرطبة إلى حد كبير لأنها لم تكن قادرة على الاسترسال في إعدام المستعربين ولا كانت قادرة على التغاضي عما يقترفه متطرفوهم.

هذه الحركة مع امتدادها إلى خارج قرطبة ومع إقبال شبان من المستعربين بعفوية لا حدود لها وبإيمان صوفي على طلب الموت كانت لها ردود فعل قوية في الحواضر التي يكثر فيها المستعربون. وكان تجاوب المستعربين من أبناء طليطلة قوياً دون حدود. والغريب أن المولدين من أبناء هذه المدينة على شديد تمسكهم بإسلامهم ما نظروا إلى هذه الحركة إلا من جانبها الرافض لسلطات قرطبة فأيدوها. وبسرعة تحول أولوخيو بنظر أهل طليطلة من مسلمين ونصارى إلى بطل وطني لمجرد أنه تصدى لسلطات العاصمة. هذا الحماس أخاف الأمير عبد الرحمن بعض الشيء ولكنه ظل واثقاً من أن المدينة لن تحمل السلاح بوجهه خوفاً على حياة رهائن من أبنائها كان يحتجزهم عنده ضماناً لاستمرار المدينة على ولائها لحكمه.

استكانة أهالي طليطلة ما طالت كثيراً فقد بادروا وقبل أن يمر وقت طويل على تسلم الأمير محمد زمام الأمور في قرطبة إلى رفع لواء العصيان على سلطانه. استولوا على المنشآت العامة في بلدهم وأسروا حاكمها حارث بن بزيع وجعلوا منه رهينة عندهم بعد أن هزموا جنوده. وقد طلب الثائرون مقابل الإفراج عن الحاكم الأسير أن يأمر الأمير بتحرير الرهائن الطليطليين المحتجزين في قرطبة من أيام الأمير عبد الرحمن الثاني. وما أطلق الطليطليون سراح الحاكم إلا بعد أن أطلقت سلطات قرطبة الرهائن وتركتهم يعودون إلى ديارهم.

الحماس الكبير الذي أظهره سكان طليطلة من مولدين ومستعربين وبربر في عصيانهم الجديد على سلطان قرطبة وتأييدهم دون حدود لحركة أولوخيو على ما فيها من مضامين معادية لدولة الإسلام ولدينه أخافا الأمير بما يكفي للمبادرة بإرسال حملة عسكرية كبيرة مع بداية صيف السنة ٨٥٣ م (٢٣٩ هـ). جعل الأمير شقيقه الحكم على رأس هذه الصائفة وأمره بإعادة الثائرين المتمردين إلى رشاد الطاعة. ولم تحقق هذه الحملة إنجازاً يذكر

بل إن شرذمة من جنودها تعرضت لكمين على أيدي الثائرين ذهب بأكثر رجالها. عاد الأمير بعد ذلك إلى العاصمة واستمر الثائرون يزرعون الخوف في منطقتهم ويهاجمون الجنود والحاميات الموالية للحكومة المركزية كلما أمكنهم ذلك. وفي السنة التالية ٨٥٤ (٢٤٠ هـ) قرر الأمير أن يرأس بنفسه صائفة كبيرة إلى منطقة الثغر الأوسط فأعد لها جيشاً كبيراً أراده بحجم تمرد أهل طليطلة. وقد زاد تصميمه على إخضاعهم بعد ما ترامى إلى مسامعه من أنهم اتصلوا بملك استورياس اردونيو الأول الذي أمدهم بجيش كبير بقيادة أحد مقدمي الإسبان يدعى غاستون[١] لمساعدتهم. وحين التقى الجمعان كانت بينهما معركة رهيبة سجل فيها الأمير محمد أحد أكبر انتصاراته العسكرية[٢] وقتل من أعدائه عشرين ألفاً، اثني عشر ألفاً من الطليطليين وثمانية آلاف من الإسبان النصارى على ما روى المؤرخون المسلمون. إلا أن هذا الانتصار لم يفتح أمام الأمير أبواب المدينة الدائمة التمرد ولا قدر على إنهاء عصيان أهلها. وبالمقابل كان له رد فعل عكسي عند الثائرين الذين صعدوا من عدائهم للعاصمة وأميرها وجعلوا، مدينتهم مأوى لأنصار ومؤيدي الراهب أولوخيو، ومن كنائسها وساحاتها منابر كان هذا الراهب ينفث من فوقها كل ما كان في صدور المحافظين والمتشددين من المستعربين من أحقاد ضد دولة الإسلام في الأندلس.

استمر بعد ذلك ولمدة أربع سنوات علم العصيان والتمرد على سلطان قرطبة عالياً خفاقاً في سماء طليطلة. وبالرغم من الاشتباكات الكثيرة بين جنود الفريقين وبالرغم مما قدم الطليطليون على مذبح هذا الصراع من ضحايا، ليس أقلها تلك الرؤوس السبعمائة التي نجح أحد عمال الأمير، عبدالله العريف، في سنة ٨٥٧ (٢٤٣ هـ) في فصلها عن أجساد قتلى

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٤٢ (طبعة بيروت).

(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٤٢ (طبعة بيروت).

المتمردين وإرسالها هدية إلى سيده في العاصمة.

ولم تعرف طليطلة خلال هذه الفترة حدوداً تقف عندها في صراعها مع الأمير الأموي وحكومته بل اعتبرت نفسها وكأنها قد وصلت معه ومع عماله إلى نقطة اللارجوع. ومن هنا رأينا مستعربي المدينة، يؤيدهم سائر من فيها من مولدين وبربر، عند وفاة رئيس أساقفة المدينة ويسترميرو لا يترددون حين اجتمعوا وسائر نصارى المنطقة في اختيار المتمرد أولوخيو لهذا المنصب الديني الهام. فعلوا ذلك إمعاناً في تحدي أمير قرطبة ذلك لأن رئيس أساقفة طليطلة كان آنذاك يرأس الكنيسة الكاثوليكية لكل إسبانيا[1]. ومع أن سلطات قرطبة ما اعترفت بهذا الاختيار أبداً، وكان هذا حقاً تقليدياً لها ورثته من أيام دولة القوط الغربيين فإن أصحابه تمسكوا به، وبعناد وتحد حتى النهاية مما أبقى المنصب شاغراً حتى وفاة أولوخيو في سنة ٨٥٩[2] (٢٤٥ هـ).

وأخيراً نفذ صبر الأمير محمد من توالي ثورات وعصيان أهالي طليطلة، من مولدين ومستعربين، وخشي من انتشار ذلك إلى سائر مناطق تواجد هاتين الفئتين في الأندلس فعزم على إخضاع المدينة بصورة حاسمة ونهائية لسلطان العاصمة. جهز لذلك جيشاً خاصاً تولى قيادته بنفسه. ولعل مما شجعه على اتخاذ مثل هذا القرار ما كان قد تجمع عنده من معلومات تشير إلى أن طاقات المتمردين قد استهلكت وإلى حد كبير لكثرة ما صرفوا من أموال في حروبهم، ولما أهرق من دماء رجالهم، ولما أصاب مزارعهم وقراهم من ضر وأذى. في صيف سنة ٨٥٨ (٢٤٤ هـ) خرج الأمير محمد بجيوشه وألقى حصاراً شديداً على المدينة وقطع كل صلة بينها وبين الخارج ليمنع أي عون

---

(١) لا يزال حتى يومنا هذا مقر رئيس أساقفة كل إسبانيا في مدينة طليطلة.

(٢) Simonet P. 481.

أو مدد قد يأتي من الإسبان النصارى في الشمال. وعمد في الوقت نفسه إلى توزيع جنوده على التلال المواجهة للمدينة في الضفة الثانية لنهر التاج. ولما كانت الطريق الوحيدة بين المدينة والمنطقة المحيطة بها تمر فوق قنطرة كبيرة تعلو النهر فقد أمر المهندسين والعمال المرافقين له بزعزعة قواعدها لكي لا تعود قادرة على تحمل ثقل جموع كبيرة تعبر عليها. وبالفعل حين اشتد الحصار على الطليطليين وقلت عندهم المؤن والأغذية فقرروا الخروج لمواجهة الأمير وجيوشه، ولو مواجهة يأس ومغامرة، ما تحملتهم القنطرة وانهارت تحت وطأة جموعهم، الأمر الذي انتظره وأعد له سيد قرطبة، فمات منهم خلق كثير غرقاً في مياه النهر أو اختناقاً تحت الأنقاض[١]. وما اكتفى الأمير الأموي بما أنزل بالثائرين من كارثة، فأرسل جنوده يدمرون ويخربون كل مظاهر الحياة والعمران داخل المدينة كما في أحوازها. دخل المدينة بعد ذلك ظافراً، ثم أعطى أماناً لأهلها بناء لطلب من بقي حياً من وجهائها ومقدميها، وأقام فيها حامية عسكرية قوية وقادرة على إبقاء أهلها على الطاعة والولاء له. والواقع إن المدينة بقيت على استكانتها لمدة عشر سنوات شغلت فيها بإزالة آثار ما نزل بساحتها وبأهلها من كوارث بشرية وخسائر اقتصادية[٢]. وقد جدد الأمير الأمان للمدينة خلال هذه الفترة أكثر من مرة تعبيراً عن رضاه عن مسلك أهلها[٣].

وقبل وفاة الأمير محمد هبت على دولة الإسلام في الأندلس رياح فتنة عاتية، انطلقت هذه المرة من جنوب شبه جزيرة إيبريا، هددت ركائزها وزلزلت وجودها كما لم يحصل منذ نزل طارق بن زياد في البر الأوروبي. جاء التمرد هذه المرة على يد المولدين الذين يشكلون الفريق الأهم والأكثر

---

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٤٤ (طبعة بيروت).

(٢) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس صفحة ٢٦٨.

(٣) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٤٥ و ١٥١ (طبعة بيروت).

عدداً داخل التركيبة السكانية للأمة الأندلسية. لقد جاءت الثورة هذه المرة تعبيراً عن خيبة أمل مريرة من سياسة الأمويين وسائر الطبقة العربية الحاكمة كان يشعر بها أولئك الإسبان الذين مع تحولهم إلى الإسلام وقبولهم لسيادة دولته في إيبريا احتفظوا في عقولهم وضمائرهم بولاء كبير لقوميتهم وعنصرهم وبلدهم. لقد كانت ثورة المولدين في جنوب شبه الجزيرة بصورة أساسية تعبيراً عن رفض الإسبان، من بقوا على نصرانيتهم كما من اعتنقوا الإسلام، لسياسة بني أمية القائمة على تفضيل فئة السكان العرب الدخلاء على الأرض الإسبانية على سائر المواطنين. وكانت أيضاً وفي الوقت نفسه بمثابة احتجاج على فئة الحكام الذين عملوا على نشر دين جديد بين الإسبان يعد من يؤمنون به بالكثير الكثير من أسباب العدل والمساواة والحرية مما كان الحاكمون باسم هذا الدين والرافعون للوائه يمنعونه عنهم في أكثر الحالات. بدأت هذه الثورة في مقاطعتي رية وتاكرنا بزعامة مولد يدعى الجزيري في سنة ٨٧٩ (٢٦٥ هـ). وما لبثت الدولة الأندلسية أن قضت على تحرك هذا المتمرد وأسرته ونقلته مكبلاً بالأصفاد إلى العاصمة. إلا أن العصيان لم يتوقف وزيادة ثورة المولدين صارت إلى مولد آخر يدعى عمر ابن حفصون كان على درجة عظيمة من الحنكة والذكاء والقدرة على القتال والصمود كما على المناورة والمفاوضة. مع هذا المغامر نمت بسرعة مذهلة حركة العصيان هذه وتحولت إلى تحد خطير بل ربما إلى أخطر ما واجهه الأمويون منذ قيام دولتهم من رفض ومعارضة. لقد صارت ثورة المولدين مع ابن حفصون أكثر من تمرد عصاة عاديين أو عبث مفسدين في الأرض كما درج المؤرخون المسلمون على تصويرها. «لقد كان عمر ابن حفصون في أقواله كما في أفعاله يعبر فعلاً عن عواطف وأماني وشكاوى كل تلك الفئات من الإسبان المسلمين والنصارى، على السواء، وأيضاً البربر التي قبلت زعامته والتحقت بثورته وحاربت تحت لوائه وقدمت التضحيات العظيمة في الأرواح كما في

الأموال مما جعل هذه الثورة تنتشر على نطاق واسع وتصل في أكثر من مرة بسلطانها إلى مشارف العاصمة وتهدد ركائز الدولة لمدة تقرب من نصف القرن»[1].

عند ظهور هذه الحركة لم يتردد الطليطليون في التجاوب في ضمائرهم وعواطفهم مع دعاتها، خاصة وأنهم كانوا في أكثريتهم من المولدين وفي أقليتهم من المستعربين والبربر. لقد اكتفوا بالتجاوب مع هذه الحركة عاطفياً فقط إذ كانوا حريصين على المحافظة على أمان منحهم إياه الأمير محمد لكثرة ما أنزل هذا بساحتهم من كوارث ولما استنفذ من طاقاتهم المادية والبشرية.

هذه الاستكانة ما طالت كثيراً لأن نزعة أهل طليطلة لمعاداة سلطات قرطبة ظلت أقوى من أن تقف عند منطق عقلاني أو عند ضرورة أخذ واقعهم بعين الاعتبار. مع انتقال السلطة من الأمير محمد إلى ولده المنذر وما يرافق ذلك عادة من إرباك للسلطة المركزية زاد فيه ما صارت إليه من قوة وقدرة على الصمود ثورة ابن حفصون في الجنوب، بادر الطليطليون إلى محاولة استغلال الظرف فخرجوا عن عهد الأمان المعطى لهم ورفعوا لواء العصيان والتمرد في سماء مدينتهم. لقد ثاروا متحالفين مع بعض جيرانهم من البربر إلا أن المنذر تمكن من القضاء على هذا التمرد في نفس السنة[1] وبحملة صغيرة هزمتهم وقتلت منهم خلقاً كثيراً.

بعد ذلك وطيلة عصر الأمير عبدالله ولعدة سنوات من بداية عصر عبد الرحمن الثالث الناصر شغلت سلطات قرطبة باستفحال أمر عمر ابن حفصون وشمول ثورته معظم مناطق الأندلس وما رافق ذلك من ثورات

(١) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس صفحة ٢٧٥.

(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ١٧٥ طبعة بيروت.

وحركات انفصالية قامت بها عناصر مختلفة، عن طليطلة وأهلها مما جعل هؤلاء وبقوة الأمر الواقع أحراراً في تصريف شؤونهم الداخلية كما أرادوا وتمنوا دائماً. إنما يبدو أن هذا ما حصل إلا بمساعدة عسكرية وربما بحماية أحياناً من بعض جيرانهم في الدويلات الإسبانية المسيحية وأحياناً أخرى من بعض مراكز القوى التي أقامها سادة وإقطاعيون مسلمون في المناطق المجاورة لهم. وهذا قاد طليطلة إلى الوقوع في سنة ٨٨٨ (٢٧٤ هـ) تحت نفوذ وحماية واحد من هؤلاء يدعى موسى بن ذي النون من كبار زعماء البربر وكان يحكم في شنتبرية وأحوازها. أراد موسى هذا، وكان من أبناء قبيلة هوارة الكبيرة والقوية، أن يوسع مناطق سيطرته على حساب سيد قرطبة بعد أن غرق هذا في مشاكل البلاد الأمنية، فتحالف وتآمر مع أحد وجهاء طليطلة، لب بن طربيشة كان على خلاف شديد مع أهل مدينته. اعتماداً على هذا التحالف قاد موسى بن ذي النون جيشاً من عشرين ألف جندي، جلهم من البربر، فهاجم المدينة وألقى عليها حصاراً شديداً. وفي مواجهة عسكرية جرت بينه وبين الطليطليين، حين حاولوا الخروج لكسر طوق الحصار، هزمهم هزيمة قاسية ودخل مع رجاله المدينة. وقد حقق ابن ذي النون هذا الإنجاز بفضل المساعدة القيمة التي أمده بها حليفه بن طربيشة. وفي ظل سيادة موسى بن ذي النون اتسع نفوذ طليطلة كثيراً وعمرت أحوازها كما أحواز شنتبرية بالحصون والقلاع وازدهرت فيها وحولها التجارة كما الزراعة وكثرت ثروات الناس[٢].

استكانت طليطلة لسيادة بني ذي النون، برضى أهلها وقبولهم إلى حد

(١) عائلة بربرية عريقة نزلت شبه الجزيرة الإيبرية مع طوالع الفتح الإسلامي الأولى، واستقر ابناؤها منذ ذلك الحين في كورة شنتبرية، واتخذت من مدينة شنتبرية Santaver مسكناً ومقراً لأبنائها. وكان أبناؤها يقومون، سواء في عصر الولاة أم على أيام بني أمية بدور أساسي في حماية مناطق الثغور المجاورة لإسبانيا المسيحية من هجمات جنود هذه الأخيرة.

(٢) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ص ٣٠٠.

كبير، حتي سنة ٨٩٧ (٢٨٤ هـ) حين صارت أمورها، ولسبب غير واضح، إلى واحد من سادة مناطق الثغر الأعلى من بني قسي. وارتبط مصير المدينة بعد ذلك ولعدة سنوات بمناطق الثغور العليا الشديدة الارتباط والوثيقة الصلة بإسبانيا المسيحية، على كبير ولاء أهلها لدين الإسلام. وفي سنة ٩٠٦، على أيام الأمير عبدالله، سئم الطليطليون حكم سيدهم من بني قسي[١] وكرهوا أسلوبه في تدبير أمور مدينتهم فحملوا السلاح ضده وقتلوه وصيروا أمورهم إلى واحد منهم، لب بن طربيشة، الذي كان أساساً حليفاً لبني ذي النون ولبني قسي من بعدهم. ظل هذا متحكماً بمصير طليطلة، مستقلاً بتدبير شؤون أهلها ومبتعداً بهم قدر الإمكان عن تأثيرات الجو العاصف سياسياً وعسكرياً في الأندلس كل أيام الأمير عبدالله.

ومع قيام إمارة الأمير عبد الرحمن الثالث الناصر وما رافقها من ميل البلاد كلها إلى البحث عن طرق السلام والاستقرار لم يتردد لب بن طربيشة في قبول دعوة الأمير لموالاته والخضوع لسلطانه فأعاد المدينة إلى علاقة خضوع بالإمارة الأموية كما تخلى عن منصبه وانضم إلى الجيش الأموي. إنما انتقال لب بن طربيشة إلى صفوف الموالين لسيد قرطبة لم يرافقه رجوع للطليطليين إلى رشاد الطاعة وإلى علاقة ولاء دائم مع العاصمة. في سنة

(١) بنو قسي: عائلة عريقة من أصل إسباني قوطي. كان الجد الأكبر الكونت Kasi حاكماً لمناطق الثغر الأعلى في مدينة تطيلة وسائر أحوازها حين اجتاحت جيوش المسلمين شبه جزيرة إيبريا. هادن هذا الرجل المسلمين منذ البداية وتعاون معهم فرحل إلى دمشق واعتنق الإسلام على يد الخليفة الوليد بن عبد الملك وصار بذلك من مواليه. لعب بعد ذلك أبناؤه وأحفاده دوراً أساسياً في حياة مدينة سرغوسة الهامة والقريبة من حدود إسبانيا المسيحية وسائر المناطق القريبة منها والمعروفة باسم «الثغر الأعلى». وفي زمن موسى بن موسى الذي عاصر الأمير عبد الرحمن الثاني وابنه محمد صارت ريادة المولدين في كل هذه المناطق إلى هذا الرجل مما جعله يلعب دوراً هاماً لحساب قرطبة في أكثر الحالات. وبالمقابل كانت له، كما لكل أسلافه من عائلته علاقات وثيقة مع جيرانه الملوك الإسبان وخاصة ملوك البشكنس في بنبلونة وصلت إلى حد تزويج إحدى بناته لواحد من هؤلاء هو الملك غرسية.

٩٣٠ وكان عبد الرحمن الناصر قد قضى على كل أعمال التمرد والعصيان التي سادت الأندلس أيام الأمراء محمد والمنذر وعبدالله ، وفرض سيادة الدولة في كل أرجاء الإمارة ، تطلع نحو طليطلة ، آخر حصون التمرد والثورة على سلطته ، فقرر إخضاعها نهائياً ليجعل من نفسه وبحق سيد البلاد غير المنازع . وقبل أن يلجأ إلى القوة والعنف وتفادياً لمزيد من إهراق الدماء سعى إلى مخرج سلمي فندب بعثة من علماء وفقهاء ومحدثي قرطبة إلى الطليطليين لدعوتهم إلى تقديم الولاء والخضوع لأمير البلاد[١] . إلا أن هؤلاء واعتماداً منهم على حصانة موقع مدينتهم وقوة أبراجها وحصونها ، وربما أيضاً لاحتمال حصولهم على مساعدة جارهم ملك مملكة ليون الإسبانية رفضوا الخضوع لسلطان الدولة[٢] . ولما لم يترك هؤلاء للأمير خيار السلام فقد أرسل في أيار من سنة ٩٣٠ م حملة عسكرية لإخضاع المدينة التي طال تمردها . وفي التاسع والعشرين من الشهر المذكور خرج هو بنفسه لقيادة الحملة على رأس جيش كبير وحقق أول انتصار على المتمردين باستيلائه على حصن مورة[٣] التابع لهم . وبعد أيام قليلة استولى على محلة حرنكش[٤] ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز مما سمح له بالإشراف على «سهلة طليطلة ونهرها وأجنتها وكرومها»[٥] واختيار «أمكن المواضع من محاصرتها وأقرب الجهات الآخذة بمخنق أهلها[٦]» . نزل بمحلة المقبرة على باب المدينة وصار يدير شؤون الحصار من هناك ، فكان ، يشتد كل يوم حدة وعدوانية . ولما كان الطليطليون قد ألفوا حياة المقاومة واعتادوا

(١) البيان المغرب ، جزء ٢ ، صفحة ٣٠٣ . طبعة بيروت .

(٢) البيان المغرب ، جزء ٢ ، صفحة ٣٠٣ . طبعة بيروت .

(٣) Mora.

(٤) Chalencas.

(٥) ، (٦) البيان المغرب ، جزء ٢ ، صفحة ٣٠٥ (طبعة بيروت) .

الصمود للحصار والحرب فقد قاوموا بشراسة وعناد مما جعل الأمير بعد واحد وسبعين يوماً يأخذ طريق العودة إلى قرطبة تاركاً قادة جيشه يوالون حصار المدينة. وأخيراً وفي سنة ٩٣٢ (٣٢٠ هـ) جنح الطيطليون إلى المهادنة، بعد أن استنفذوا قدراتهم العسكرية واستهلكوا ما أعدوه من الأطعمة والأغذية، وسئموا العيش داخل أسوارهم في عزلة تامة عن العالم الخارجي، وأيضاً بعد أن فقدوا الأمل في الحصول على مدد من جيرانهم الإسبان النصارى، فأرسلوا وفداً إلى الأمير الأموي يعرضون عليه رغبتهم في الخضوع وتقديم الولاء. قبل منهم الناصر وأعطى أهل طليطلة الأمان وفك الحصار عنهم ثم حضر إليهم بنفسه ودخل المدينة ظافراً في الثاني من شهر آب من العام وجال في أنحائها وتعرف إلى مواقع القوة فيها. أقام الناصر في طليطلة الوقت اللازم بحيث أعاد تنظيم إدارتها وزودها بحامية عسكرية قادرة على إبقاء أهلها خاضعين للسلطة وموالين لأمير البلاد. وقبل أن يغادرها إلى قرطبة عمل على وضع حاميات عسكرية في مواقعها الهامة كما في كل المنطقة المحيطة بها[1].

هذا الانتصار قضى على آخر مواقع العصيان والتمرد، وربما الأخطر، في إسبانيا الإسلامية. ومنذ ذلك الوقت فقد صار عبد الرحمن الناصر فعلاً سيد البلاد المطلق والأوحد وكما طالما أحب وأراد. وبالنسبة لطليطلة أيضاً كانت هذه الهزيمة نقطة تحول أساسية في مسار تاريخها في ظل دولة الإسلام في إسبانيا إذ اندمجت فيها بصورة نهائية وبدأت وللمرة الأولى منذ الفتح الإسلامي تلعب دوراً إيجابياً في الحياة السياسية في الأندلس إذ تحولت إلى محطة أساسية لتجميع الجيوش وإعداد المؤن للحملات العسكرية المرسلة إلى بلاد إسبانيا النصرانية والتي كثرت عدداً وأهمية بعد

(١) البيان المغرب، جزء ٢، صفحة ٣١١ طبعه بيروت.

ذلك على أيام المنصور بن أبي عامر وولديه. ويمكن الجزم بأن طليطلة بقيت على ولائها للناصر طيلة حياته وتبدل عداؤها للدولة بولاء صادق، في الظاهر على الأقل، لها ولسيدها. مع قيام خلافة بني أمية ثم مع مجيء الدولة العامرية[1] وبصورة خاصة على أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر صارت دولة الإسلام في إسبانيا إلى أقصى امتدادها وأخضعت لهيمنتها كل القوى العسكرية الإسبانية المعادية لها في الشمال وبلغت جيوش المسلمين أقصى مناطق شبه الجزيرة الإيبرية ظافرة منتصرة. وفي داخل البلاد عرف الطليطليون أن مزاج المنصور بن أبي عامر الاستبدادي لا يتسامح مع أية نزعة تمرد أو عصيان، فامتنعوا عن كل نشاط ثوري مريب وثابروا على خضوعهم واستكانتهم إلى أواخر أيام خلافة قرطبة.

ومع وصول عبد الرحمن «شنجول» ابن المنصور بن أبي عامر إلى منصب الحجابة على أيام الخليفة هشام الثاني المؤيد بالله تغير كل شيء في إسبانيا وبصورة مفاجأة وسريعة وصارت إلى أفول فترة التوسع السياسي والأمجاد العسكرية التي باشرها الخليفة الناصر والتي أوصلها المنصور إلى قمة العظمة لتبدأ مرحلة أخرى من الفوضى والاضطراب تنتهي بسقوط الخلافة الأموية العظيمة وقيام ممالك الطوائف. وفي فترة الاضطراب هذه التزمت طليطلة موقع الحياد أو بعبارة أصح أظهرت عدم اهتمام بما يجري مفضلة الانتظار

(١) بوفاة الخليفة الحكم المستنصر وصيرورة الخلافة إلى ولده هشام الثاني المؤيد بالله، الصغير سناً والمحدود عقلاً وكفاءة ومقدرة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس يطلق عليها عادةً اسم عصر الدولة العامرية. في هذه الفترة التي امتدت عملياً من سنة ٩٧٦ م إلى سنة ١٠٠٩ م صارت السلطة الفعلية إلى «الحاجب» المنصور بن أبي عامر ومن بعده إلى ولده المظفر ومنه إلى أخيه عبد الرحمن شنجول. وأهم ما ميز هذا العصر كون السلطة صارت بيد الحاجب يمارسها بمعزل عن الخليفة سيد البلاد الشرعي. وباتت الخلافة في هذا العصر رمزاً للدولة وصورة للحكم والسلطان لا فعالية لها ولا كلمة مسموعة للجالس على سدتها. وهذا يجعلها شبيهة ببعض الملكيات الأوروبية في العصر الحاضر.

والترقب. وحين لاحت للطليطليين الفرصة المناسبة بادروا إلى التحـرك معلنين انفصالهم عن سلطان قرطبة ليقيموا في بلدهم مملكة مستقلة ملك عليها واحد من بني ذي النون عاشت حتى استرداد النصارى لها من أيدي المسلمين في سنة ١٠٨٥م.

الفَصْلُ الثَّالِث

طليطلة أيام «الفتنة الكبرى»

التفوق السياسي والتوسع الإقليمي اللذان شهدتهما إسبانيا الإسلامية، أيام المنصور بن أبي عامر كانا إلى حد كبير من صنعه وبفضل مواهبه وقدراته. فعلى زمنه وبسبب طموحه الكبير اختفى عن مسرح الأحداث كل السياسيين الأكفياء وجسد في شخصه كل الدولة بكل مؤسساتها. إنما وكما هو منطقي ومعقول هكذا تفوق سياسي يرتبط أساساً بشخص محدد لا بد أن يزول بزوال الشخص، ما لم تكن له جذور عميقة في ضمير الأمة. ومن المعروف إنه في تاريخ إسبانيا الإسلامية كانوا قلة أولئك الحكام الذين تمكنوا من جمع الأمة، كل الأمة، حولهم. فالأمة الأندلسية، لتنوع عناصرها، ما كان يجمع أبناءها غير رباط الإيمان بدين واحد. ويبدو أن السلطة احتاجت دوماً في الأندلس لشخصية استثنائية كالناصر أو المنصور لتجمع المسلمين في وحدة سياسية وطنية من فوق الحواجز العنصرية والقبلية والحزبية. بعد وفاة المنصور تمكن ابنه المظفر من المحافظة على وحدة الأمة التي حققها أبوه ومن متابعة سياسته العسكرية الناشطة في الشمال الإسباني

وتحقيق عدة انتصارات ضد النصارى الإسبان. وفي تشرين أول من سنة ١٠٠٨ توفي المظفر في ريعان شبابه. إلا أن خليفته في منصب الحجابة شقيقه عبد الرحمن «شنجول» كان يفتقر لبراعة وكفاءة وذكاء سلفيه. كان مكثراً للشراب، شديد الولع باللهو والمجون، قليل الاهتمام برأي العامة وأحكامها مما جعله مكروهاً من رجال الدين ومن فئة المحافظين عموماً. سياسته غير الحكيمة بمختلف مظاهرها أبرزت الفراغ السياسي الذي أوجده، أساساً غياب والده المنصور. ذلك إن ممارسات هذا الأخير الاستبدادية خلال فترة حكمه الطويلة وإصراره على استبعاد نبلاء العرب ومقدميهم ورؤساء قبائلهم عن مواقع السلطة والقرار في الإدارة كما في الجيش أضعفت وأفقرت الارستوقراطية العربية ذات الخبرة في الحكم والريادة والتي طالما أعطت الأندلس أفضل حكامها وقادتها. وعلى هذا عندما آلت أمور الدولة إلى عبد الرحمن «شنجول» وبغياب تلك الطبقة الاجتماعية الرفيعة المستوى وذات المعارف السياسية الواسعة، ارتكب في وقت قصير سلسلة من الحماقات قادت البلاد إلى أزمة سياسية بالغة الحدة. وبغياب زعيم كفؤ وقادر على إنقاذ الأندلس استطالت تلك الأزمة وعمرت ما يزيد عن العشرين عاماً أطاحت في نهايتها بالخلافة الأموية في قرطبة وإلى الأبد. والأسوأ من ذلك أن هذه الفترة الشديدة الاضطراب أطاحت بالوحدة الوطنية للأمة الأندلسية التي أقامها المنصور حول نظامه القوي واجتاحت العاصمة قرطبة سلسلة من الفتن والثورات والثورات المضادة. رافق كل ذلك دوماً حرائق ومذابح ومجاعات وأزمات اقتصادية. وخارج العاصمة سيطر الإرهاب والاضطراب والرعب مما أدى بحواضر كبرى إلى ركوب موجة الانفصال وإقامة الدويلات المستقلة التي ستعرف فيما بعد باسم «ممالك الطوائف». وحين غابت خلافة بني أمية نهائياً عن الأندلس في سنة ١٠٣١ م مع خروج «المعتد بالله» من قرطبة صارت بلاد شرق الأندلس إلى الموالي العامريين الذين

أقاموا لأنفسهم ممالك في المرية ومرسية ودانية والجزائر الشرقية. وأخذ البربر الكثير من أرض الأندلس فصارت غرناطة إلى بني زيري أقاموا مملكة فيها وفي أنحائها، وساد بنو الأفطس في بطليوس، وبنو ذي النون في طليطلة وبنو رزين في السهلة. وما تخلف العرب عن ركب الشرذمة والفرقة فانقض العباديون على أشبيلية وأحوازها يقيمون فيها ملكاً على أنقاض خلافة بني أمية، واستولى بنو هود الجذاميون على سرغوسة ومناطق الثغر الأعلى، وقرطبة صارت إلى بني جهور، وكذلك أقام بنو قاسم الفهريون دويلة لهم في البونت. والحموديون الحسنيون أقاموا لأنفسهم مملكة في مالقة وأخرى في الجزيرة الخضراء ومعهما تمسكوا بعناد وإصرار بلقب الخلافة مما أدخلهم في صراع مع جيرانهم العباديين أطاح بهم.

ويبدو لي هنا من الضروري التعرف إلى ما حدث في طليطلة بالذات في هذه الفترة وإلى الموقف الذي اتخذه الطليطليون بمواجهة تلك الأحداث الكبيرة. لقد رأينا فيما سبق أن هذه المدينة منذ أخضعها الخليفة الناصر وحتى مابعد وفاة المظفر العامري حافظت على خضوعها للسلطة وولائها لسيد البلاد وأن صلة من التعاون الدائم ربطتها بالعاصمة قرطبة. وعندما دخلت البلاد، بصورة مفاجئة في عصر «الفتنة الكبرى» المضطرب، حافظ الطليطليون على هدوئهم، وما أظهروا أي جنوح نحو استغلال الفرصة المتاحة لرفع لواء الفرقة والعصيان كما اعتادوا أن يفعلوا خلال القرنين الأولين من وجود دولة الإسلام في إسبانيا. ويمكن اعتبار هذا الموقف بمثابة مرحلة انتظار وترقب. وحتى بعد مقتل «شنجول» وقيام ثورة المهدي فإن هذا الموقف ما تغير واستمرت استكانة طليطلة لسلطات العاصمة دون النظر إلى شخص الجالس على عرشها.

إلا أن ثورة المهدي هذه كانت في الواقع، الخطوة الأولى في مسار طليطلة في طريق الاستقلال عندما ثبتت «الفتى واضح» في حكم منطقة الثغر

الأوسط بكاملها ووضعت حداً لارتباط طليطلة، من الناحية الإدارية، بقرطبة[1]. وبذلك ارتبطت طليطلة في أمورها الإدارية بمدينة سالم مقر الحاكم «واضح» وانقطعت صلاتها، وبمبادرة من غير أهلها، بالعاصمة.

وما كان الخليفة المهدي رجل تلك الظروف الصعبة والقادر على متابعة نهج المنصور. فبعد فترة قصيرة من قيام خلافته فشل في إعادة تكوين وحدة الأندلسيين وفرض الأمان والنظام في قرطبة مما أتاح الفرص لأموي آخر طامع بالعرش هو سليمان للانقضاض على الحكم، بدعم وتأييد من تجمعات البربر، والاستيلاء على الخلافة. عندها فر المهدي إلى طليطلة لاجئاً إليها معولاً على ولاء أهلها للسلطة الشرعية ولشخصه. حاول خصمه، سيد قرطبة الجديد، سليمان إقناع الطليطليين بطرده من مدينتهم. أوفد لهذه الغاية بعثة من الفقهاء والوجهاء عادت بعد مدة لتخبره بأنه ليست طليطلة وحدها وإنما سائر مناطق الثغر الأوسط ما تزال متمسكة بولائها للمهدي مصرة على دعمه وتأييده[2]. بعثة أخرى كانت أرفع مكانة، إذ ضمت عدداً من الوزراء قصدت طليطلة وعادت منها لتؤكد للأمير استمرار الطليطليين في ولائهم للمهدي، خصمه[3]. وأخيراً وكعلاج أخير للموقف عزم سليمان على اللجوء إلى العنف فخرج بنفسه من عاصمته على رأس جيش كبير باتجاه طليطلة العاصية عليه. حل في أحوازها وضواحيها مدة الزمن استعمل خلالها ضد أهل المدينة جميع وسائل التهديد والتخويف إنما دون نتيجة فعاد أدراجه دون أن يتجرأ على مهاجمتها لشدة حصانتها ولتصميم أهلها على مقاومته. ولا بد هنا من الإجابة على تساؤلين قبل متابعة الحديث:

أ ـ لماذا أظهر الطليطليون هذا الولاء الشديد للمهدي و «خلافته»؟

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٧٦. طبعة باريس ١٩٣٠.

(٢) البيان المغرب، جزء ٣، صفحو ٩٣.

(٣) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٩٣.

ب ـ لماذا تهيب سليمان مهاجمة المدينة التي ظهر في بداية حملته مصمماً على إخضاعها؟

الجواب على السوآل الأول لا بد أنه يكمن في تاريخ طليطلة. من المعروف أن عاصمة القوط القديمة بقيت مدة قرنين ترفع لواء العصيان على حكام قرطبة والآن، وهم يرون الهيمنة العربية تسير نحو الزوال، فقد ارتأى أهل طليطلة المسير نحو الاستقلال بروية ودون ضجيج. بهذا الهدف استقبلوا المهدي، ومنحوه الملجأ والحماية، وذلك ليضمنوا استمرار حكم الفتى «واضح» في مدينة سالم مما كانوا يعتبرونه خطوتهم الأولى في طريق الانفصال عن قرطبة. يضاف إلى ذلك أن تزايد النفوذ البربري في قرطبة أيام سليمان كان يدفعهم نحو مزيد من حماية المهدي والدفاع عن خلافته. وفي تاريخ طليطلة أيضاً تكمن الإجابة عن السوآل الثاني. من المؤكد أن سليمان كان يعرف تماماً تاريخ المدينة وشجاعة أهلها وجرأتهم وأيضاً قدراتهم غير المحدودة على الصمود والمقاومة. ولهذا السبب بالذات سعى بإصرار في بداية أمره إلى الحصول على خضوعهم لحكومته وولائهم له سلماً ثم سعى بعد ذلك إلى التهديد والترهيب ولكنه في النهاية أحجم عن إقحام نفسه ونظامه في معركة غير مضمونة النهاية بل ربما كانت على الأرجح، طويلة جداً، وشاقة جداً، وخطرة جداً.

وحين عزم المهدي على مباشرة استعداداته لاستعادة عاصمته قرطبة اتخذ من طليطلة مقراً عاماً لقيادته ومركزاً لتجمع جيوشه وإليها وفد حلفاؤه الأندلسيون وأيضاً الكاتالانيون النصارى. وقد تمكن من دخول قرطبة منتصراً في أيار من سنة ١٠١٠ وأعاد تنصيب نفسه مجدداً خليفة للأندلس في المسجد الجامع. إلا أن الأوضاع السياسية في قرطبة كانت تتطور بسرعة مدهشة. ففي سنة ١٠١١، قتل الفتى «واضح» سيد الثغر الأوسط وكان هو قبل ذلك قد تآمر على سيده وحليفه المهدي وقتله. ومنذ ذلك الوقت نحت

الأحداث في تطورها السريع منحىً مأساوياً واتجهت لعزل العاصمة بشكل كامل ونهائي عن مناطق الثغور. وحين ارتقى سليمان سدة الخلافة للمرة الثانية كانت وحدة الأندلس قد تمزقت نهائياً ومناطق الثغور قد استولى على الحكم فيها سادة محليون.

الإدارة في طليطلة أيام «الفتنة الكبرى»:

ظلت طليطلة وحتى وفاة الخليفة المهدي تعترف بسلطانه وتمنحه ولاءها الكامل، ولو من الناحية الشكلية. ونقول من الناحية الشكلية على اعتبار أنه على أيام هذا ما كانت قرطبة تمتلك القدرات الكافية لفرض سلطانها فعلياً على المقاطعات والحواضر الكبرى، ولا كانت في وضع يسمح لها بالاهتمام بأمورها الإدارية. يضاف إلى ذلك أن الفتى واضح الذي أبقاه المهدي حاكماً على منطقة الثغر الأوسط شغلته أمور السياسة الأندلسية الكبرى ومتابعة أحداث قرطبة عن الاهتمام بإدارة أمور المدن والمناطق الخاضعة لسلطانه وطليطلة منها. وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن طليطلة، ودون أن تكون مضطرة لاعلان قطيعة رسمية مع قرطبة وأيضاً دون أن تعلن عصيانها على سلطان الخليفة، قد أقامت لنفسها شكلاً من أشكال الحكومة المحلية لإدارة شؤونها الداخلية. ذلك إن صيانة النظام والأمن في مدينة عرفت بمزاجها الثوري والسريع الحركة، وفي فترة شديدة الاضطراب يفترض بالضرورة وجود سلطة محلية مسؤولة وعلى درجة كبيرة من الكفاءة والمقدرة. ثم إن القرارات التي اتخذت لمواجهة الأزمة في العلاقة بين قرطبة وطليطلة والتي استجدت مع رجوع سليمان إلى الخلافة ومقاومة الطليطليين الحازمة لسلطان هذا الأخير تؤكد وجود سلطة محلية قوية تستند إلى ولاء وتأييد سائر سكان المدينة. ومع أننا نفتقر في النهاية إلى الدليل القاطع على وجود هذه الحكومة المحلية، فإننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال تصور العكس.

إنما يبقى أن هذا الافتراض يطرح أمامنا عدة تساؤلات: ما هو شكل هذه السلطة؟ وبمن كانت ترتبط؟، ومن هم الأشخاص الذين تولوها؟ فيما يتعلق بشكل هذه الإدارة المحلية فإني أعتقد أنها، وحتى وفاة «الفتى واضح»، حين خرجت مناطق الثغر الأوسط نهائياً ورسمياً على سلطان العاصمة، كانت تتمثل بإدارة بلدية ذات سلطات واسعة في المجال المحلي والداخلي على اعتبار أن الأمور الكبيرة والشؤون العسكرية ظلت من اختصاص الخليفة وصديقه وحليفه حاكم مدينة سالم وسائر منطقة الثغر الأوسط. وربما كانت هذه الإدارة البلدية صورة متطورة لذلك الجهاز الذي كان يدبر أمور المدينة أيام المنصور وابنه المظفر. والأرجح أن الأزمات السياسية المتوالية في قرطبة والصراعات المستمرة بين الطامعين بعرش الخلافة فيها هي التي جعلت الطليطليين يطورون إدارتهم هذه لتصبح أقدر على تصريف المستجدات اليومية. ومن المعروف انه قبل عصر «الفتنة» كان يرأس هذه الإدارة موظف يدعى «الوالي» تسميه السلطات المركزية في العاصمة ثم اعتاد الطليطليون أنفسهم أن يختاروه أو يسمونه إلى أن صارت أمور المدينة إلى بني ذي النون.

وابتداء من السنة ١٠١١ خطت هذه الحكومة المحلية خطوات كبيرة وسريعة في طريق الاستقلال الكامل وقطع كل صلة ولاء وخضوع تجاه العاصمة. ويبدو أن المدينة، وخلال الفترة الممتدة بين هذه السنة وقيام حكومة بني ذي النون، قد مارست استقلالاً كاملاً في شؤونها مما سمح لها في الوقت المناسب بتقرير مصيرها بحرية واستدعاء سيد شنتبرية ليقيم فيها مملكته التي ستعمر حتى سنة ١٠٨٥ م.

حكام طليطلة:

لقد كانت قرطبة طيلة عصر الفتنة قاعدة الحياة السياسية في الأندلس

ومصنع الأحداث وهذا جعلها تستقطب بصورة كاملة اهتمام المؤرخين والرواة فأهملوا كل أخبار الحواضر والمناطق الأخرى في ذلك الوقت. فلم يصلنا من أخبار طليطلة في تلك الحقبة إلا معلومات ضئيلة نقلها لنا بالمصادفة بعض الرواة. والأسوأ من ذلك أن هذه المعلومات على قلتها مشوشة وغامضة وأحياناً مضطربة ومتناقضة. ذلك إن أحداً من المؤرخين الذين نقلوها إلينا لم يجهد نفسه في التدقيق فيها والتحقق من صحتها. وفيما يتعلق بحكام طليطلة في هذه الفترة نجد أنفسنا في كل مصدر أمام عدة أسماء ذكرت بخفة ودون تحديد مواعيد التعيين أو الأحداث الهامة المرتبطة ببداية أو نهاية ولاية كل اسم. وفي بعض الأحيان نجد أنفسنا أمام معلومات متضاربة نقلها إلينا رواة ومؤرخون هم موضع ثقة الجميع مما يضعف من قدراتنا على الحكم الصحيح والدقيق. نذكر على سبيل المثال أن ابن عذاري يخبرنا بأنه عند بداية «الفتنة» كان على رأس الإدارة في طليطلة رجل يدعى عبد الرحمن بن متيوه[1] وأنه توفي بعد ذلك بوقت يسير في نفس المدينة فخلفه ابنه الذي ما لبث أهل المدينة أن غضبوا عليه وعزلوه فتوالى ثلاثة حكام آخرين على إدارة المدينة قبل أن يدخلها ابن ذي النون. بالمقابل يذكر ابن حيان[2] بأن عبد الرحمن المذكور كان نصيراً لسليمان ولحلفائه البربر وقاتل معهم عدة سنوات ضد الخليفة المهدي الذي كان يواليه الطليطليون. ثم يأتي بعد ذلك ابن الخطيب[3] ليروي لنا أن ابن متيوه وولده حكما طليطلة بعد حوالي عشرين عاماً من التاريخ الذي ذكره ابن عذاري وأن ابن ذي النون قد بدأ حكمه بعدهما مباشرة. هذه التناقضات تضع أمام الباحث اليوم سلسلة من المصاعب تجعله عاجزاً عن تحديد عدد من توالوا على حكم

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٦٧٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، جزء ١، قسم ١، صفحة ٣٢١.

(٣) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٧٦.

طليطلة بدقة وصدق في المرحلة السابقة لقيام مملكة بني ذي النون . وهذا ما جعل كلاً من بريتو فيفس[1] Prieto y Vives وسيبولد Seybold[2] وليڤي بروفنسال Levi-Provençal [3] يصل إلى نتيجة مختلفة عما وصل إليه الباحثان الآخران . ونحن الآن نجد أنفسنا أمام الصعوبات نفسها ومع هذا فإننا سنسعى لأن نضع قائمة بأسماء هؤلاء الحكام، بأقصى ما يمكن من الدقة وأقرب ما يمكن من الصحة، دون أن ندعي عدم وقوعنا في خطأ أو أكثر. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار كل الأخبار التي وصلتنا عبر المصادر العربية نجد أنفسنا أمام عدد كبير من الأسماء بينها من يجمع عليها أكثر المؤرخين الموثوقين على ما يبدو.

ـ عبد الرحمن بن متيوه حكم مدينة طليطلة أيام مُلك آخر العامريين[4] عبد الرحمن «شنجول» . وقد توفي بعد وقت قصير من قيام «الفتنة» في قرطبة . إلا أننا في الواقع لم نقع على أية معلومات أخرى عن حياته وموعد تعيينه والسلطة التي أمرت بذلك . وقد خلفه ابنه في حكم المدينة، غير أنه ما كان يملك مقدرة أبيه ومواهبه في الحكم والإدارة فعزله الطليطليون بعد فترة وجيزة مما جعله يلتحق بأعدائهم البربر والخليفة سليمان المستعين ويرافق هؤلاء حتى في محاولتهم الاستيلاء على طليطلة[5] .

ـ محمد بن يعيش : وتجمع المصادر التاريخية كلها تقريباً على أنه أول حاكم لطليطلة اختاره أهلها بأنفسهم لحكم المدينة بعد قيام عصر الفتنة في

---

(١) Los Reyes de Taifas, P. 52.

(٢) Encyclopedie de l'Islam TI. 990.

(٣) Encyclopedie de l'Islam T IV P. 853.

(٤) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٧٦ .

(٥) الذخيرة، جزء ١، قسم ١، صفحة ٣٢.

قرطبة[1]. وقد كان آنذاك رجلاً متقدماً في السن إذ ذكره لنا ابن الخطيب[2] على أنه كان من وجهاء ومقدمي الأندلس حين ارتقى هشام الثاني المؤيد بالله سدة الخلافة في قرطبة[3]. كان ينتمي لعائلة عربية عريقة أعطت الأندلس علماء وفقهاء وقضاة كثيرين. وهو نفسه كان عالماً كبيراً ومقدماً بين قومه، لعب دوراً بارزاً في تاريخ الأندلس منذ أيام المنصور ابن أبي عامر. وصل إلى الحكم أو استولى عليه بمساعدة صديق له يدعى أحمد بن سعيد بن كوثر[4] في ظروف غير معروفة منا بشكل واضح. إلا أنه بعد فترة قصيرة ولخلاف قام بين الرجلين أو لنزعته نحو التفرد في السلطة أقدم ابن يعيش على التخلص من صديقه وحليفه ابن كوثر. حكم المدينة بعد ذلك حكماً فردياً واستبدادياً، إنما لفترة ليست طويلة على الأرجح أخرجه بعد ذلك أهلها عنها.

ـ أحمد بن سعيد بن كوثر وكان أحد أبرز نجوم الحياة السياسية في طليطلة في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة. كانت له شهرة كبيرة لوافر معلوماته في العلوم الدينية عموماً ولكرمه وذكائه وأيضاً لثروته الطائلة. اتخذ من داره مدرسة يتلقى فيها الناس علوم الفقه والحديث بينهم حوالي أربعين من كبار الفقهاء. حكم طليطلة مشاركة مع صديقه محمد بن يعيش لفترة ليست طويلة، أرسل له هذا بعدها أحد أتباعه فقتله، وهو يتلو القرآن الكريم، ليتفرد بالحكم والسلطة. وفي رواية أخرى[5] أوقف وألقي به في السجن

(١) نهاية الأرب النويري، صفحة ٨٧، ابن خلدون، جزء ٤، صفحة ١٦١، المختصر في تاريخ البشر، أبو الفدا، صفحة ١٤٨، جزء ٢، الذخيرة، قسم ٢، مجلد ١، صفحة ١٦، (طبعة إحسان عباس)

(٢) أعمال الأعلام، صفحة ٥٤.

(٣) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣٧.

(٤) الصلة، ابن البشكوال، رقم ٧١.

(٥) الصلة، رقم ٢١٣، صفحة ٤٧٧.

حيث مات مسموماً في سنة ١٠١٢م.

- يعيش بن محمد بن يعيش: كان كأبيه من الوجوه اللامعة في إسبانيا الإسلامية. عاصر هو أيضاً المنصور مما يجعلنا نفترض بأنه كان متقدماً في السن بعض الشيء حين صارت إليه حكومة طليطلة. كان عالماً وفقيها درس على أبيه كما شارك في مجالس بعض أكابر علماء قرطبة[1] وسافر إلى المشرق لمزيد من العلم، فزار مصر وتعرف إلى بعض أكابر علمائها، كما قصد الديار المقدسة في مكة والمدينة واجتمع إلى أئمة الدين فيهما. وبعودته إلى بلاده شغل منصب قاضي طليطلة فحصل على مكانة بارزة لفضله وحكمته وتجرده ولما أداه للناس من خدمات جليلة. وفي وقت غير محدد، إنما على الأرجح بعد وفاة أبيه صارت إليه رئاسة طليطلة دون أن يتخلى عن منصبه القضائي فيها. والمؤكد أن مثل هذا الأمر لا بد أن يكون قد حدث في سنة ١٠٢٣ م أو قبل ذلك إذ يشير ابن بسام إلى أن ابن عباد حين استولى على الحكم في أشبيلية في السنة المذكورة سار على نهج ابن يعيش في الاستقلال عن قرطبة. والواقع إننا نجهل كل ما حصل خلال حكمه في المدينة كما لا نعرف شيئاً عن الطريقة التي انتهى بها عهده. والأرجح أنه تعرض للعزل من قبل الطليطليين الذين أخرجوه من المدينة حوالي السنة ١٠٢٧ م فرحل إلى قلعة أيوب حيث بقي لاجئاً حتى وافته المنية في السنة ذاتها أو السنة التي تلتها[2].

ويبدو أنه كان آخر من حكموا المدينة قبل قيام ملكية بني ذي النون فيها. إلا إنه على كل حال سادت طليطلة بعد عزله وإخراجه منها مرحلة، طالت أم قصرت، شاع فيها فراغ سياسي وأمني رهيب. ويقدم بعض

(١) الصلة، رقم ١٤٠٥، صفحة ٦٢٨.

(٢) الصلة، رقم ١٤٠٥، صفحة ٦٢٨.

الباحثين المعاصرين لنا أسماء شخصيات أخرى يفترضون أنها تولت حكم طليطلة أيام «الفتنة». بريتو فيفس يقدم لنا اسم ابن مسرة[1] على أنه واحد ممن تولوا حكم المدينة في الحقبة المذكورة وبالذات بدأ من قيام الفتنة. إلا أن المصادر الأندلسية الموثوقة لا تمدنا بأية إشارة تسمح بقبول هذه الفرضية. والأرجح إن الشخص المذكور قد شغل، في نفس المرحلة، منصباً أقل أهمية في حكومة طليطلة إنما ليس المنصب الأهم.

وفي مقال له، في دائرة المعارف الإسلامية، يذكر ليفي بروفنسال أن سعيد بن شنظير قد شغل منصب حاكمية طليطلة[2] في فترة غير محددة البداية والنهاية. إلا أن المعروف والثابت أن الشخص المذكور كان أحد وجهاء المدينة في ذلك العصر ومن أبرز الوجوه العلمية والدينية فيها[3]. وقد بقي دائماً بعيداً عن السياسة عازفاً عن المناصب الإدارية. ومما يؤكد زعمي هذا كون الشخص المذكور قد توفي في سنة ١٠١١ م وفي الوقت الذي كان محمد بن يعيش، أول حكام طليطلة المستقلين، ما يزال على قيد الحياة وأيضاً ما يزال في منصب حاكم المدينة.

---

(١) Los Reyes de Taifas, P. 52

(٢) Encyclopedie de l'Islam, T. IV, P. 853.

(٣) الصلة، رقم ٢٠٢، صفحة ٩٦.

الفصل الرابع

بنو ذي النون

يلف الغموض وإلى حد كبير تاريخ أسرة بني ذي النون في إسبانيا للمرحلة السابقة للنصف الثاني من القرن التاسع للميلاد. فالمصادر العربية لا تمدنا بالكثير من أخبار هذه في إفريقيا، ولا تعرفنا بموعد نزولها في شبه الجزيرة الإيبرية أو بالدور الذي قامت به في حروب الفتح كما في الحروب والثورات التي قامت منذ انتهاء أعمال الغزو وحتى قيام دولة بني أمية في الأندلس.

من الأخبار القليلة التي وصلتنا عن أصل هذه العائلة نفترض انتماءها إلى أحد بطون قبيلة هوارة البربرية. ومن المعروف أن أبناء هذه القبيلة الكبيرة كانوا ينتشرون عشية الفتح العربي لشمال إفريقيا في الأراضي الواقعة بين طرابلس وبرقة[1] (في البلاد الليبية اليوم). ومع بداية الفتح العربي اعتنق كثيرون من أبناء هوارة الإسلام وانضموا إلى الفاتحين يقاتلون تحت

(١) كتاب العبر، ابن خلدون، جزء ٦، صفحة ١٣٩.

لواء عقيدتهم الجديدة. ومع أن موجة الفتح الأولى قد أعقبها ارتداد كثيرين ممن أسلموا من البربر إلى عقائدهم الأصلية فمن المؤكد أن أبناء هوارة ما تحولوا عن إسلامهم.

وإذا كنا نعرف أن بني ذي النون كانوا ينتمون إلى قبيلة هوارة الكبيرة فإن المصادر الأندلسية لا تعطينا من الروايات ما يكفي للتعرف إلى أي من بطون وأفخاذ هذه القبيلة ينتمون. ولنفس السبب أيضاً نجهل تماماً الدور الذي كانت تقوم به هذه العائلة في حياة البربر الاجتماعية والسياسية قبل وصول الإسلام إليهم.

وفي ربيع سنة ٧١١ م ومع جيش طارق بن زياد نزل في شبه الجزيرة الإيبرية بعض أبناء عائلة ذي النون[١] مع من نزل من البربر. وفي أعمال الفتح برز من أبناء هذه العائلة «السمح». إلا أن المصادر الأساسية لتاريخ هذه الفترة وبصورة خاصة «أخبار مجموعة» وكتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لصاحبه ابن القوطية لا تعطينا أية أخبار أو تفاصيل عن منجزات أو عما يمكن أن يكون قد قام به هذا الرجل بشخصه أو عن طريق أتباعه وأقاربه. وقد ورد أيضاً ذكر الهيثم والطوريل على انهما من نسله وممن خلفوه على الرئاسة إنما دون معلومات ذات قيمة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العائلة كانت تسمى حين كانت في شمال إفريقيا باسم «زنون» وإنها بعد نزول بعض أبنائها في شبه الجزيرة الإيبرية ومع بداية التحول نحو الإسلام وأيضاً مع نمو حركة الاستعراب صارت تسمى ب «ذي النون» تشبهاً بالاسم الوارد في القرآن الكريم[٢].

ولما كان جنود الفتوح الأولى من المسلمين قد بقوا في شبه الجزيرة

(١) كتاب العبر، جزء ٦، صفحة ١٤٠.

(٢) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٧٦

واستقروا فيها بعد أن توزعوا بعض أراضيها فيما بينهم فإن البربر عموماً حلوا في المرتفعات الجبلية كما في سائر مناطق الشمال. وقد كثر البربر بصورة خاصة في تلك المرتفعات الواقعة شرقي طليطلة من حيث تخرج مياه نهر التاج الغزيرة. وفي هذه المناطق بالذات وفي بلدة شنتبرية الصغيرة استقرت عدة عائلات بربرية معروفة منها بنو ذي النون.

بنو ذي النون في شنتبرية:

اختار سيد وزعيم العائلة الذنونية النزول في بلدة شنتبرية القائمة في إقليم كان جل من حلوا فيه من المسلمين من عناصر البربر على اعتبار أن العرب اختاروا الأراضي الخصبة المحاذية لمجاري الأنهار الكبيرة. ولو أنه من الصعب جداً تحديد تاريخ نزول السمح في مدينة شنتبرية إلا أن من المرجح أن هذا الحادث قد تم في الربع الأول من القرن الثامن للميلاد وبعد انتهاء حروب الفتح الإسلامي. يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل وأتباعه ولأسباب نجهلها تماماً ما شارك هو أو أحد أبنائه أو أقاربه في حروب المسلمين في بلاد غالة.

وخلال القرن الثامن كله يظهر أن بلدة شنتبرية لم تلعب غير دور ثانوي ومحلي وبالتالي فإنه لم يكن لها أي تأثير في مجرى الحياة السياسية للأندلس. إلا أنه بالمقابل لا يمكن الافتراض بأن الذنونيين ظلوا محايدين بالنسبة للثورات والصراعات العربية ـ البربرية التي كانت تجتاح هذا الإقليم من آن لآخر خاصة وإنهم كانوا من الزعماء والمقدمين فيه. بل يبدو من المنطقي التسليم بأنه كان لهذه العائلة دور مهم في الحياة العامة لهذا الإقليم مارسته منذ الأيام الأولى لنزولها في شبه الجزيرة الايبرية مما يفسر لنا الموقع الهام الذي كان لها وسط المجتمع البربري طيلة أيام الدولة الأموية كما في ظل دويلات الطوائف. لقد رأينا البربر في الأندلس، على الرغم من عمق

تحولهم إلى الإسلام، يظهرون ولفترة طويلة عداءً شديداً لحكامهم العرب، ويبدون دائماً نزعة للتمرد على سلطان قرطبة. وقد حاول، مرات عديدة حكام إسبانيا الإسلامية في عصر الولاة وأيضاً الأمراء الأمويون فرض سيادة القانون والنظام في الأراضي التي كان يقطنها البربر ولكن دون نجاح يذكر. وخلال الثورة البربرية التي عمت الأندلس في سنة ٧٤٠ م، شارك أهالي طليطلة وشنتبرية وأحوازهما في أعمال العنف على نطاق واسع وأعطوا أبناء جلدتهم من البربر دعماً لا حدود له. والمعركة التي انتصر فيها جيش الدولة على جموع البربر المتمردين جرت على ضفة نهر وادي لكة، قريباً من شنتبرية وعلى الأراضي الواقعة، عملياً، في مناطق نفوذ بني ذي النون. وبعد ربع قرن تقريباً من ذلك قامت في الإقليم المذكور ثورة على حكومة الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل)[1]. ولما كانت المصادر التاريخية الأندلسية قد أهملت إيراد تفاصيل تلك الأحداث فإنه يصعب علينا الآن تحديد الدور الحقيقي الذي مارسه فيها الذنونيون. إنما وفي كل الأحوال لا نستطيع الافتراض أنهم بقوا في معزل عنها أو محايدين بالنسبة إليها خاصة وانها كانت تجري في منطقتهم وعلى أراض هي تحت سيطرتهم الفعلية. يضاف إلى ذلك أن مزاج البربر الشديد التعلق بالحرية والاستقلال يجعلنا نميل إلى الافتراض بأن الذنونيين لا بد أن يكونوا قد لعبوا فيها دوراً أساسياً إذا لم يكونوا هم قادتها وروادها. بهذا الافتراض وحده نستطيع أن نفهم ونفسر زعامتهم ومكانتهم البارزة في القرن التاسع، في المنطقة التي كانوا يقيمون فيها.

يبدو أن الزعامة في هذه العائلة كانت وراثية، إذ من الأخبار القليلة التي وصلت إلينا، نعرف أن السمح كان رأس بني ذي النون عند نزولهم في

---

(١) Dunlop, The Dunnunids in Spain, London 1942., P. 78.

شنتبرية ثم خلفه ابنه إسماعيل وجاء بعد هذا ابنه الهيثم الذي أورث الرئاسة لابنه طوريل ثم إلى حفيده سليمان. هؤلاء السادة الخمسة مارسوا زعامة الإقليم لمدة قرن تقريباً إلا أن المصادر الأندلسية لا تعطينا من المعلومات ما يكفي لتحديد دور كل منهم في حياة السكان أو في علاقتهم مع سلطات قرطبة المركزية غير أن من الثابت أن الإقليم في هذا القرن قد ازدهرت أحواله كثيراً وظهرت فيه قرىً وبلدات وقامت فيه حصون وقلاع وتزايد ناسه بنسبة كبيرة.

سليمان بن ذي النون:

ومنذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد صار الناس في إسبانيا الإسلامية يعرفون أكثر عن هذه العائلة ويسمعون بالمزيد من أخبارها. حوالي السنة ٨٧٣ م، أيام إمارة الأمير محمد، هاجم سليمان بن ذي النون، مدينة طليطلة فقتل كثيرين من أهلها وسرق وخرب مزارعها وكرومها، إلا أن هذا كان يعتبر من أعمال عصابات السرقة والتخريب ولا يدخل في إطار الثورات وأعمال التمرد والعصيان. وعلى كل هذا الحادث يمكن اعتباره وإلى حد كبير، بمثابة الظهور الأول لبني ذي النون على مسرح الأحداث العامة والكبيرة في شبه الجزيرة الإيبرية أيام دولة الإسلام فيها. ومن هذه الفترة بالذات بدأت أولى صلاتهم الرسمية ببلاط قرطبة.

في عودة الأمير محمد من واحدة من حملاته الكثيرة التي قادها إلى أراضي الإسبان النصارى في الشمال عبر إقليم شنتبرية أصاب مرض شديد خصي مقرب منه أقعده عن متابعة المسار إلى العاصمة. ترك سيد قرطبة خصيه في ضيافة سليمان بن ذي النون، أبرز وجوه الإقليم في ذلك الوقت، وأوصاه به خيراً إلى أن يبرأ[1]. ونظراً لرغبة سليمان في إقامة علاقات أفضل مع أمير قرطبة فإنه بذل أقصى الجهود إلى أن شفي الخصي المريض فرافقه

(١) المقتبس، ابن حيان، باريس ١٩٣٧، صفحة ١٧.

في عودته حيث مثل في دار الإمارة لأول مرة في حياته. وتعبيراً عن شكره وسروره الكبير بشفاء خادمه استقبل الأمير بحرارة ظاهرة الزعيم البربري في قصره وأكرمه وأغدق عليه العطايا والمنح وسماه رسمياً حاكماً لإقليم شنتبرية. إلا أنه ولضمان بقاء الزعيم البربري على ولائه له أبقى في قصره ولده موسى رهينة عنده يعيش في ظله معززاً مكرماً[1].

عاد سليمان إلى بلدته ليحكم الإقليم حكماً قوياً حازماً بفضل تأييد الأمير ودعمه له. وقد عرفت المنطقة أيام حكمه ازدهاراً اقتصادياً واستقراراً سياسياً بدعم ومبادرة منه. وما تردد هو شخصياً بمباشرة بناء العديد من القلاع والحصون لحماية السكان من غارات وهجمات المغامرين ولصوص المناطق المجاورة. وقد بقي حتى نهاية حياته على ولائه وخضوعه للسلطة المركزية مما أعطاه دعماً دائماً من الأمير بشكليه المادي والمعنوي.

توفي في سنة ٨٨٧ م[2] فخلفه كبير أبنائه أبو الجوشن، إلا أن هذا ما لبث أن توفي بعد وقت قصير تاركاً رئاسة العائلة وزعامة الإقليم لأخيه موسى.

موسى بن ذي النون:

عاش هذا وقتاً طويلاً في بلاط الأمير محمد في قرطبة كرهينة. ثم عاد إلى موطنه في سنة ٨٧٣ ليعيش قريباً من أبيه في شنتبرية يشاركه في مهمة الدفاع عن حدود الإقليم وأمنه وسلامة أهله. وقد مارس هذه المهمة بالذات إلى أن توفي شقيقه أبو الجوشن فخلفه في رئاسة العائلة وزعامة الإقليم.

من المعروف أن ارتقاء الأمير عبدالله سدة الإمارة في قرطبة ما استقبله الأندلسيون بفرح وترحاب لما شاع آنذاك عن دور له في وفاة أخيه، الرجل

(١) المقتبس، باريس ١٩٣٧، صفحة ١٩.

(٢) المقتبس، باريس ١٩٣٧، صفحة ١٨.

الطيب، المنذر. يضاف إلى ذلك إن ثورة ابن حفصون، وكانت آنذاك في قمة امتدادها، كانت تشغل بصورة كاملة سلطات قرطبة والجيش المركزي. هذه الأحداث، أراد موسى أن يستغلها لحسابه فعمل على قيادة عدة حملات إلى المناطق المجاورة له لتوسيع منطقة نفوذه. هاجم مدينة طليطلة التي كانت آنذاك خارج مناطق سيادة بني ذي النون، بقصد الاستيلاء عليها مما كان بداية لقطيعة مع سلطات قرطبة. ومع إنه قاد إليها جيشاً كبيراً بلغ تعداد جنوده عشرين ألفاً فإنه واجه صعوبة كبيرة في اخضاعها لكون أهلها كانوا على استعداد دائم للدفاع عنها ولكون المدينة كانت أصلاً قوية الحصون كثيرة الأبراج والقلاع. ولتجاوز هذه المقاومة لجأ إلى المكر والخداع فتآمر على الطليطليين مع واحد من المقدمين بينهم يدعى لب بن الطربيشة عرف بميله للمغامرة والانتهازية. وعند بداية المعركة الجديدة بين موسى بن ذي النون وأهالي طليطلة في ١٨ شباط سنة ٨٨٨ م انسحب لب ورجاله من ساحة المعركة وهذا أبقى المدافعين عن طليطلة في موقف ضعيف حيال الجيش العظيم المهاجم مما اضطرهم للاستسلام. وصارت بذلك طليطلة إلى موسى بن ذي النون وبقيت تحت حكمه حتى سنة ٨٩٧م. وكان يدير أمورها في هذه الحقبة ابنه لب بن موسى(١).

وبالاستيلاء على طليطلة وأحوازها اتسع مدى ممتلكات موسى بن ذي النون ومعها ازداد نفوذه وعلا قدره. ويمكن الجزم بأنه في تلك المرحلة المضطربة من تاريخ إسبانيا الإسلامية صار أقوى وأبرز سادة مناطق الثغور مما جعل جيرانه وأخصامه على السواء يهابون بأسه ويقيمون حساباً لقوته وقدراته. وبعد حياة طويلة، شديدة الاضطراب، وافرة الأحداث، غادر الدنيا في السنة ٩٠٨ م. واستطالة حكمه سنوات كثيرة، في ذلك الثغر الخطر

(١) Levi Provencal. Historia de Espana. T.IV., P. 245.

لمحاذاته إسبانيا النصرانية ووسط سلسلة من الثورات وحركات التمرد، وفي وقت كان هو يرفع لواء العصيان على الأمير عبدالله المعروف بقسوته ووحشية ممارساته، رأى فيه الباحث الأنكليزي دنلوب، دليلاً لا يخيب على لباقته وذكائه ومرونته[1]. إلا إنه من المرجح أن الأمير عبدالله ما كان غافلاً عما يجري في منطقة الثغر الأوسط ولا كان جاهلاً بما يفعله الزعيم الذنوني وإنما كان في أعماقه، ولانشغاله بمقاومة ثورة عمر ابن خصون، راضياً عما يفعل سيد شنتبرية خاصة وإنه كان يراه يبرع في الدفاع عن حدود دولة الإسلام في الأندلس بوجه غارات الإسبان المتوالية. ولعل هذا وحده ما يفسر لنا الحكمة والتساهل مما طالما أظهره عبدالله، على وحشيته، تجاه الزعيم الذنوني. وعند وفاته تقاسم أبناؤه ملكه عملاً بالتقليد السائد في ظل النظام الإقطاعي في سائر ممالك أوروبا النصرانية المحاذية حدودها لحدودهم.

يحيى بن ذي النون:

حصن «هولما» الهام وسائر الأراضي المحيطة به في إقليم قونقة صار إلى يحيى الابن البكر لموسى بن ذي النون. لقد أعطى هذا منذ البداية ولاءً ظاهرياً لأمير قرطبة واستمر عملياً في الاستقلال عن سلطة العاصمة في كل ما يتعلق بادارة شؤون ممتلكاته. وهو لم يتردد في إثارة أكثر من عصيان وتمرد على سلطات العاصمة بصورة علنية وعدوانية. لقد برع في أعمال اللصوصية والسطو على القرى والمزارع المجاورة لحصنه فروع السكان لكثرة ما سطا على ممتلكاتهم وقتل منهم وانتهى بأن أشاع الخوف والرعب في كل محيط حصنه. فهو على ما يخبرنا ابن حيان ما كان شديد الاحترام لمبادىء الإسلام وأوامره ولا كان متعلقاً بالمثل والأخلاق، فكان لا يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم ولا يتردد في قتل أو الغدر بأقرب أصدقائه إليه[2]. فهو طيلة عصر

(١) Dunlop, P. 80.

(٢) المقتبس، صفحة ١٧.

الأمير عبدالله تصرف بصورة جعلته أقرب إلى رئيس عصابة منه إلى سيد إقطاعي أو حاكم لإقليم. إلا أنه مع وصول عبد الرحمن الثالث الناصر إلى السلطة في قرطبة تغير كل شيء في الأندلس وبات لإسبانيا الإسلامية سيد قوي وحازم ومصمم على القضاء على كل الثائرين والمتمردين والعصاة. وباعتبار أن الناصر قد باشر وبعد أربعين يوماً من وصوله إلى الحكم عملية نشر السلام في البلاد مبتدأً من أراضي الثغور فإن يحيى قد بادر إلى تقديم خضوعه وولائه للأمير متفادياً غضبه وانتقامه. ومع أن الناصر ما كان شديد الاقتناع بصدق هذا الولاء وبصحة الخضوع المعلن فإنه تظاهر بالقبول والرضى، ولو مرحلياً، ليتفرغ للقضاء على ثورة ابن حفصون وبأسرع وقت ممكن. وعلى هذا أبقى الناصر على يحيى بن ذي النون في ممتلكاته ومناطق نفوذه[1]، إلا إنه بقي يراقبه بشدة لعدم ثقته بنواياه. وبالفعل بقي الذنوني متمسكاً بولائه للسلطة وخضوعه لأميرها إنما دون أن يتخلى عما طالما أظهره تجاه الناس من وحشية ومن نزعة نحو اللصوصية والإجرام. وحين عزم الأمير الناصر على الخروج إلى أراضي الإسبان النصارى في الشمال، في سنة **٩٢٤** م على رأس حملة عسكرية، دعاه لمرافقته ومشاركته الحرب والقتال فامتنع وتمرد. وفي طريق عودة الأمير من حملته إلى قرطبة انتظره يحيى بن ذي النون ومعه ابن أخ له حيث قدما مجدداً الولاء والخضوع في محاولة لتفادي انتقام الأمير وعقابه. وقد قبل هذا منهما، ومنحهما العفو والرضا، في الظاهر على الأقل[2].

إلا أن الأمير اضطر بعد عام واحد من ذلك إلى توجيه حملة عسكرية بقيادة أحد وزرائه[3] لمعاقبة يحيى بن ذي النون وأتباعه وذلك لتماديهم في

---

(١) المقتبس، صفحة ١٩ ـ Dunlop, P 81.

(٢) Dunlop, P.81.

(٣) يدعى هذا الوزير عبدالحميد بن بسيل.

إيذاء الناس المقيمين في المناطق المجاورة لأراضيهم وأيضاً لإقدامهم على قتل أحد موظفي الأمير في منطقة شنتبرية بالذات[1]. وقد أقدم جيش الأمير على اجتياح أراضي إقليم شنتبرية واستولى على حصن ابن ذي النون فقتل المدافعين عنه وعاقب كبار المسؤولين عن أعمال اللصوصية والإجرام.

ولاسترضاء الأمير مجدداً اضطر الذنونيون لتقديم خضوعهم وولائهم مشفوعين بالقسم على الاستمرار في ذلك وأيضاً مع دفع جعالات وضرائب وافرة لخزانة الدولة. وبعد هذه الهزيمة ثابر يحيى بن ذي النون بالفعل، على ما يظهر، على خضوعه للدولة والتعامل معها بصدق وإخلاص مما جعل الأمير عبدالرحمن الناصر يكافأه على ذلك في سنة ٩٢٩ م بتسميته بصورة رسمية وعلنية حاكماً لشنتبرية وأحوازها[2]. إلا أن، نزعة التمرد والعصيان، كانت راسخة في أعماق هذا الرجل، فما استمر طويلاً بعد ذلك في خضوعه مما إضطر الناصر لأن يرسل له في سنة ٩٣٣ م حملة عسكرية إلى شنتبرية لإعادته إلى رشاد الطاعة. ما اكتفى قائد الحملة هذه المرة باجتياح الإقليم وإخضاع سادته المتمردين وإنما في عودته إلى العاصمة حمل معه يحيى وأولاده ليمثلوا أمام الناصر في قصره. وقد بقي هؤلاء في إقامة جبرية في قرطبة مدة عام تقريباً، وما تمكنوا من الحصول على عفو سيدها ورضاه وإذنه بالعودة إلى ديارهم إلا بعد وساطة وتدخل طوطة ملكة نبرة[3] صديقة وحليفة الناصر. هذه المرة كان ولاء يحيى بن ذي النون صادقاً أكثر من أية مرة سابقة وقد عبر عن إخلاصه للناصر، وكان آنذاك قد أعلن نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين، فرافقه في سنة ٩٣٦ في حملة عسكرية متوجهة إلى منطقة سرغوسة ولقي حتفه هناك.

---

(١) Cronica Anonima de Al Nasir., P. 72.

(٢) Cronica Anonima de Al Nasir., P. 33.

(٣) Dunlop, P. 82.

الفتح بن ذي النون :

هو ثاني أولاد موسى. استقر على أيام حكم الأمير عبدالله في مدينة إقليش وبنى فيها حصنها الشهير الذي أقام فيه مع حاشيته وأتباعه. وقد تفرغ منذ أيامه الأولى في هذا الإقليم لممارسة أعمال اللصوصية والاعتداء على جيرانه وهي الممارسات التي اعتادها وبرع فيها منذ كان يرافق أباه موسى ويساعده في شؤونه. كان يخرج مع أتباعه من آن لآخر لمهاجمة المزارع المجاورة لحصنه والاستيلاء على مواسم الفلاحين وأيضاً لفرض الأتاوات والضرائب على الملاكين الصغار المجاورين له. وفي أكثر من مناسبة تعرضت مدينة طليطلة الهامة لغاراته فخرب حقولها ونهب ثرواتها. وكان أكثر ما يفعل ذلك حين تكون طليطلة على علاقات سيئة مع العاصمة وسيدها أو حين يعرف بأن جيوش السلطة المركزية منشغلة بحروب أهلية خاصة مع ابن حفصون. وقد وجد الفتح هذا نفسه في أواخر أيام الأمير عبدالله طرفاً في نزاع عسكري كبير مع أحد سادة إقليم جيان الأقوياء، ويدعى ابن الصياح، حول أحد الحصون، مما أربكه وشغله لمدة طويلة هزم في نهايته هزيمة منكرة وفقد نهائياً الحصن موضوع النزاع.

إلا أنه مع كثرة سيئآته وعيوبه، كان شديد العناية بحدوده مع الإسبان النصارى فصانها بقوة وصد عنها هجمات عديدة وحفظها في فترة كانت، كثيرة الإضطراب، شديدة الحرج. إضافة إلى هذه الحسنة كان بارع التنظيم شديد الولع بأعمال البناء والعمران. فقد ازدهرت على أيامه بصورة مدهشة مدينة إقليش وكثر ناسها وزادت ثرواتها وقامت حولها مزارع كثيرة وقرى عديدة. كان شديد الاهتمام بحصن المدينة الذي بناه هو في شبابه[1]. كما عمل على تجميل المدينة وتزيينها بالمنشآت والعمائر والمساجد. وقد زودها

---

(١) الروض المعطار، صفحة ٢٨.

بصورة خاصة بشبكة دقيقة لتوزيع المياه إلى الحدائق والمنازل وأقام فيها حماماً كبيراً لاستعمال عامة الناس ومسجداً جامعاً جاء تحفة في فن البناء والعمران[١]. وعن أولاده وأفراد عائلته لا نعرف شيئاً على الإطلاق. إلا إنه من المؤكد أن أحداً منهم لم يلعب دوراً في الحياة العامة على أيامه أو بعد وفاته.

المطرف بن ذي النون:

هو ثالث أبناء موسى بن ذي النون وكان نصيبه من تركة أبيه حصن أبذة[٢]. لقد عمل كأخويه على تقوية حصنه وتزويد أراضيه بقوة عسكرية فاعلة للدفاع عنها. كان على تحالف دائم مع أخيه الفتح في ممارساته على الصعيد السياسي يشاركه في غاراته وحروبه إلا أنه كان يرفض دائماً معاونته في أعمال السرقة واللصوصية كما في جرائمه الكثيرة. ذلك إنه كان ذا خلق مختلف عن الفتح، يتبع دوماً الطريق القويم ويحترم بشدة قواعد الأخلاق وأوامر ونواهي الشريعة الإسلامية[٣]. ومنذ أيام الأمير الناصر الأولى في الحكم بادره بإعلان الطاعة وقدم له كامل الولاء وصادق الرغبة في الخضوع والالتزام بأوامره. إلا أن هذا لم يمنعه، من آن لآخر، وحتى وفاة أخيه الفتح حوالي **٩١٥ ـ ٩١٦** م من مشاركته في بعض غاراته أو معاونته في بعض حماقاته. بعد هذا التاريخ تخلى عن أنانياته وتنازل عن مصالحه الشخصية والخاصة ليتفرغ لمساعدة الأمير والتعاون معه بصدق في الدفاع عن سلامة الأندلس بوجه الأخطار الخارجية وأيضاً في صيانة الوحدة الوطنية للأمة الأندلسية. وفي وقت غير معروف تماماً صار رسمياً حاكم الأراضي التي كان

---

(١) الروض المعطار، صفحة ٢٨.

(٢) حصن Huete وهو غير مدينة ابذة الواقعة في إقليم جيان والمعروفة باسم Ubeda.

(٣) المقتبس، صفحة ١٩.

يملكها ويديرها بقوة الأمر الواقع ولصيرورتها إليه من أبيه.

شارك في كل حملات الناصر على أراضي الإسبان النصارى في الشمال وقاتل إلى جانبه بصدق وشجاعة[١]. وعندما هاجم سانشو الأول، ملك مملكة نبرة صديق وحليف أوردونيو الثاني سيد ليون، أراضي بني قسي[٢] خرج المطرف مع القائد الأندلسي أمية بن لب لرد عدوان الإسبان. كانت هزيمة المسلمين في هذه المواجهة كاملة وحاسمة ووقعوا جميعهم أسرى بأيدي الملك الإسباني الذي أمر بضرب رؤوس أكثر جنودهم وفرسانهم. إلا أن الناصر أمير قرطبة، تقديراً منه لإخلاص المطرف وولائه وتضحياته المستمرة في سبيل الإسلام وفي سبيل وحدة الأندلسيين عمل على مساعدته على الفرار من أسره وأعاده مجدداً إلى بلدته وممتلكاته[٣].

وفي معركة الحفرة الشهيرة التي وقعت في الأول من شهر آب سنة **٩٣٩**م في شمنقة شارك في القتال بشجاعة وقاوم الهزيمة حتى اللحظة الأخيرة مما جعل الناصر يقدر له ذلك ويكبر شجاعته وشدته فأمر بتعيينه حاكماً على مدينة وادي الحجارة الهامة. ونظراً لما كان لهذه المدينة من موقع هام في الحياة السياسية ولما كان لها من أبراج وحصون عسكرية[٤] وأيضاً لما فيها من ثروات عظيمة فإن هذا التعيين نظر إليه المطرف على أنه تقدير عظيم من سيد البلاد وشهادة بإخلاصه مما دفعه لمزيد من الولاء ومزيد من التعاون مع قرطبة بقي عليهما حتى وفاته في سنة **٩٤٤** م. ونحن نعرف من أولاده ثلاثة:

أ ـ ابنه البكر يحيى وقد غادر داره في مطلع شبابه والتحق بعمه يحيى

---

(١) العبر، جزء ٤، صفحة ١٣٤.

(٢) Levi Provencal. Historia de Espana, T. IV., P. 48.

(٣) المقتبس، ابن حيان، صفحة ١٩.

(٤) نزهة المشتاق، الإدريسي، صفحة ١٨٩.

وصار مساعده الأقرب في أعمال اللصوصية والسرقة والاعتداء على الناس.

ب ـ القاسم الذي خلف أباه في رئاسة عائلته وفي حمايته لأراضي العائلة وممتلكاتها. لقد التزم بشدة بالمحافظة على العلاقات الحسنة التي أقامها والده مع سيد قرطبة. وعمل كأبيه على المحافظة بقوة على سلامة حدود دولة الإسلام في الأندلس وشارك مع جيش الخليفة في أكثر من حملة على أراضي الإسبان في الشمال. وفي سنة ٩٦٥ م، على أيام الخليفة الحكم الثاني المستنصر، رافق القائد غالب في حملة إلى أراضي قشتالة للاستيلاء على حصن شنت إشتيبن على نهر الدويرو وهناك ظهرت براعته وجرأته كجندي وكمقاتل.

ج ـ عامر وقد وضع نفسه، في مدينة سالم، منذ سنة ٩٤٦ م، مثل أخيه القاسم في خدمة الخليفة عبدالرحمن الناصر وأظهر حتى نهاية حياته تفانياً وإخلاصاً لا حدود لهما في خدمة العاصمة وسيدها. وقد تميز بشجاعته وبراعته كقائد عسكري عندما شارك في حملة أرسلها الخليفة في شهر تموز من سنة ٩٥٥ م إلى أراضي قشتالة[١].

شاركه في هذه الحملة، التي هدفت لمهاجمة أحد حصون المنطقة، جميع القادة العسكريين والحكام في مناطق الثغور. وقد حقق المسلمون في نهايتها انتصارات باهرة وقتلوا عشرة آلاف من أخصامهم. وبعد هذا الانتصار مثل عامر أمام خليفة قرطبة ومعه خمسة آلاف من رؤوس ضحاياه فأكرمه ورفع من قدره وذاعت في البلاد شهرته وأطلق عليه الناس لقب «حامي الحدود».

حافظ أولاده من بعده ولمدة طويلة على مكانة العائلة وميزاتها في المجتمع الأندلسي. وقد برع أحد أحفاده، عبدالرحمن، في المجال

Dunlop, P. 82. (١)

العسكري وظهر كقائد كبير من قواد جيش المنصور ابن أبي عامر. وأكثر ما ظهرت مواهب عبدالرحمن هذا في الحملات ضد النصارى الإسبان في الشمال. حفيد آخر لعامر بن ذي النون توصل لأن يقيم لنفسه مكانة في مدينة طليطلة عمرت زمناً طويلاً. وبصورة عامة فإن سائر أحفاد عامر بن ذي النون، وما كانوا قلة، تفرغوا لخدمة الدولة أيام العامريين فظهر بعضهم كقادة عسكريين متفوقين وآخرون صير إليهم المنصور وظائف هامة في الإدارة كما في قطاع المال والضرائب[1]. وقد برع بصورة خاصة أحد هؤلاء، عبدالرحمن، في مجال العمل العسكري وتميز بإخلاصه لسيده الذي فوض إليه أكثر من مرة مهمة التخلص من بعض أخصامه ومنافسيه الشخصيين.

بنو ذي النون في مطلع القرن الحادي عشر:

في ظل حكم المنصور بن أبي عامر حصل تحول أساسي في طبيعة عمل أبناء العائلة الذنونية وفي كيانهم الاجتماعي. لم يعد هؤلاء يتصرفون كسادة إقطاعيين مستقلين في مناطق نفوذهم، كما هجروا أعمال اللصوصية والإجرام التي طالما برعوا فيها، وصاروا جزءاً أساسياً من جيش الدولة الأندلسية النظامي. وتسلم بعضهم مناصب إدارية هامة في المقاطعات كما في الحكومة المركزية. ونظراً لما كانوا يقدمونه من خدمات مخلصة للدولة صارت مكانة العائلة بين الأندلسيين في تصاعد مستمر. وهذا سمح لكثيرين من شباب بني ذي النون بالانخراط في بنية الطبقة العليا من المجتمع الأندلسي. إنما ودائماً دون الوصول إلى حد الاستقلال السياسي أو ممارسة الإقطاع الكبير بمعزل عن قرطبة. ذلك إن المنصور بن أبي عامر ما كان على استعداد لقبول مراكز قوى على شيء من الاستقلال داخل الأندلس حتى

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٧٦.

ولو كان أصحابها من مواليه ومن المقربين إليه.

لا نعلم على وجه التفصيل ما حل بأمر بني ذي النون بعد موت حاميهم وصديقهم المنصور ابن أبي عامر وبالأخص ليس في المصادر الأندلسية ما يخبرنا بنشاط زعماء هذه العائلة وتحركات أفرادها في الفترة الشديدة الإضطراب التي تلت وفاة عبدالرحمن «شنجول» ثاني أولاد المنصور. إنما من المرجح أنهم ما شاركوا في تلك الأحداث واتخذوا ولوقت طويل موقف المراقب وأحياناً المحايد من الأحداث العاصفة التي اجتاحت العاصمة وخاصة النزاعات العربية ـ البربرية التي وقعت بين عامي ١٠١٠ م ١٠١٣ إذ لا نجد ذكراً للعائلة الذنونية أو لواحد من مقدميها ضمن قائمة العائلات والقبائل البربرية التي اشتركت في هذه الأحداث والتي حفظها لنا ابن عذاري[١].

وهنا ربما بدا لنا منطقياً أن بني ذي النون، وقد طالت كثيراً إقامتهم في شبه الجزيرة الإيبرية قد تأقلموا مع أجوائها واندمجوا في مجتمعها الأندلسي وتخلوا عن الكثير من خصائصهم البربرية وعن تعصبهم العنصري بمعنى أنهم تأسبنوا مع الزمن وإلى حد كبير. وهذا الافتراض وحده يفسر لنا ما طالما أظهروه من بعد عن المشاركة في الصراعات بين العرب والبربر خلال عصر الفتنة وأيضاً على أيام ممالك الطوائف.

عشية سقوط الخلافة الأموية كان بنو ذي النون قد عادوا إلى الاستقرار في مقرهم القديم مدينة شنتبرية وأحوازها مما يعني أنهم لا بد أن يكونوا قد غادروا طليطلة عقب موت صديقهم وحاميهم المنصور ابن أبي عامر أو ربما بعد مقتل ابنه عبدالرحمن «شنجول» كما يعتقد ابن حيان[٢]. وفي الحالين

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ١١٣.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.

إنما فعلوا ذلك ليبتعدوا عن الجو العاصف والمضطرب في العاصمة لائذين بديارهم القديمة مما يسمح لهم باتخاذ ما يناسب مصالحهم من مواقف حيال الأحداث الكبيرة والمتسارعة في الأندلس منذ دخلت عصر الفتنة.

وفي أول خروج لهم من عزلتهم وحيادهم استغل عبدالرحمن بن ذي النون[1] صداقة سليمان المستعين للبربر وتحالفه الوثيق معهم واتصل به في قرطبة ليعطيه إضافة إلى ما يملك، وكان آنذاك سيداً على شنتبرية كما أشرنا آنفاً، حاكمية إقليش وإقليمها. وعند وفاة «الحاجب واضح» وضع يده على قونقة أحد أهم حصونه وأيضاً، عن طريق منح الرعاية والحماية لزوجته وأطفاله، استولى على سائر ممتلكاته بحجة حماية مصالح اليتامى إلا أنه ما لبث أن ضمها إلى منطقة حكمه بصورة كاملة ونهائية. ليس هذا فقط وإنما عمد إلى إلحاق سائر جنود الحاكم المتوفي بجيشه الخاص.

لم يتردد عبدالرحمن بن ذي النون كثيراً في المبادرة إلى الاستفادة من جو القلق والإضطراب المستمر في قرطبة. فقد باشر في منطقة الثغر الأوسط نهجاً توسعياً فكان يستولي على بعض ممتلكات جيرانه كلما سمحت له الظروف[2]. إضافة إلى ذلك اجتهد بصورة أساسية في تحصين مناطق نفوذه وتقوية قلاعها وأبراجها وأيضاً في الدفاع عن منطقة الثغر بوجه هجمات الإسبان النصارى الكثيرة. وتقديراً لجهوده ومنجزاته في هذا المجال الأخير كرمه الخليفة سليمان المستعين وأعطاه لقب ناصر الدولة[3].

(١) يذكر كوندي في كتابه «تاريخ الحكم العربي في إسبانيا»، صفحة ١٤٢ «إن الحاجب واضح صير حاكمية طليطلة إلى شيخ قوي ونبيل من أهلها هو أبو إسماعيل (عبدالرحمن) بن ذي النون الذي سهل له بما كان يملك من مال وثروة دخول طليطلة». ونحن نجهل تماماً المصدر الذي اعتمد عليه كوندي لإيراد هذا الخبر إنما في كل الحالات لا نجده منطقياً لكونه من المعروف والمسلم به أن بني ذي النون كانوا آنذاك في شنتبرية وليس في طليطلة.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.

(٣) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١١.

في السنة ١٠١٨، شعوراً منه بمزيد من القدرة على الاستقلال عن قرطبة، لانشغال أهلها بما عندهم من فتن وإضطرابات، وأيضاً لاتساع ممتلكاته قرر أن يعطي ابنه الشاب والذكي إسماعيل مدينة إقليش يتولى أمورها ويحكمها حكماً شبه إقطاعي. وكان إسماعيل هذا آنذاك في التاسعة عشرة من العمر.

عندما تعب الطليطليون أخيراً من الفراغ السياسي الذي ساد مدينتهم بعد إبعاد ابن يعيش عن حاكميتها، وفي موعد غير محدد بدقة رأوا مخرجاً لأزمتهم الصعبة في تفويض إدارة شؤونهم لواحد من جيرانهم السادة الأقوياء. إعجاباً، ربما بما أظهره جارهم الرجل القوي في شنتبرية عبدالرحمن بن ذي النون من حكمة وإتزان وحزم في حكمه لإقليمه، عرضوا عليه تسليمه حكومة عاصمة القوط القديمة طليطلة. قبل منهم عبدالرحمن هذا التكريم شاكراً وكلف ابنه إسماعيل بأن يتولى حاكمية المدينة.

الباب الثاني

- إسماعيل الظافر.
- قضية الخلافة .
- السياسة الخارجية .
- بلاط إسماعيل الظافر.

الفصل الأول

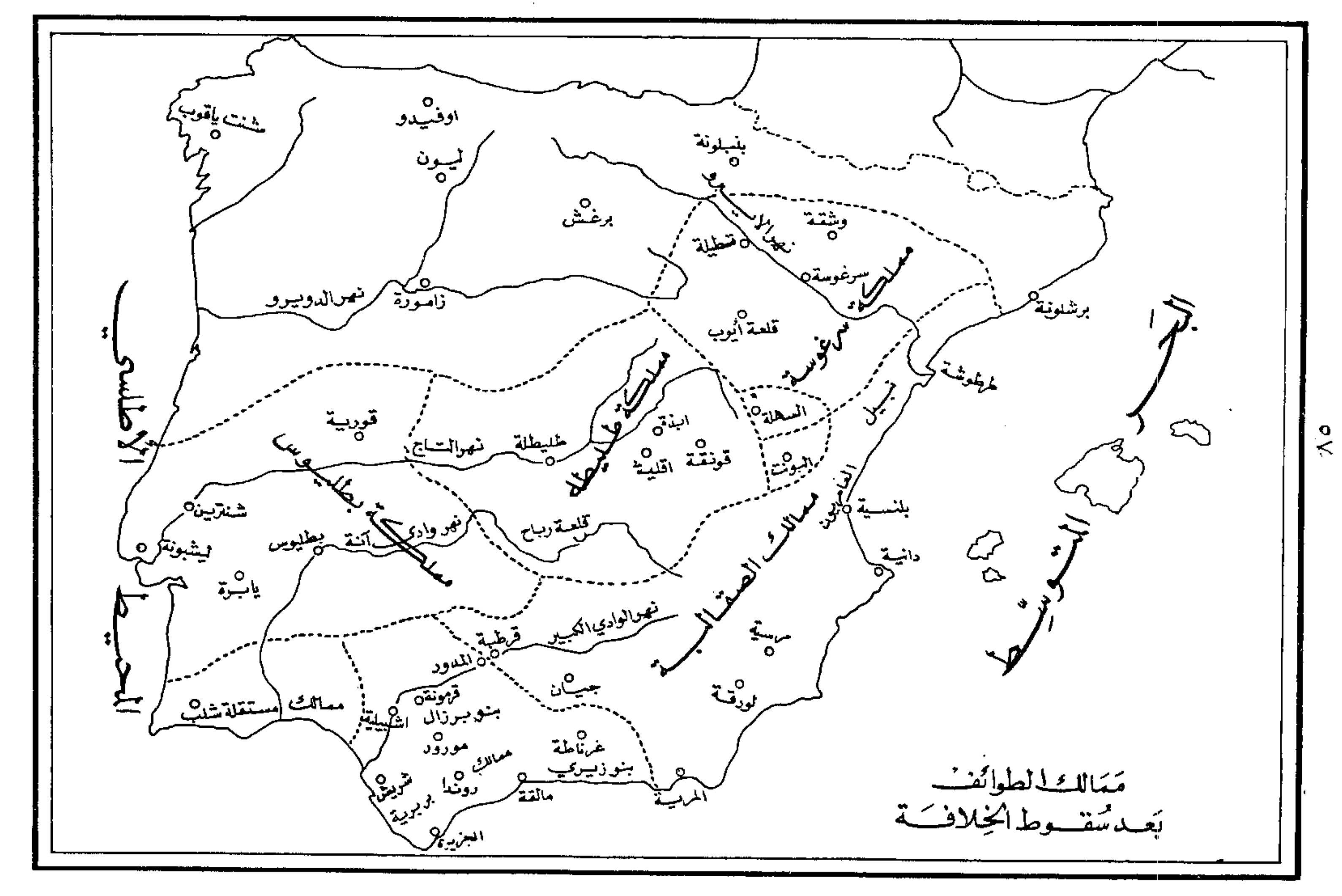
إسماعيل الظافر

كان إسماعيل بن ذي النون أول من ملك على مدينة مدينة طليطلة. وهو الذي أقام فيها في زمن الطوائف مملكة كانت أقوى وأشهر وأعظم ممالك الأندلس في هذا العصر. ومع إسماعيل «الظافر» وأيضاً مع ابنه «المأمون» استعادت عاصمة القوط القديمة بهاءها وهيمنتها واستردت تفوقها على سائر حواضر شبه الجزيرة الإيبرية الذي كانت قد فقدته مع دخول المسلمين إلى هذه الأراضي. بل ربما كان اعتلاء إسماعيل بن ذي النون عرش طليطلة في القرن الحادي عشر للميلاد بمثابة تأكيد لاستعادة الطليطليين حريتهم وسيادتهم وتتويجاً لنضال طويل وشرس مارسوه خلال أكثر من ثلاثة قرون ضد سلطات قرطبة. فما عجز زعماء ورواد كثر عن إنجازه قام به بنجاح كبير إسماعيل بن ذي النون حين جعل من طليطلة عاصمة لدولة كاملة الاستقلال، ولكن على انقضاض دولة بني أمية التي ستظل دوماً تشغل واحدة من أجمل وأبهى صفحات تاريخ إيبريا بشقيها الإسباني والبرتغالي على امتداد الأزمنة والعصور.

ليس من السهل رسم صورة واضحة لحياة إسماعيل بن ذي النون الخاصة وأيضاً لخطواته الأولى في السلطة ذلك إن هذا تزامن مع فترة الإضطراب وعدم الاستقرار التي شغلت تقريباً كل النصف الأول من القرن الحادي عشر للميلاد. ومعلوماتنا عن هذه الحقبة ليست بالكثيرة ولا بالواضحة. وإنما وفي كل الأحوال سنحاول، اعتماداً على القليل الذي أوردته المصادر الأندلسية وتلك التي تركها لنا مؤرخون من الإسبان النصارى، أن نرسم صورة تكون أقرب ما يكون من الصدق والصحة لحياة إسماعيل بن ذي النون وأيضاً لحكمه.

إسماعيل بن عبدالرحمن بن ذي النون كان أول من ملك على طليطلة من عائلته. لا نعرف الكثير والواضح عن تاريخ ولادته وعن مسار طفولته. إنما لكونه كان شاباً في حوالي الثامنة عشرة من عمره حين أوكل إليه والده مهمة حكم مدينة إقليش وحصنها في سنة ١٠١٨ م يجعلنا نفترض أن ولادته قد حصلت حوالي السنة ١٠٠٠ م. وهذا يعني إنه ولد في أيام حكم رجل الأندلس القوي المنصور ابن أبي عامر وفي الوقت الذي كان فيه رؤوس ومقدمو بني ذي النون يعيشون في ظله وحمايته ويمارسون وظائف كبرى في الجيش والإدارة. وعلى هذا يرجح أن تكون ولادة إسماعيل هذا قد تمت في قرطبة. وفي هذه المدينة بالذات صرف سنوات طفولته الأولى وحتى سقوط دولة العامريين [1] حين غادرها مع أهله إلى إقليم شنتبرية الموطن الأساسي للعائلة الذنونية. وهناك عاش في ظل والده عبدالرحمن الرجل القوي. تفرغ في صغره وفتوته، على عادة أبناء البيوتات الأندلسية الكبيرة، لحفظ ودراسة القرآن الكريم وأيضاً للتعرف إلى علوم اللغة العربية وآدابها وشعرها وأيضاً للاطلاع على علوم الفقه والشريعة. ونظراً لما كان لعائلته من دور سياسي

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.



ممالك الطوائف
بعد سقوط الخلافة

وعسكري في حياة الأندلس فقد درس الفنون العسكرية واتقن صناعة الفروسية وتأدب بآدابها مما أعطاه فيما بعد شهرته كمقاتل بارع وكفارس لا يباري. وعند وصوله إلى سن الرشد أوكل إليه أبوه عبدالرحمن، كما ذكرنا سابقاً، حكم إقليش التي سبق لجده أن دبر شؤون أهلها، وكان ذلك في سنة ١٠١٨. ويبدو إن تعيين سليمان على مدينة إقليش بالذات كان تنفيذاً لرغبة ضمنية عند عبدالرحمن بالتوسع في جهات طليطلة والاستيلاء على هذه المدينة، لكون حصن إقليش العظيم كان قريباً جداً من طليطلة ولكونه كان يتحكم بمداخلها ومخارجها.

بضع سنوات بعد ذلك، وبعد عزل ابن يعيش عن حاكمية طليطلة، أوفد أهل المدينة بعثة من مقدميهم ووجوههم إلى سيد شنتبرية تعرض عليه أن يقبل حكم مدينتهم. وبسرور وحبور عظيمين قبل عبدالرحمن العرض ولكنه حول المهمة إلى ابنه إسماعيل وندبه ليكون حاكماً على مدينة طليطلة. وفي موعد غير معروف تماماً ترك حصنه في إقليش وانتقل إلى طليطلة التي دخلها بسهولة وبموافقة القسم الأكبر من أهلها الذين كانوا قد سئموا الفراغ السياسي الذي ساد بلدهم وما رافق ذلك من فوضى وإضطراب بعد إبعاد ابن يعيش آخر حكامها في ظل الدولة الأموية الضعيفة والسائرة حثيثاً إلى حتفها. وحتى تلك الأقلية التي لم تشارك في دعوة ابن ذي النون، والتي كانت أساساً معارضة لتسليم حكم طليطلة للزعيم البربري، ما عارضت دخوله على أمل أن يتمكن من إخراج المدينة مما كانت تتخبط فيه[1]. ولا تتفق المصادر الأندلسية حول تاريخ دخول إسماعيل المدينة كما أنها لا تعطينا موعداً موحداً لبداية ملكه فيها. فابن خلدون[2] يجعل دخول الأمير الذنوني طليطلة

(١) العبر، جزء ٤، صفحة ١٦١.

(٢) العبر، جزء ٤، صفحة ١٦١.

في حوالي ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦[1]. وأبو الفدا لا يتردد في الموافقة على هذا التحديد[2]. ومن المؤرخين المحدثين انبرى ليفي ـ بروفنسال في مقال له حول مدينة طليطلة، ومملكة بني ذي النون فيها، ليقبل هذا التاريخ كبداية لقيام هذه المملكة المستقلة. وإذا كان ليفي ـ بروفنسال وأيضاً أشباخ[3]، معتمدين على ابن خلدون وأبي الفدا، قد وصلا إلى هذا القرار، بعد أو قرب من الصواب، فإن سائر المؤرخين، قدمائهم كما محدثيهم يهملون تماماً هذه القضية ويكتفون بالقول إن هذه المملكة قد تأسست بعد عزل ابن يعيش وهذا بدوره حادث صعب تحديد وقت حصوله كما رأينا. وقد ساورت الشكوك المؤرخ الإنكليزي دنلوب[4] حول صحة هذا التاريخ إنما دون أن يتمكن من إعطائنا موعداً أكثر دقة وأقرب إلى الصواب.

وأمام هذا الإضطراب أجد نفسي هنا أكثر ميلاً، لرفض هذه الإفتراضات وتحديد موعد آخر كبداية لقيام مملكة بني ذي النون في طليطلة وذلك لأسباب عديدة.

١ ـ جميع المصادر التاريخية الأندلسية تتفق على أن مُلك إسماعيل قد بدأ في طليطلة بعد عزل ابن يعيش بمدة تقصر أو تطول. نحن نعرف مما ذكره ابن بشكوال، عن كتاب تاريخ فقهاء وقضاة طليطلة لابن مطاهر[5]، أن ابن يعيش هذا قد عزل من منصبه وأرسل لاجئاً إلى قلعة أيوب حيث توفي في سنة ١٠٢٧. وفي رواية أخرى لابن حيان وردت في كتاب الصلة إنه قد توفي سنة ١٠٢٨[6] م. ومن المعروف أن ابن حيان وابن مطاهر كانا يعاصران الحاكم

(١) ٤٢٧ هـ.

(٢) مختصر تاريخ البشر، جزء ٢، صفحة ١٤٧.

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين، أشباخ ترجمة عنان، صفحة ١٤٧.

(٤) Dunlop., P. 83.

(٥) الصلة رقم ١٤٠٥، صفحة ٦٢٨.

(٦) الصلة رقم ١٤٠٥، صفحة ٦٢٩.

المعزول وأيضاً إسماعيل بن ذي النون مما يجعل لخبريهما مصداقية وصحة. وقد رأيت أن آخذ الشهادتين المذكورتين بعين الاعتبار لقرب صاحبيهما من الأحداث ولدقة أخبارهما عموماً، واعتبر أن إقالة ابن يعيش قد حدثت خلال العامين المذكورين أو قبلهما بقليل على اعتبار أن ابن يعيش لم يمض زمناً طويلاً في سجنه. وهذا كله يجعلني أميل إلى رفض رواية ابن خلدون.

أما وقد اعتبرنا أن وفاة ابن يعيش لا بد أن تكون حدثت في سنة ١٠٢٧ أو ١٠٢٨ فإنه بات بإمكاننا أن نفترض أن مُلك إسماعيل قد بدأ خلال السنة التي مات فيها سلفه أو بعد ذلك بقليل.

٢ ـ المؤرخون الأندلسيون يؤكدون أن إسماعيل بن ذي النون هو أول حاكم أندلسي يتبرأ رسمياً من سلطان خلافة قرطبة، بالرغم من كون سيادة هذه الخلافة ما كانت إلا شكلية وظاهرية منذ سقطت الدولة العامرية. فالمراكشي حين يتحدث عن المأمون بن ذي النون يقول: «وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم تلقب بالمأمون وكان أبوه إسماعيل هو الذي تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة». وتحدث ابن حيان عن أولوية ملك إسماعيل فقال: «فكان أول الثوار لمفارقة الجماعة وفرطهم في نقض الطاعة». وكذلك ابن عذاري[٣] أشار في كتابه البيان المغرب إلى مثل ذلك في معرض الحديث عن ابن رزين صاحب السهلة إذ قال: «سما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله والإمارة لجماعته والتقبل لجاره إسماعيل بن ذي النون في الشروع عن سلطان قرطبة». من هذه الروايات ومن أخرى غيرها نتوصل إلى القناعة بأن مُلك بني ذي النون

(١) المعجب، المراكشي، صفحة ٧٢.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.

(٣) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ١٨١.

قد بدأ فعلياً في طليطلة قبل سقوط خلافة قرطبة النهائي .

٣ ـ في متحف الآثار في مدينة طليطلة وعاء إسطواني الشكل من المرمر يحمل في أعلاه الكتابة العربية التالية : «بسم الله الرحمن الرحيم . . . . أمر الظافر ذو الرئاستين أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن بن ذي النون أطال الله أيامه ببنيان هذا الجب بجامع طليطلة حرسها الله فتم بعون الله في جمادي الأول سنة ثلث وعشرين وأربع مائة»[١] .

هذه الكتابة هي في الواقع دليل قاطع على أن التاريخ الذي حدده لنا ابن خلدون أي سنة ٤٢٧ هـ[٢] كموعد لدخول إسماعيل بن ذي النون مدينة طليطلة يبعد كثيراً عن الواقع . يضاف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نسلم بأن مُلك هذا قد بدأ في سنة ٤٢٣ هـ[٣] على اعتبار إن الكتابة المذكورة أعلاه تشير إلى هذه السنة على أنها الوقت الذي أنجزت فيه الأعمال التي أمر إسماعيل الظافر القيام بها .

واعتماداً على كل العناصر التي أوردتها أعلاه أجدني مقتنعاً ، وبما يكفي من الثقة ، بجعل تاريخ تأسيس ملكية آل ذي النون في طليطلة في الفترة ما بين ١٠٢٧ أو ١٠٢٨ (٤١٨ أو ٤١٩ هـ) و١٠٣١ (٤٢٣ هـ) وبقناعة أضعف يمكنني أن أضع هذا الحادث الهام في السنة أو السنتين اللتين أعقبتا إقالة ابن يعيش وطرده من المدينة إذ لا يمكنني الافتراض بل والتسليم بأن فترة الإضطراب وعدم الأستقرار التي سبقت مجيء إسماعيل بن ذي النون إلى المدينة يمكن أن تطول أكثر من ذلك .

---

(١) Levi Provencal. Inscriptions Arabesen Espagne T.I., P. 65.

(٢) ١٠٣٥ - ١٠٣٦ م.

(٣) ١٠٢٧ م.

إسماعيل : شخصيته وميزاته :

في الواقع نفتقر، نحن اليوم، إلى الكثير من المعلومات والأخبار التي تساعدنا في رسم صورة واضحة لشخصية إسماعيل بن ذي النون وعقليته وصفاته. ذلك إن أكثر المؤرخين الأندلسيين الذين عاصروه منهم، كما الذين أتوا بعده، أهملوا الكثير مما يتعلق بهذا الرجل أو بعائلته سواء في مرحلة مُلك بني ذي النون أو في المرحلة السابقة لذلك. ويبدو إن سبب ذلك ليس لكون إسماعيل الظافر وابنه المأمون إفتقرا إلى الخصائص الإنسانية العالية والكفاءات المميزة وإنما لكون المؤلفات التاريخية التي وضعت في عصر ملوك الطوائف قد صنفت في قصور ملوك آخرين أو كتبت لحسابهم فكان لا بد، مسايرة لهؤلاء، من تجاهل ملوك طليطلة ومنجزاتهم. ومن أرخوا لبني ذي النون من المنصفين، ركزوا أنظارهم وجهودهم في ما قام به ثالث ملوك طليطلة من هذه العائلة، القادر من حماقات وأخطاء انتهت بعودة المدينة إلى حظيرة إسبانيا النصرانية إلى الأبد مما ذهب بنظر هؤلاء بكل حسنات الظافر والمأمون

ومما وصلنا، على قلته، من أخبار وروايات عن أعمال الظافر يبدو لنا رجلاً قوياً، نشيطاً كثير المبادرات في مجال الحرب والقتال كما في ميدان السياسة والديبلوماسية وما كان يرافقهما في زمنه من دسائس ومكائد. ففي زمن شديد الإضطراب، كثير المتغيرات ووافر الأحداث، وفي مدينة على استعداد دائم للثورة والعصيان، وأهلها تجري في دمائهم روح الثورة وعدم الخضوع للسلطات، توصل إسماعيل بن ذي النون في وقت قصير إلى تأسيس مملكة لنفسه وإلى تأكيد نفوذها وسلطانها على هذه المدينة كما في سائر المناطق المحيطة بها بحيث بات هو هناك السيد المطلق. وبحكمة ومرونة لا حدود لهما نجح في تكوين وحدة الطليطليين حول عرشه على شدة اختلافهم حول الولاء لعائلة بني ذي النون قبل المجيء إليهم.

كان يمتلك ثقافة واسعة ورفيعة جعلته على مستوى عصره المزدهر. كان يعرف العربية ويمتلك ناصية البلاغة فيها رغم أصله البربري. كان شديد الإلمام بتاريخ العرب، وافر العلم بأيام قبائلهم وأخبار أوائلهم، يحفظ الوافر من أشعار قدمائهم سواء من عاصروا الجاهلية أو الذين عايشوا ظهور الإسلام. وكان هو نفسه محباً للشعر ينظم الجيد منه من آن لآخر، كما عمل على تطور الحركة الأدبية في مملكته. قصد بلاطه شعراء كثيرون ينشدون قصائدهم في حضرته وينعمون بالوافر من منحه وعطاياه. وضع هو نفسه كتاباً شبيهاً بزهر الأدب للحصري إنما لم يصلنا للأسف شيء منه ولا بلغنا تعليق أو نقد لما فيه[1].

بعض المؤرخين ممن عرفوا بكرهه والعداء لملكه ينسبون إليه رذيلة البخل. إنما يبدو أن هذه التهمة كانت بعيدة عن حقيقته وواقعه. كان شديد الاهتمام بأمور دولته المالية يرقب بحذر مسؤول ما يدخل إلى بيت المال وما يخرج منه. كان يصرف بوعي واعتدال، وهو ما رأى فيه بعض معاصريه ممن ألفوا إسراف أمراء بني أمية وبذخ بعض ملوك الطوائف الآخرين، مظهراً من مظاهر البخل. هذه السياسة المالية المعتدلة، أن لم نقل المتقشفة أدت إلى تكوين ثروة مالية للدولة كانت بمثابة احتياط للمستقبل وللطوارىء وجعلت الخزينة تعمر دائماً بالمال، إنما في كل الحالات دون الإساءة إلى المواطنين ودون إرهاقهم بالضرائب.

في الواقع بدا لي إسماعيل، مما وصل إلينا من أخباره بمثابة رجل عظيم استحق المكانة التي وصل إليها. وابن حيان نفسه، المعروف بوافر كرهه لبني ذي النون عموماً اعترف لإسماعيل هذا بعظمته وتواضعه وتفانيه في الدفاع عن حدود وأراضي دولة الإسلام في الأندلس[2].

---

(١) Dunlop., P. 85.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.



الفصل الثاني

قضية الخلافة

سقوط الخلافة الأموية النهائي في سنة ١٠٣١ م لم يذهب بما كان في قلوب المسلمين في إسبانيا الإسلامية من حب وولاء للبيت الأموي. ذلك إنه ما كان سهلاً إقناعهم بنسيان الوحدة الوطنية المفقودة ولا بالتخلي عن ذكريات أيام الخليفة الناصر بما كان فيها من أمجاد وبريق باهر. ولم يكن سهلاً على الإطلاق جعل الأندلسيين ينزعون من مخيلتهم صورة انتصارات المنصور العظيمة والتي حملت علم الإسلام حتى مدينة شنت ياقوب في أقصى شمال إسبانيا النصرانية. وكانت الأرستوقراطية الأندلسية تذكي هذه الروح في نفوس الجماهير وتعمل على إبقاء هذه الشعلة حية فاعلة لتحقيق مكاسب ذاتية لنفسها أو للحصول على دعم مستمر من هذه الجماهير توظفه لتحقيق مكاسب سياسية آنية. وعلى هذا قامت أكثر من حركة ومحاولة لبعث الخلافة على أيام ملوك الطوائف فشلت كلها.

وكان على إسماعيل بن ذي النون أن يتواجه في أيام ملكه مع ثلاث من هذه المحاولات جاءت لتزرع الفوضى في عاصمته كما في سائر ممتلكاته

وأيضاً لتعرض للخطر كيان مملكته وسلامة عرشه. ويمكن التأكيد بأن هذه المشكلة قد شغلته طيلة فترة حكمه.

أ ـ بعد انهيار الخلافة الأموية وتمزق وحدة دولة الإسلام في إسبانيا صارت حكومة قرطبة للوزير القوي ابن جهور الذي ساهم بدسائسه ومؤامراته في دفع الخلافة الأموية بسرعة أكبر نحو نهايتها. إنما ومنذ أيامه الأولى في الحكم شعر بأن إزالة رسوم الخلافة من قرطبة ما كان إلا ظاهرياً ومصطنعاً لأن هذه المؤسسة استمرت في ضمائر القرطبيين كما في ضمائر سائر الأندلسيين حية فاعلة يحتفظون لها بكل الحب وبكل الاحترام. ذلك أن الخلافة وإن لم تكن ذات جذور قوية وأساسية في صلب العقيدة الإسلامية وفي تشريعاتها إلا أنها كانت شديدة الارتباط بتاريخ المسلمين في العصور الوسطى كما في تقاليدهم وممارساتهم السياسية. وانطلاقاً من رغبات الجماهير هذه، وإدراكاً منه لأهمية المؤسسة في ضمائر الأندلسيين وأيضاً لقطع الطريق على دعاوى الحموديين[1] الحاكمين في الجنوب الأندلسي بالخلافة التي كانوا يملكون فعلاً باسمها سعى لجعل سائر ملوك الطوائف يعترفون به خليفة على كل أراضي إسبانيا الإسلامية. وبهذا الهدف وجه رسالة إلى كل واحد منهم يدعوه للمثول أمامه وتقديم الولاء والخضوع له[2].

اختلف رد ملوك الطوائف على هذه الدعوى باختلاف وضع كل واحد منهم على الصعيدين السياسي والعسكري. إلا أن المنحى العام في ردود هؤلاء كان سلبي الطابع. وإسماعيل بن ذي النون، معتمداً بصورة خاصة

(١) عائلة عربية عريقة تعود في أصولها إلى الحسن بن علي، حلت منذ بداية الفتوح في المغرب وتعايشت طويلاً مع البربر فغلب عليها طابعهم. ومن هنا كان الحموديون في القرن الحادي عشر يغلب عليهم الطابع البربري خاصة أن اعتمادهم في مجال السياسة والحرب كان دائماً على البربر والسودانية.

(٢) Conde., P. 155.

على عداء طليطلة التاريخي لتسلط وهيمنة قرطبة على شؤون الأندلس، كان أصرح الجميع في المجاهرة العلنية برفض دعوى ابن جهور. وقد نصحه في رده على رسالته بأن يكتفي بحكم تلك الرقعة الصغيرة التي يحكمها في قرطبة وأحوازها طالما كان جيرانه الضعفاء يسمحون له بذلك أما هو، ابن ذي النون، فلن يعترف بسيد فوقه في الأندلس كما في خارجها غير سيد الأرض والسماء[1]. بهذا الجواب القاطع المانع انتهت المشكلة بالنسبة إلى إسماعيل بن ذي النون ولم تكن لها أية ردود فعل جدية في مملكته. يضاف إلى ذلك أنه بعد توالي الأجوبة السلبية على ابن جهور، ولما حدث بعد ذلك من مستجدات كثيرة وهامة في الأندلس، فإن هذا ليس فقط تراجع عن دعواه وتناسى مشروعه وإنما اضطر هو نفسه إلى الاعتراف بمدع للخلافة نصبه ابن عباد في إشبيلية، على أنه «هشام الثاني» الخليفة الأموي الذي عرف باسم المؤيد بالله.

ب ـ في الوقت الذي كانت فيه سلطة يحيى الحمودي في قمة قوتها، والذي كان فيه هذا الأمير الحمودي حامل لقب الخليفة يهدد بجيوشه القوية مملكتي قرطبة وإشبيلية، ظهر في مدينة قلعة رباح من أملاك ابن ذي النون من أعلن نفسه خليفة مدعياً بأنه «هشام الثاني المؤيد بالله». اعتمد هذا الرجل في دعواه على شبه كبير في الخلقة بينه وبين الخليفة الأموي طالما سمع الناس من حوله يذكرونه ويتحدثون عنه. ثم إن خلفاً الأنصاري، وهو الأسم الحقيقي لهذا الرجل كان يعتمد على شدة تعلق الأندلسيين بالعائلة الأموية وهذا ما جعله يستغل مناسبة ظهور إشاعات كثيرة عن أن «هشام الثاني» لم يمت زمن الفتنة وإنه إنما رحل إلى المشرق ثم رجع إلى الأندلس فقدم نفسه إلى أهالي قلعة رباح على أنه الخليفة الأموي وطلب إليهم الاعتراف به

(١) Conde., P. 157.

وتأييد دعواه وحقه[1]. ولما كان هؤلاء يجهلون كل شيء عن أصل الأنصاري هذا وعن عائلته ومكان ولادته، إذ كان أساساً غريباً عن المدينة، فقد تبنوا دعوته بإيمان وبراءة إن لم نقل بسذاجة وأعلنوا تمردهم على سيدهم ملك طليطلة ورفعوا راية العصيان على سلطات ابن ذي النون. ومع أن الدعوة انطلقت أساساً ضعيفة، قليلة الخطر فإن ابن ذي النون ما تجاهل الخطر الذي قد تشكله على ملكه ولا استخف بمزاعم خلف الأنصاري ولا حاول التعامل مع صاحبها بهدوء وتساهل.

خرج إسماعيل بن ذي النون بسرعة وبجيش كبير باتجاه قلعة رباح فألقى عليها حصاراً شديداً ودخلها بعد مقاومة محدودة القوة لم تدم كثيراً[2]. بعد دخول المدينة بادر إلى طرد الأنصاري صاحب الدعوى بالخلافة من أراضيه دون أن يسيء إليه لكي لا يجرح مشاعر السكان الذين أدرك عمق تمسكهم برسوم الخلافة كما ببني أمية عموماً. وبقي في قلعة رباح بعض الوقت أعاد خلاله ضبط أمورها كما تلقى مجدداً ولاء أهلها لملكه. إلا أن تطور الأحداث في الأندلس سيعيد، بعد فترة زمنية قصيرة، طرح مشكلة هذا الرجل مجدداً كمطالب قوي بالخلافة ليس في مدينة وإنما على سائر ممالك الطوائف في الأندلس.

ج ـ من المعروف أن ابن عباد سيد إشبيلية كان في بداية ملكه يعترف مضطراً بخلافة يحيى الحمودي، المالك في جنوب الأندلس، مع إصراره على أن لا يترك لهذا الاعتراف أي تأثير جدي على مجرى الحياة السياسية في بلده. إلا أنه مع الوقت تمكن هذا الحمودي معتمداً على صلة وثيقة وقديمة لعائلته بسائر قبائل البربر وصلت إلى حد جعل الكثيرين ينظرون إليه على أنه

(١) Historia de los Musulmanes de Espana Dozy T II., P. 204.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير (Abbadidum) صفحة ٣٤.

بربري ، من أن يوحد في ظل حكمه بعض دويلات البربر في الجنوب . وفوق ذلك نجح في أن يفرض ريادته على باقي السادة البربر كما أجبر هؤلاء على الاعتراف به خليفة للأندلس . اتخذ بعد ذلك مقاماً له مدينة قرمونة القريبة من قرطبة وإشبيلية مما جعل سادة المدينتين وبصورة خاصة الملك العبادي يستشعرون خطر الخلافة الحمودية وجدية أطماع سيدها أكثر من أي وقت سابق . ولما كان ابن عباد شديد الحرص على سلطانه وغير راغب في جعل اعترافه بالخليفة الحمودي ذا أثر عملي فقد وجد أن أفضل وسيلة لمواجهة هذا الخطر هي في قيام حلف سياسي يجمع سائر الملوك والأمراء الأندلسيين من عرب وصقالبة. ذلك إن أحداً من هؤلاء ما كان يقبل الاعتراف بدخيل على الأندلس اتاها من بلاد البربر وفي حمايتهم سيداً وخليفة على إسبانيا الإسلامية . وفي وقت كان القاضي ابن عباد يسعى لجمع هؤلاء حول فكرته عرف بظهور الأنصاري الذي إدعى في قلعة رباح أنه «هشام الثاني» المؤيد بالله . انقض ابن عباد بسرعة فائقة على هذه الفرصة وقرر استدعاء الرجل لتنصيبه فعلاً خليفة في إشبيلية . وقد اعتقد إنه بذلك يستطيع بسهولة أن يجمع حول هذا «الخليفة الأموي» كل المعارضين لسلطان الأفارقة البربر مما يساعد في وضع حد لأخطار دعوى الحموديين.

أرسل ابن عباد بعثة هامة حملت دعوة منه إلى مدعي الخلافة للحضور إلى إشبيلية للتأكد من كونه حقاً «هشام الثاني» المؤيد بالله . وبوصوله إلى بلاط إشبيلية استقبل بكل مظاهر الاحترام والتكريم اللائقة بخليفة أموي ثم قدم لخدم الخليفة السابق ولكبير مواليه فأقروا جميعاً بأن الرجل هو حقاً الخليفة الأموي «هشام الثاني» سيدهم وخليفتهم وولي نعمتهم[1] . بادر بعدها ابن عباد وكبار موظفي دولته وسائر وجهاء ومقدمي

---

(١) الذخيرة ، (المخطوط صفحة ٨) جزء ٢ .

إشبيلية لتقديم فروض الخضوع والولاء لشخصه جاعلين منه خليفة على سائر مسلمي شبه الجزيرة الإسبانية. وقد تمت تسمية ابن القاضي العبادي ليكون حاجباً ومستشاراً شخصياً للخليفة الجديد.

عاد ابن عباد بعد ذلك لمتابعة مشروعه الأساسي القاضي بجمع السادة العرب والصقالبة[1] في حلف واحد فوجه الدعوة إلى هؤلاء لتقديم فروض الطاعة لخليفة إشبيلية. وكانت إجابات ملوك الطوائف هذه المرة تتسم في أغلبيتها بالإيجابية، إما لضرورات مواجهة الخطر البربري أو مسايرة لمشاعر الأندلسيين التي كانت ما تزال على قوتها في حبها للأمويين وتمسكها بقضيتهم. وهكذا عاد اسم الخليفة هشام الثاني المؤيد ليذكر في صلاة الجمعة من على منابر عديدة في بلاد الأندلس كتعبير عن ولاء المسلمين لشخصه.

ولما كان إسماعيل بن ذي النون، سيد طليطلة، شديد الحساسية تجاه دعاوى ابن عباد، كثير الشكوك في كل ما يصدر عن بلاطه في إشبيلية من ممارسات، فإنه ما أظهر كبير اهتمام بالدعوة الموجهة إليه واستمر متمسكاً بموقف سلبي من القضية بكاملها لأسباب عديدة:

- لم يظهر الطليطليون عموماً أي ميل أو رغبة بالاعتراف بخليفة إشبيلية وبالتالي فإن ابن ذي النون لم يشعر بأي حرج تجاه رعاياه في رفض دعوة ابن عباد. فالطليطليون كانوا دوماً يعادون أية سلطة فوقية، خاصة إذا كانت

(١) أطلق الأندلسيون اسم الصقالبة على العبيد الأرقاء الذين كان يأتي بهم تجار الرقيق من بلدان وسط أوروبا. وكان الإقبال على اقتناء هؤلاء في الأندلس كبيراً، خاصة زمن الخلافة. ومع الوقت، ولكون العادة جرت بأن يطلق الأمير أو الخليفة وأيضاً كبار الناس وأثرياؤهم حرية صقالبتهم قبل الوفاة تقرباً من الله، صار هؤلاء طبقة ممتازة وغنية في مدن الأندلس الكبيرة. وقد تكاثر هؤلاء في شرقي الأندلس وأقاموا لأنفسهم عدة دويلات في عصر الطوائف.

متمركزة خارج طليطلة ، وهم طالما أظهروا ومنذ أيام الفتح الإسلامي الأولى رغبة شديدة في الاستقلال بشؤونهم ولومن ضمن دولة الإسلام . وهم ، وبعد أن صارت لهم تلك السلطة باتوا أشد حرصاً على التمسك بها وأكثر ميلاً إليها من الاعتراف بخليفة إشبيلية . وعلى هذا فإن إسماعيل الظافر ما واجه من أتباعه تلك الضغوط التي تعرض لها ابن جهور سيد قرطبة من رعاياه والتي جعلته يعترف بخلافة إشبيلية ولو بشكل ظاهري ومخادع .

ـ كل ملوك الطوائف الذين أعلنوا اعترافهم بالرجل الذي ادعى خلافة إشبيلية إنما فعلوا ذلك للمساهمة في تكوين ذلك الحلف العربي ـ الصقلبي لمواجهة نفوذ البربر المتنامي أو إنهم قاموا بذلك خوفاً من سطوة ابن عباد . اما إسماعيل فما كان يخشى صاحب إشبيلية ولا كان يشعر بخطر البربر لأنه كان واثقاً من دولته ومن قدرته على حماية حدوده من أي خطر يتهددها ومن أية جهة أتى . يضاف إلى ذلك أنه كان يفضل دوماً ممارسة الحياد أو عدم التدخل في الصراعات العربية ـ البربرية عموماً . ولا بد من الإشارة هنا أن إسماعيل الذي كانت له ، هو أيضاً ، مشاريعه التوسعية كان يضمر كرهاً كبيراً للقاضي ابن عباد صاحب إشبيلية ويرى فيه الخصم الوحيد القادر على عرقلة هذه المشاريع . ومن هنا ما استساغ أن يقدم خضوعاً ولو ظاهرياً لخليفة اخترعه وما كان أكثر من دمية بين يديه .

ـ إسماعيل الظافر كان يعرف تمام المعرفة بطلان دعوى ابن عباد لأنه كان يدرك أن الرجل الذي نصبه على سدة خلافة إشبيلية تحت اسم «هشام الثاني» ليس هو غير خلف الأنصاري الذي اختبر دعواه والذي طرده من مدينة قلعة رباح . بل أكثر من ذلك كان يعتبر أن كل الذين أدعوا الخلافة في ذلك الزمن في الأندلس ، وما كانوا قلة ، إنما فعلوا ذلك دون وجه حق ودون أن يكون لواحد منهم حق شرعي في الخلافة[1] . وهو في رفضه الاعتراف

(١) نهاية الأرب ، صفحة ٩٣ .

بخلافة هشام الثاني إنما كان يرتكز إلى دعائم قوية وشهادات صادقة وموثوقة من أمويين أقرباء لهشام المؤيد الحقيقي ومن خدم وموالى مخلصين لقضية بني أمية. ثم إن العالم الكبير ابن حزم، المعروف بتقواه وكبير تعلقه بوحدة مسلمي الأندلس، كان يصرح علناً في قرطبة ببطلان دعوى خليفة إشبيلية وأنصاره[1]. كان معروفاً وشائعاً في كل الأندلس أن حكاية هشام المزعوم إنما قامت على إشاعات وأقوال نقلت وانتشرت على لسان جواري وخصيان القصر الخلافي في قرطبة والذين كانوا بذلك يحلمون باستعادة أمجاد وامتيازات ذهبت بذهاب سيدهم الكبير. وقد أوجز لنا دوزي هذه الأقوال والإشاعات قائلاً: «مما لا شك فيه، أن الشعب الذي طالما كان شديد التعلق بالعائلة الأموية التي أعطته الازدهار والامجاد، كان يقاوم التسليم بفكرة موت هذا الملك ولهذا تقبل كل الإشاعات التي سرت حوله على غرابتها. كان هناك من بالغوا في إعطاء المعلومات عن إقامته في آسيا. قالوا أولاً إنه ذهب إلى مكة، ومعه صرة مملؤة بالمال والأحجار الكريمة إلا أنها فقدت منه وبقي عدة أيام دون طعام إلى أن عطف عليه خزاف وسأله إن كان يحسن جبل الطين. أجاب هشام، دون اهتمام، بالإيجاب. أجابه حينذاك الخزاف حسناً. إذا عملت في خدمتي أعطيك كل يوم درهماً ورغيفاً. قبل هشام العرض شاكراً وطلب إعطاءه رغيفاً في الحال ليسد جوعه باعتبار أنه كان قد أمضى عدة أيام دون طعام. ومع أنه كان كسولاً في عمله إلا أنه استمر عند هذا الخزاف بعض الوقت يكسب عيشه بواسطته. وفي النهاية ضجر من وضعه فالتحق بقافلة متوجهة إلى فلسطين فاراً من سيده. وصل بيت المقدس في حالة بائسة. وبينا يتجول في أحد الأيام في أسواقها توقف أمام حانوت يعمل فيه خزاف. سأله هذا إن كان يحسن هذه الصنعة. أجاب هشام بالنفي متأسفاً، لجهله بهذه المهنة، على اعتبار أنه لا يملك شيئاً من أسباب الحياة.

---

(١) الذخيرة، جزء ٢، صفحة ٨ (المخطوط).

عند ذلك عرض عليه الخزاف أن يبقى إلى جانبه يساعده فيعطيه ثمن خدماته. قبل هشام هذا العرض بفرح وحبور وصار يتعلم شيئاً فشيئاً أسرار هذه المهنة. مرت عدة سنوات وهو على هذه الحال إلى أن قرر العودة في سنة ١٠٣٣ م إلى إسبانيا. نزل أول أمره في مالقة حيث تعرف إليه بعضهم فتركها إلى المرية التي وصلها في سنة ١٠٣٥ م. إلا أن سيد هذه المدينة «زهير» ما لبث أن طرده منها فاتخذ له من مدينة قلعة رباح مقراً».

هذه الإشاعات كلها ما كانت لها أية قيمة أو مصداقية في نظر إسماعيل بن ذي النون وأيضاً في نظر سائر المسلمين المحايدين والمنصفين. إضافة إلى هذا كانت لملك طليطلة نظرية خاصة به حول مسألة الخلافة. لقد أسر ذات يوم لأحد أصدقائه قائلاً «والله لو نازعني سلطاني هذا، الصديق، لقاتلته ولما سلمت له، فكيف أسلم سلطاني لمن يدعى إليه من بني أمية»[٢].

وفي الختام يمكننا إيجاز مسألة الخلافة بالنسبة لإسماعيل بن ذي النون، ملك طليطلة، بأن هذا كان على قناعة تامة بأن الجالس على سدة الخلافة في إشبيلية كان منتحلاً لصفته دون حق. وبالتالي فإنه كان يصر على موقفه السلبي من دعوات ابن عباد قاضي إشبيلية وأنه يتمسك بإصرار وحزم بسلطانه وملكه. وقد استمر على موقفه الرافض هذا من دعاوى سلطات إشبيلية حتى نهاية حياته علماً بأن الكثيرين من الملوك والسادة المجاورين له قد اعترفوا ولو شكلياً بخليفة إشبيلية. إلا أن الأوضاع لن تلبث أن تتغير بتطور الزمن وتغير الأحوال مما سيجعل ابنه المأمون بعد عدة سنوات يعترف بما طالما عارضه ورفضه إسماعيل بن ذي النون «الظافر».

---

(١) Dozy.TII., P. 202-203.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.



الفَصْلُ الثَّالِث

سِيَاسَةُ الظَّافِرِ الخَارِجِيَّة

العلاقات مع إسبانيا المسيحية:

في مطلع القرن الحادي عشر كان التفوق العسكري لإسبانيا الإسلامية على إسبانيا النصرانية والذي بلغ قمته مع العامريين المنصور والمظفر قد أفل نجمه وبات فصلاً من فصول مرحلة مرت وانقضت. لقد ذهبت عملياً فعالية دولة الإسلام في الأندلس وغابت قدراتها بضياع وحدة الأمة الأندلسية وسقوط خلافتها وقيام ممالك الطوائف الصغيرة المتقاتلة والمتناحرة مع بعضها البعض. بل في الواقع وحتى قبل قيام ممالك الطوائف أي في زمن الفتنة التي تلت مقتل عبد الرحمن «شنجول» كان الإسبان النصارى قد استعادوا قدراتهم على المبادرة وتدخلوا أكثر من مرة في شؤون المسلمين وحققوا أكثر من مكسب إقليمي على حساب هؤلاء. وقد رأينا في السنة ١٠٠٩م سليمان المستعين في صراعه مع المهدي حول الخلافة في قرطبة لا يتردد في طلب العون والمساعدة من سيد قشتالة الكونت سانشو غرسية ويعده

مقابل ذلك بإعطائه عدداً من القلاع والحصون الهامة على نهر الدويرو[1]. وفي السنة التالية ١٠١٠ م أعطى الخليفة «هشام الثاني» وحاجبه وحليفه «واضح» سانشو غرسية هذا عدداً من المواقع الهامة على مجرى الدويرو مثل: شنت أشتبين ووخشمة وقلونية، وذلك مقابل الكف عن مهاجمة حدود إسبانيا الإسلامية في منطقة الثغر الأوسط[2]. وكان قبل ذلك الحاجب «واضح» نفسه قد استعاد مدينة قرطبة لسيده وحليفه «هشام الثاني» المؤيد بمساعدة كبيرة طلبها وحصل عليها من اثنين من السادة الإسبان في الثغر الإسباني، بوريل الثالث سيد برشلونة وأرمنغول صاحب أورخل. وكان ثمن هذه المساعدة باهظاً للغاية إذ كان على المسلمين أن يدفعوا كل يوم مائة قطعة ذهبية لكل من السيدين الكبيرين ودينارين لكل جندي من جنودهما علاوة على كل ما يلزم المقاتلة من أغذية وعدة وسلاح. ومع استمرار الفتنة في قرطبة وامتداد آثارها إلى سائر أنحاء البلاد صارت قوة المسلمين العسكرية في تراجع متزايد مقابل تقدم مستمر لقوى إسبانيا النصرانية وقدراتها الهجومية.

ومنذ مطلع العام ١٠١٦، حين ما عادت سلطات الخلافة تتجاوز حدود العاصمة الأندلسية، جنح حكام مناطق الثغور إلى اعتبار أنفسهم مستقلين استقلالاً كاملاً وإليهم صارت مهمة الدفاع عن مناطق الحدود مع إسبانيا النصرانية. والواقع إن هؤلاء ومن بينهم الذنونيين قد نجحوا إلى حد كبير، ولمدة من الزمن، في صيانة هذه الحدود والدفاع عن سلامتها، ليس فقط لشجاعتهم وبراعتهم العسكرية وإنما أيضاً لأن جيرانهم الإسبان النصارى مع استعادتهم المستمرة لقدراتهم على الهجوم والمبادرة كانوا ما يزالون أضعف من أن يبادروا إسبانيا الإسلامية بحرب استرداد على نطاق

(١) Levi - Provencal, Historia de Espana, T, II., P. 465.

(٢) Levi - Provencal, Historia de Espana, T, II., P. 471.

واسع . ويبدو أن إسماعيل بن ذي النون قد برع في هذه الفترة في الدفاع عن حدود أراضيه المحيطة بحصن إقليش الذي كان بأمرته .

إلا أنه بدأ من السنة ١٠٣٣ م، ومع سقوط خلافة قرطبة النهائي، تغير الموقف وصار الإسبان النصارى يعتبرون أنفسهم أقدر على مبادرة إسبانيا الإسلامية بهجوم أقوى يحمل معنى الغزو والاجتياح ويبتعد عن صفة الغارة التي لازمت هجمات الإسبان النصارى حتى ذلك الحين. ويذكر ابن الكردبوس[1] ، أن نصارى إسبان - يرجح أنهم أبناء ليون المملكة المجاورة لأراضي طليطلة والتي كان سيدها آنذاك برمودو الثالث أبرز السادة الإسبان - هاجموا أراضي طليطلة بقوة وعلى نطاق واسع . تصدى لهم إسماعيل الظافر وجنوده فدارت بين الفريقين معركة دامية حلت بالمسلمين في نهايتها هزيمة منكرة وقتل منهم خلق كثير. ونحن وإن كنا نجهل المردود السياسي والإقليمي لهذه الهزيمة فمن المؤكد أن النصارى بعدها عادوا إلى أراضيهم، ربما لاعتبارات داخلية أو لأن نصرهم ما كان حاسماً بحيث يقدمون على احتلال أراض للمسلمين، دون إحراز أي مكسب باعتبار أن الحدود بين مملكة ليون وأراضي طليطلة ما حدث فيها أي تغيير. وقد ظلت بعد ذلك ولمدة عامين تقريباً سلامة طليطلة وأراضي إقليمها مهددة بالغزو الإسباني إلى أن جاءت وفاة سانشو سيد نبرة، وتقسيم أراضيه بين أولاده مع ما نتج عن ذلك من صراعات لتذهب ببريق التقدم العسكري لإسبانيا المسيحية ولتضعف من قدراتها القتالية

وعلى هذا كان على إسماعيل بن ذي النون منذ أقام مملكة في طليطلة أن يبقي بلاده في حالة استعداد عسكري دائم لمواجهة المشاريع التوسعية لجيرانه الإسبان النصارى. إلا أن ما ظهر من خلافات بين أبناء سانشو

(١) كتاب الاكتفاء، ابن الكردبوس، (مخطوط مدريد)، صفحة ١٥٤ - ١٥٥ .

صاحب نبرة أعطاه هدنة كان في أمس الحاجة إليها ليتفرغ لأمور مملكته الناشئة وللاهتمام بشؤون رعاياه وأيضاً بتنظيم حكومته وإدارته

وهناك أمر هام لا بد من إيراده هنا وهو أن خلافاته مع سيد ليون ومع بعض جيرانه من السادة النصارى ما حالت بينه وبين إقامة صلات وعلاقات ود وصداقة مع عدة دويلات إسبانية مسيحية أخرى. إلا أن هذه العلاقات ما تركها تتعارض بحال من الأحوال مع التزامه الدائم بالدفاع عن حدود دولة الإسلام في الأندلس وهو الأمر الذي صار تقليداً في عائلته والذي ما قصر فيه واحد من أسلافه. والمؤرخ ابن حيان[1] مع ما طالما جاهر به من عداء لآل ذي النون ولمملكتهم ما استطاع إلا أن يعترف بأن إسماعيل الظافر مع كل ما كان عنده من مساوىء كان من أولئك المسلمين العظام الذين تميزوا بدفاعهم عن عزة دين الإسلام وعن سلامة أراضيه.

العلاقات مع الملوك المسلمين:

لتفهم طبيعة العلاقة بين إسماعيل الظافر وسائر ملوك الطوائف ولإدراك موقف هذا الرجل من الأحداث التي كانت تهم كل إسبانيا الإسلامية لا بد من إلقاء نظرة سريعة على التركيبة السياسية السائدة في ذلك العصر. منذ سقطت خلافة قرطبة، تمزقت وحدة الأندلس السياسية وظهرت في هذه البلاد دويلات عديدة يمكن ذكرها تحت مجموعات عنصرية ثلاث:

١ ـ دول الطوائف البربرية المنتشرة في جنوب الأندلس وأبرزها في غرناطة، قرمونة، مورون وشريش. وأيضاً أقام بنو ذي النون مملكة لهم في طليطلة وأحوازها وبنو الأفطس واحدة لهم في بطليوس.

٢ ـ دول الطوائف الصقلبية وتتركز في مناطق شرق الأندلس في مدن:

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.

المرية، دانية، طرطوشة، بلنسية، وجزر الباليار.

٣ ـ دول الطوائف العربية في إشبيلية، والبونت، وسرغوسة، وقرطبة. وندرج اسم مملكة الحموديين في عداد هذه المجموعة نظراً للأصول العربية لهذه العائلة ولو أن كل ما كان يحيط بها آنذاك يجعلها في عداد البربر. ومع إن هذا التقسيم كان حقيقياً وواقعاً، إلا أن ملوك الطوائف، كسائر الأندلسيين، ما نسوا أيام الخلافة الزاهية وحين كانت وحدها رمز وحدة الأندلسيين. ومن هنا سعى كل واحد من الملوك الأقوياء لإعادة بناء الوحدة المفقودة، إنما تحت زعامته وفي ظل عرشه هو شخصياً. وعلى هذا ظلت ولفترة طويلة فكرة بعث وحدة الدولة الأندلسية محور العلاقات بين دول الطوائف. يضاف إلى ذلك إن العلاقات العربية ـ البربرية كانت هي أيضاً نقطة هامة وأساسية في هذه العلاقات. وانطلاقاً من هاتين المشكلتين كان على إسماعيل بن ذي النون أن يتواجه مع عدة ممالك وبصورة خاصة مع دولتي إشبيلية وقرطبة في أول أيامه ثم بعد ذلك مع مملكة سرغوسة.

فمنذ أن قامت دولة بني جهور في قرطبة، بعد سقوط الخلافة الأموية، كانت مسألة الخلافة في أساس علاقتها بدولة بني ذي النون في طليطلة. لقد رفض إسماعيل بن ذي النون «الظافر» دوماً قبول دعاوى ابن جهور في الهيمنة ورغبته في رفع سلطان قرطبة فوق سلطان الحواضر الأخرى ومنها طليطلة. وحين حاول ابن جهور أن يخضع لنفوذه ابن رزين صاحب السهلة صديق وحليف إسماعيل بأن أرسل له جيشاً من الفرسان لاجتياح أراضيه بادر هذا الأخير ملبياً دعوة صديقه لمساعدته على الإحتفاظ باستقلال وسلامة أراضيه. ذلك إن إسماعيل بن ذي النون، الذي كان يخشى سياسة ابن جهور التوسعية لم يكتف بحماية حليفه وإنما لاحق جيوش قرطبة بعد أن هزمها حتى كاد يهدد العاصمة نفسها[1]. إلا أن قرطبة، بعد أن فرض عليها

(١) تاريخ المرابطين والموحدين في الأندلس، صفحة ٤٥.

ابن عباد هيمنته وأجبرها على الاعتراف بخليفة إشبيلية في سنة ١٠٣٧، باتت تعتبر من الدويلات الثانوية بين ممالك الطوائف ومالت سياستها العسكرية لأن تأخذ الطابع الدفاعي بالدرجة الأولى مما لم يعد يخيف سيد طليطلة.

أما سياسة إسماعيل بن ذي النون حيال مملكة إشبيلية فكانت تقوم على اعتبار ابن عباد وسيد هذه الدولة بمثابة الخطر الأساسي الذي يتهدده. ليس هذا فقط وإنما اعتبر دوماً هذه المملكة وسادتها العباديين وخليفتها المزعوم العائق الأساسي والأقوى دون تحقيق طموحاته في التوسع باعتبار أنه هو أيضاً كان يضمر نوايا توسعية حيال جيرانه. وانطلاقاً من كل ذلك وضع نفسه منذ البداية في مواجهة خلافة إشبيلية وسعى كلما وجد ذلك ممكناً لمجابهة سياستها ومعارضة مشاريعها.

إلا أنه في كل ذلك بقي ولوقت طويل يعبر عن مواقفه سياسياً عازفاً عن استعمال قواته العسكرية التي فضل إبقاءها قريباً من حدوده مع إسبانيا النصرانية لمواجهة تعديات ملوكها المتزايدة عدداً وحدة.

أما بالنسبة للصراعات العربية ـ البربرية فقد اختار أن يبقى على الحياد فهو ما شارك أبداً في الصراعات والمعارك التي طالما تواجه فيها العرب بزعامة حكام إشبيلية مع البربر بقيادة الحموديين. وقد حافظ الملك الذنوني على حياده هذا بقوة ودقة حتى أنه تمنع عن استغلال محنة خصمه الأساسي ابن عباد حين أنزل به تجمع قوى البربر في غرناطة ومالقة وقرمونة هزيمة كبيرة. ويمكن تفسير هذا الحياد المطلق بكون إسماعيل الظافر، مع أصله البربري، ما كان راضياً عن سياسة الحموديين التوسعية ولا كان يستسيغ كثيراً نهج مملكة غرناطة القوية. ثم إن آل ذي النون عموماً كانوا آنذاك، وبسبب استطالة إقامتهم في الأندلس قد فقدوا الكثير من حرارة دمهم الإفريقي وافتقروا إلى نزعة التعصب للعنصر البربري. وفي القرن الحادي

عشر كان إسماعيل بن ذي النون يظهر كأندلسي أكثر منه إفريقي وعلى هذا ظل طوال مدة حكمه، مع حذره الشديد من سياسة ابن عباد التوسعية، لا يرضى بصورة من الصور عن التحالفات بين الممالك البربرية.

وكانت علاقاته مع جيرانه بني الأفطس سادة بطليوس تتسم عموماً بالحرارة إذ ما كان هؤلاء يحملون وداً كبيراً لخصمه سيد إشبيلية ولا كانت لهم مطامع توسعية تتعارض مع مشاريعه وأطماعه في وسط الأندلس.

إلا أن سياسة العداء التي طالما مارسها تجاه حكام إشبيلية وقرطبة من العرب وسياسة الحياد التي تمسك بها دوماً حيال الصراع البربري العربي فرضت عليه عزلة شديدة بين ممالك الأندلس وما أبقت له في الواقع في كل إسبانيا الإسلامية غير حليفين ما كان تحالفه معهما يزيده قوة أو يعطيه حصانة.

أ ـ التجيبيون: كان يحكم آنذاك في مدينة سرغوسة منذر بن يحيى التجيبي بن اخت إسماعيل بن ذي النون. ولما كان هذا آنذاك ما يزال صغير السن فقد كان يستمد قوته من مكانة خاله الذي كانت كل القوى المحيطة بسرغوسة تخشى بأسه وبالتالي تعف عن العدوان على أراضي الملك الصغير. يضاف إلى ذلك إن ملك سرغوسة درج على خطة أبيه في إقامة العلاقات الحسنة مع جيرانه من الإسبان النصارى مما أشاع السلام والأمن في ممتلكاته المحاذية لأراضيهم. وبالنسبة لإشبيلية فقد درج على نهج خاله برفض الاعتراف بسلطان خليفتها[1]. لقد رفض الاعتراف بسلطان هذا، ليس فقط مجاراة لخاله إسماعيل بن ذي النون وإنما أيضاً لأنه هو، على صغر سنه وقلة خبرته كانت له أهداف وسياسات توسعية تجعله في الخط المعادي لابن عباد.

---

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ١٧٨.

ونظراً لصغر سن الأمير التجيبي، منذر بن يحيى، فقد كان موضع حسد أبناء عمومته ومحل تآمرهم ومحور مكائدهم. وقد عمل في سنة ١٠٣٩ واحد منهم، عبدالله بن حكيم أحد قادة أبيه العسكريين، على التآمر عليه لقتله والتخلص منه. وفعلاً في اليوم العاشر من تشرين الأول دخل القصر الملكي وقتل الملك الصغير بيديه. وليضفي على جريمته مسحة من الشرعية ادعى بأنه إنما فعل ذلك لكون منذر بن يحيى قد رفض تقديم فروض الطاعة والولاء لخليفة إشبيلية. إلا أن أهل سرغوسة، الذين كانت تشدهم إلى البيت التجيبي وإلى سيده القتيل رابطة حب وولاء رفضوا قبول مزاعم القائد المغامر فأعلنوا العصيان عليه وهاجموا القصر الملكي وأعملوا فيه السلب والتخريب. وعندما تطورت هذه الحركة إلى ثورة شاملة هرب عبدالله بن حكيم إلى بلدة روضة القريبة، تاركاً سرغوسة في ظل الاضطراب والفراغ الأمني. والأسوأ من ذلك أنه ما بقي أحد من إخوة الملك القتيل على قيد الحياة لخلافته في حكم المدينة باعتبار أنهم قتلوا معه. هذا الحادث أعطى أحد زعماء بني هود فرصة مناسبة سمحت له بدخول المدينة وإعادة الأمن فيها وأيضاً الاستيلاء على عرشها.

عندما سمع إسماعيل بن ذي النون بمؤآمرة ابن حكيم ومقتل ابن أخته الأمير التجيبي، غضب غضباً شديداً واعتبر الجريمة بمثابة اعتداء على هيبته ومكانته فقرر مهاجمة سرغوسة، على وفرة مشاغله آنذاك لمعاقبة المغامر المتآمر. وعند وصوله إلى أسوار سرغوسة ومعه جيش كبير كان سليمان بن هود قد إستولى على عرشها وأعاد إليها الأمن والسلام. عند ذلك ما اعتبر ابن ذي النون الظرف موآتياً للدخول في نزاع مسلح مع سيد بني هود القوي فقرر العودة إلى عاصمته. ولم يمض وقت طويل حتى كان قد ثأر من ابن حكيم لمقتل ابن أخته. إلا أنه في كل الأحوال فقد نتيجة لأحداث سرغوسة بمقتل الأمير التجيبي حليفاً قوياً وطبيعياً في وقت كان فيه جميع الملوك

المجاورين له قد اعترفوا بسلطان خليفة إشبيلية مما زاد في قساوة عزلته. يضاف إلى ذلك إن هذه الأحداث قد أضعفت من نفوذه عموماً في مناطق الثغور باعتبار أن الجميع كانوا يعرفون أن أمير سرغوسة القتيل كان يستظل بحماية خاله.

ب - بنو رزين: بعد مقتل المنذر التجيبي واستيلاء سليمان بن هود على مملكة سرغوسة لم يبق في إسبانيا الإسلامية من حليف لابن ذي النون غير صاحب السهلة ابن رزين. إلا أن هذا ما كان في الواقع حليفاً يعتمد عليه بقدر ما كان مولىً وتابعاً بحاجة لمظلة ابن ذي النون العسكرية يستمد منها أسباب المنعة والحماية. يضاف إلى ذلك إنه لضيق رقعة أراضيه، وفقر مملكته وضعف جيشه ما كان يعتبر في عداد مراكز القوى ذات الفعالية في الأندلس. وعلى هذا يمكن التأكيد بأن عزلة ملك طليطلة إسماعيل الظافر قد باتت منذ سنة ١٠٣٩ كاملة وسط دول الطوائف.

وفي النهاية يمكن تلخيص سياسة إسماعيل الظافر ملك طليطلة على صعيد علاقاته الخارجية بالنقاط الثلاث التالية:

- كان مصراً على التمسك بسياسة عائلة بني ذي النون التقليدية والتي طالما التزمت بها في منطقة الثغر. وكان محور هذه السياسة الالتزام دون حدود بواجب الدفاع عن حدود دولة الإسلام من تحديات ملوك إسبانيا المسيحية.

- مقاومة الاتجاهات والنزعات التوسعية عند جيرانه من ملوك الطوائف.

- العداء لكل محاولة لإعادة بناء وحدة الأمة الأندلسية إذا كانت قاعدتها ستكون خارج طليطلة. وأيضاً رفض الاعتراف بسلطان كل من ادعوا في عصره بأحقيتهم في الخلافة.

الفصل الرابع

بلاط إسماعيل الظافر

ليس من المؤكد أن إسماعيل بن ذي النون «الظافر» قد اتخذ لنفسه بلاطاً ملوكياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة . ذلك إن ملوك الطوائف ، وإسماعيل منهم ، كانوا من الناحية القانونية أقرب إلى السادة الإقطاعيين منهم إلى الملوك بما تتضمنه الكلمة من معايير ومقاييس قانونية ومؤسساتية . لقد عاش هؤلاء كلهم وحكموا أتباعهم وتصرفوا بأراضيهم وفق الأعراف والتقاليد والأنظمة السائدة بين السادة الإقطاعيين في المناطق الأوروبية المسيحية المجاورة لهم . إنما بالرغم من كل هذا فإن إسماعيل بن ذي النون حاول أن يبني دولة وأن يقيم ملكاً وإذا لم يتمكن من أن يفعل ذلك على وجه كامل أو حتى شبه كامل فلأن عقلية العصر كانت على ما يبدو قوية وطاغية ومعاكسة لرغباته .

إلى بلاطه أو بعبارة أصح إلى قصره في طليطلة كان يحضر من آن لآخر عدد كبير من وجهاء المدينة ومقدميها . وكذلك كان يتردد على هذا القصر في مناسبات مختلفة كبار الفقهاء والمحدثين وشخصيات بارزة تمثل مختلف

قطاعات الحياة الاجتماعية[1] والاقتصادية. ،ن بعض هؤلاء كان يجتمع في القصر شبه مجلس يتدارس أعضاؤه بحضور الملك مشاكل البلاد ويتداولون في سياستها إنما في كل الحالات دون أن تكون لقراراتهم وتوجيهاتهم أية صفة إلزامية بالنسبة لسيد القصر والبلد. ولكن يبدو أنه كان في أكثر الحالات يحاول الإلتزام بقرارات هذا المجلس والعمل بموجب توجيهاته. وقد أورد لنا ابن حيان[2] أكثر من رواية تؤكد تواضع الرجل وميله في أكثر الحالات إلى الالتزام بمقررات الجماعة التي كانت تجتمع في قصره.

وقد درج على اختيار أشخاص عرفوا بقدراتهم الكبيرة وكفاءتهم وصدق ولائهم له وللبلد يسند إليهم وظائف الوزارة ويساعدونه في تصريف شؤون مملكته. وقد عرفنا ثلاثة من هؤلاء هم: ابن محقور وابن لبون وابن الفرج[3] كانوا على ما يظهر أبرز من عاونوا «الظافر» وساعدوه. وسنتكلم بالتفصيل عن كل واحد من هؤلاء عند الحديث عن بلاط المأمون بن ذي النون حيث لعبوا الدور الأكبر والأهم.

وقد اختار أحد أبناء طليطلة، محمد بن العطار[4]، اتخذ منه أميناً لسره ومساعداً له في إدارة شؤون القصر والدولة. وكان ابن العطار هذا وافر الثقافة، غزير العلم بارعاً في علوم الرياضيات وأيضاً في علم المواريث. اختاره إسماعيل لهذا المنصب منذ الأيام الأولى لقيام ملكه في طليطلة وظل إلى جانبه، متمتعاً بثقته ورضاه حتى نهاية حياته.

وهو إلى جانب براعته في السياسة وأيضاً في فنون الحرب والقتال كان يظهر ولعاً شديداً بعلوم الفقه والشريعة وبالآداب والشعر وأيضاً بالعلوم

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٢.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٢.

(٣) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٣.

(٤) التكملة، ابن الآبار، جزء ١، صفحة ١٢٨.

البحتة. وإذا نحن استعرضنا ما في كتب التراجم والسير المتعلقة بعصره وجدنا أن عدداً كبيراً من علماء قرطبة الذين هجروها قبل وبعد سقوط الخلافة الأموية قد لجأوا إلى بلاط إسماعيل بن ذي النون في طليطلة. كثرة هؤلاء تحملنا على الاعتقاد بأنه كان يرحب بهم ويقدم لهم وافر الرعاية المادية والمعنوية متفوقاً في هذا المجال على سائر معاصريه من ملوك الطوائف. وقد ذهب في هذا المجال إلى حد تكليف بعض هؤلاء بمناصب ومهمات عليا في الدولة مثل الطبيب المشهور ابن البغونش [١]. وإذا كانت جهوده الكبيرة في مجال رعاية الثقافة والعلوم ما أعطت ازدهاراً كبيراً على أيامه فمن المؤكد أن البلاد قد خطت معه الخطوات الأولى في طريق ذلك الازدهار العظيم الذي عرفته الحركة العلمية في طليطلة على أيام ابنه المأمون.

وفاته:

لا تمدنا المصادر التاريخية الأندلسية بالوافر من الأخبار عن أيام حياته الأخيرة وعن أسباب وظروف وفاته. وهي ليست حتى متفقة على تحديد زمن واحد لتاريخ موته. بعض الباحثين [٢] المهمتين في العصر الحاضر بالدراسات الأندلسية يجعلون وفاة إسماعيل بن ذي النون في سنة ١٠٣٨ م اعتماداً على رواية نقلها إلينا ابن خلدون. إنما يبدو لي من المنطقي والصواب رفض هذا الافتراض واعتبار السنة ١٠٤٣ الموعد الأقرب إلى الواقع لوفاة إسماعيل بن ذي النون وذلك للأسباب التالية:

ـ المؤرخ ابن حيان، الوافر المعرفة بأحداث القرن الحادي عشر والمعروف بدقة أخباره وتحريه المتشدد لرواياته يخبرنا بأن الظافر كان ما

---

(١) طبقات الأمم، صاعد الطليطلي، صفحة ٨١.

(٢) Encyclopedie de L'Islam, T. I., P. 990, Seybold, Dozy, T. II, P. 350.

(٣) العبر، جزء ٤، صفحة ١٦١.

(٤) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٢١.

يزال على قيد الحياة عندما قتل ابن أخته منذر التجيبي سيد سرغوسة في سنة ١٠٣٩ م.

ـ يذكر النويري[١] وابن الأثير[٢] أن وفاة إسماعيل بن ذي النون كانت في السنة ١٠٤٣ م.

ـ لدينا الآن نقود تعود إلى عهد الظافر، نقش عليها اسمه، وتحمل تواريخ تعود إلى السنتين (٤٣٤ هـ) ١٠٤٢ م (٤٣٥ هـ) ١٠٤٣ م. بينما نجد بالمقابل إن أول قطعة نقدية وصلتنا من عهد ابنه المأمون قد ضربت في السنة (٤٣٥ هـ) ١٠٤٣ م.

وهذا كله دليل لا يخيب على أن وفاة إسماعيل بن ذي النون «الظافر» قد حدثت في السنة ١٠٤٣ م.

لقد مات على ما يظهر في قمة عظمته وقوته وترك لابنه المأمون، من بعده، مملكة قوية ومزدهرة كانت تبدو في القرن الحادي عشر للميلاد وسط ممالك الطوائف في الأندلس من الأقوى والأبرز، إن لم تكن فعلاً الأقوى والأكثر بهاءً وسناءً. وإسماعيل كان بحق صاحب هذه المملكة وباني أسسها وصانع شهرتها.

(١) نهاية الأرب، صفحة ١٨٧.

(٢) الكامل في التاريخ، جزء ٩، صفحة ٢٠٣.

(٣) Los Reyes de Taifas, Prieto y Vives., P. 213.

الباب الثالث

- إيبريا عند وصول المأمون إلى عرش طليطلة .
- المأمون بن ذي النون .
- المأمون وملوك الطوائف .
- المأمون والمتغيرات السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الإيبرية .
- غزوات المأمون .
- حرب قرطبة .
- حكومة المأمون .
- الحياة الاقتصادية في طليطلة في ظل المأمون .

الفصل الأول

إيبريا عند وصول المأمون إلى عرش طليطلة

إسبانيا المسيحية :

في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد وعشية سقوط الخلافة الأموية في قرطبة كان الوضع العسكري في شبه الجزيرة الإيبرية في حالة تغير جذري ومتزايد لصالح الإسبان النصارى خاصة بعد أن فقدت إسبانيا الإسلامية وحدتها السياسية. فإسبانيا المسيحية كانت تستعيد وبصورة متزايدة قوتها العسكرية وقدرتها على المبادرة في الصراع ضد الإسلام كدين وكدولة. وفي الوقت الذي كانت فيه خلافة قرطبة تسرع في مسارها نحو نهايتها كان سانشو غرسية الثالث ـ الكبير ـ يحرز الانتصار تلو الانتصار على المسلمين وكانت مملكة نبرة في ظل عرشه قد صارت قاعدة الحياة السياسية في كل إسبانيا المسيحية[1]. لقد فرض سلطانه على كونت غاسقونية وكونت برشلونة عندما أجبرهما على قبول زعامته والسير في ركاب سياسته. وعند وفاة كونت قشتالة

(1) Manual de Historia de Espana, Aguado Bleye T.I., P. 591.

والـد زوجتـه في سنـة ١٠٢٩ حكم باسمهـا ممتلـكات أبيهـا في ألبـة وبسكاية وقشتالة وكذلك وضع يده على أراضي أخرى كثيرة كانت تعتبر من ممتلكات ملك ليون. وعندما أطلت السنة ١٠٣٤ كان سانشو غرسية الثالث قد وضع يده عملياً على كل أراضي مملكة ليون.

وهكذا وفي زمان ملك إسماعيل بن ذي النون كان سانشو الكبير قد نجح، ولأول مرة منذ الغزو الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبرية، في إقامة دولة قوية موحدة وقادرة شمالي نهر الدويـرو ترفع لواء النصرانية. حدث هذا في وقت كانت فيه إسبانيا الإسلامية موزعة السلطة بين مجموعة من الملوك والسادة الإقطاعيين المتناحرين فيما بينهم لا يتفقون إلا على مقاتلة من يتجـرأ علـى التفكير في بعث وحدة الأمة الأندلسية

في أواخر العام ١٠٣٤ ومطلع السنة ١٠٣٥ م كان سانشو غرسية يملك جيشاً قوياً ودولة موحدة قادرة بما فيه الكفاية علـى مباشـرة أولـى حمـلات الاسترداد. والوضع آنذاك في أراضي المسلمين، جنوبي نهر الدويرو، كان شديد الاضطراب وما كانت هناك أية سلطة قادرة عسكرياً على مجابهة هذه الحملات.

إلا أن سانشو غرسية الثالث ما استطاع أن يذهـب بعيداً في حملاتـه لاسترداد أراض من أيدي المسلمـين إما لأنه كان قد تقدم كثيراً في السن أو لأنه كان قد تعب لكثرة ما خاض من حروب. وعلى هذا فإن استفادتـه من تفرق كلمة المسلمين وتمزق وحدة دولتهم كانت محـدودة للغـاية ومكاسبـه الإقليمية كانت عديمة القيمة عملياً. وهو قبل وفاته ارتكب خطيئة كبيرة كان لها أسوأ النتائج على أوضاع إسبانيا المسيحية في القرن الحادي عشر. ذلك إنه ترك نفسه تتأثر بما كان منتشراً في أوروبا العصور الوسطى بتأثير التقاليد الجرمـانية من عادة تقسيم مُلك الملك المتوفـي بين أولاده وكأنـه إرث

شخصي[1]. ثم إنه كان ينظر إلى ملكه نظرة أبوية ورعوية بعيدة جداً عن أن تكون وطنية أو قومية. وانطلاقاً من هذا التقليد وهذه النظرة، وعملاً بإرادته أقدم أولاده بعد وفاته على تقسيم مملكته على الشكل التالي:

ـ آلت أراضي نبرة إلى كبير أولاده غرسية الذي ما لبث، بعد فترة قصيرة من وفاة والده، أن دخل في صراع مكشوف مع إخوته كما مع سائر السادة المجاورين له انتهى بأكثر من معركة دموية.

ـ حصل ثاني أولاده فرناندو على إقليم قشتالة ومعه لقب «الملك». ومنذ أيامه الأولى في الملك تجاوب هذا مع التقليد الذي طالما تميزت به والتزمت بواجباته قشتالة والقاضي بالعمل على صيانة الوحدة الوطنية لإسبانيا المسيحية والدفاع عن وجود النصرانية في شبه الجزيرة الإيبرية. ومعه بدأت فعلاً عملية استرداد الأراضي من أيدي المسلمين في غرب شبه الجزيرة الإيبرية بنجاح وصل حد تهديد سلامة عدة ممالك أندلسية. إلا أن هذه السياسة التوسعية جلبت له عداء برمودو الثالث ملك ليون. غير أنه بعد انتصاره الساحق في معركة وادي تمارون ووفاة برمودو الثالث بادر إلى الاستيلاء على كل أراضي ليون باسم زوجته شقيقة الملك المتوفي. وبذا صار هناك في شمال أراضي طليطلة ومنذ السنة ١٠٣٧ م دولة إسبانية مسيحية كبيرة وقوية نتجت عن اتحاد ليون وقشتالة[2]. هذه المملكة ستتوصل بعد عدة سنوات إلى أن تصبح مصدر خطر يتهدد ملوك الطوائف الغارقين في بحر حساسياتهم وخلافاتهم المستمرة مع بعضهم البعض. بل أكثر من ذلك ستجبر أقواهم أصحاب طليطلة وإشبيلية على قبول تبعيتها.

ـ أما أراضي آراغون فقد كانت من نصيب راميرو الابن غير الشرعي

---

(١) Manual de Historia de Espana, Asian Pena., P. 106.

(٢) Aguado Bleye T. I., P. 594.

للملك سانشو الكبير. وقد جعل هذا أراضيه مركزاً عسكرياً ناشطاً ضد المسلمين ينطلق في تحركاته من مناطق إسبانيا المسيحية الشرقية[1].

أما كونتيتا سوبارب وريبا غورزا[2] فقد شكلتا مملكة واحدة صار عرشها إلى غونزالو الابن الصغير للملك المتوفي.

وهكذا عندما ارتقى المأمون بن ذي النون عرش طليطلة بعد وفاة أبيه في سنة ١٠٤٣ كان عليه أن يتعامل عند حدوده الشمالية مع إسبانيا مسيحية تمزقها الصراعات الداخلية والنزاعات بين ملوكها وسادتها التي ما كانت أقل حدة وشراسة من تلك التي كانت تقسم صفوف ملوك الأندلس. والواقع إن الخطأ الجسيم الذي ارتكبه سانشو الكبير عند وفاته بالإطاحة بوحدة أراضيه التي كلفته الكثير من الجهد والنصب والدماء وتقسيم مملكته بين أولاده أتاحت للمأمون في مطلع ملكه فترة هدوء واستقرار عند حدوده الشمالية كان في أمس الحاجة إليها لتدعيم سلطانه في الداخل في مجالات الإدارة والتنظيم كما في الميدان العسكري. وهذا جعله فيما بعد أقوى وأقدر على صيانة حدوده ومواجهة محاولات فرناندو الأول التوسعية في أراضي طليطلة.

الأندلس:

حوالي السنة ١٠٤٣ م كانت إسبانيا الإسلامية موزعة بين مجموعتين متخاصمتين من دول الطوائف تضعفها وتفقدها قدراتها العسكرية سلسلة لا تنتهي من الحروب الأهلية:

- تجمع دويلات الجنوب التي يهيمن على الحكم فيها البربر الأفارقة

(١) Aguado Bleye T. I., P. 591.

(٢) Sobarbe y. Ribagorza.

وأبرزها وأقواها ممالك غرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء[1]. كان باديس بن حبوس ملك غرناطة يتزعم هذا التجمع. وكان زعماء هذا الفريق يجمعون على القبول بخلافة سيد مالقة الحمودي على إسبانيا الإسلامية ولو من الناحية الشكلية. وكانت تبرز من آن لآخر بين ملوك البربر عداوات وصراعات ونزاعات مسلحة تفرق صفوفهم إلا أنهم سرعان ما كانوا ينسون هذه الخلافات ويتوحدون في مواجهة السادة العرب كلما أظهر هؤلاء خطراً على عنصرهم وعلى مصالحهم.

ـ تجمع ممالك الطوائف العربية والذي يضم كل الملوك الذين كانوا يخافون خطر الهيمنة البربرية الإفريقية ويرون في تحالفهم الطريق الوحيد لمقاومة خطر البربر ونزعاتهم التوسعية. وفي كل الأحوال ما كان هؤلاء جميعاً بنفس الإخلاص والولاء للتحالف المذكور. فكان هناك جناحان داخل هذا التجمع: فريق دويلات الشمال برئاسة ابن هود صاحب سرغوسة وفريق دويلات الوسط بقيادة ابن عباد صاحب إشبيلية[2]. وكان الجميع يعترفون، من الناحية الشكلية فقط بخليفة إشبيلية المزعوم هشام الثاني.

وقد بقي كل من ابن ذي النون في طليطلة ومجاهد في دانية وبني الأفطس في بطليوس خارج هذه التحالفات وبمعزل عن الصراعات العربية البربرية مما كان يعطيهم مرونة أكثر وحرية أوفر في العمل على تأمين مصالحهم بعيداً عن كل ارتباط مسبق. وانطلاقاً من هذا المبدأ بالذات ما سعى هؤلاء ولا حاولوا التكتل فيما بينهم أو إقامة تحالف يضمهم وذلك ليبقى كل من الملوك الثلاثة في الطريق التي يراها هو الأفضل لتحقيق أغراضه.

---

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢١٩.

(٢) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢١٩.



الفَصْلُ الثَّانِي

المأمون بن ذي النون

حياته :

أشرنا فيما سلف إلى أنه ليس بالكثير ولا الكافي ما وصلنا من أخبار وروايات عن حياة إسماعيل الظافر الخاصة وعن حياته العائلية وبالتالي عن أولاده . ابنه يحيى المأمون هو الذي خلفه في سنة ١٠٤٣ على عرش مملكة طليطلة في ظروف بقيت غامضة كما ظل غير واضح بالنسبة لنا موقف باقي أفراد العائلة الذنونية من هذا الحادث الكبير . وحتى موعد تتويج المأمون على وجه دقيق ما يزال يصعب تحديده حتى الآن . إنما يبدو من المؤكد تقريباً أن انتقال المُلك إلى المأمون ما كان سهلاً ولا كان بإجماع أبناء العائلة التي كان فيها أكثر من طامع بخلافة الظافر برز منهم اثنان بصورة خاصة .

فمن الأخبار القليلة التي وصلتنا عن عائلة إسماعيل الظافر عرفنا أن ابنه المأمون ما كان كبير أولاده ولا كان ابنه الوحيد . كان لإسماعيل ولد آخر اسمه عبد الرحمن[1] على اسم جده . والمعروف إنه وفق التقاليد والأعراف

(١) البيان المغرب : جزء ٣ صفحة ٢٨٠ .

القبلية، والعربية بصورة خاصة، كبير الأولاد وحده يحمل اسم الجد. ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن يحي المأمون ما كان بكر أبيه. إضافة إلى ذلك كان بين رجال العائلة أخ لإسماعيل تميز بين أهل طليطلة بعلمه الغزير وأدبه الجم ومكانته الرفيعة. وكان هذا الرجل يدعى أرقم[1]. ومنذ أن اختار إسماعيل ولده يحي المأمون لخلافته لأسباب نجهلها، مقدماً إياه على عمه وأخيه الأكبر، أغضب هذين الأخيرين وجعلهما يضمران وافر العداء وشديد الكره للمرشح للملك. وقد عبرا عن هذا الموقف بعد وفاة الظافر بإظهار مقاومة علنية وشرسة لحكم الملك الجديد. إلا أن المأمون تمكن من تجاوز هذه المقاومة بتأييد قوي ودعم مباشر من وزراء إسماعيل الكبار الثلاثة الذين أوصاهم بالعمل على تنفيذ رغبته وإيصال ابنه إلى العرش. وكان على عبد الرحمن وأرقم أن يدفعا ثمن هزيمتهما السياسية الحاسمة اضطرارهما لترك المملكة والهرب للعيش في حمى أخصام بني ذي النون. فقد اجتاز أرقم حدود دولة الإسلام وعبر إلى أراضي جيران طليطلة النصارى حيث بقي في ضيافتهم إلى أن قتل غيلة بفعل مؤامرة دبرها ابن أخيه يحي المأمون[2]. وكان حظ عبد الرحمن أفضل إذ لجأ إلى أراضي مملكة سرغوسة ونزل في حمى وضيافة سيدها ابن هود الذي أكرمه وأدخله في عداد المقربين منه وأشركه في أكثر من حملة قادها على مملكة طليطلة.

ولد المأمون في حصن اقليش حين كان والده إسماعيل سيداً عليه ومالكاً لأراضيه في موعد غير معروف منا ولا قدمت أية رواية تاريخية ما يسمح بتقديره ولو من بعيد. وحين صارت إلى والده مملكة طليطلة انتقل إلى المدينة مع أهله، وفيها أمضى طفولته ومطلع شبابه. وعلى عادة سادة إسبانيا الإقطاعيين في ذلك الوقت تربى وتعلم في قصر أبيه. درس على أساتذة

(١) نفح الطيب: جزء ٢ صفحة ٥١٣.

(٢) الذخيرة: جزء ٤ صفحة ١١٣.

خاصين اللغة العربية وآدابها والفقه والشريعة وتعلـم قرض الشعـر وكذلك تدرب على الفنون العسكرية وتأدب بآداب الفروسية. وقد أظهر دائماً براعة فائقة في فنون القتال كما أبدى اهتماماً متزايداً بأمور الحكم والإدارة وهو الأمر الذي جعل والده، ربما، يختاره لولاية عهده مقدماً إياه على سائر فتيان العائلة وعقال العشيرة.

وبوصوله إلى الحكم تسلم مملكة قوية مزدهرة وذات اتساع عظيم في أراضيها لكثرة ما عمل إسماعيل على توسيع حدود سلطانـه بضـم أراضـي جديدة إليه كلما بدا له ذلك ممكناً أو كلما واتته الظروف السياسية والعسكرية. ذلك إنه عند وصول المأمون إلى الملك كانت مملكة طليطلة تضم كل تلك الأراضي الواقعة بين الحدود مع مملكة سرغوسة والإمارتين المستقلتين في البونت والسهـلة من جهـة الشـرق وبين حدود المملـكتين الصقلبيتيـن في بلنسية ودانية من الجانـب الجنوبـي الشرقـي وحـدود مملـكة بطليوس في الغرب. وكانت تمتد أراضي مملكة طليطلة جنوباً حتى حدود مملكتي غرناطة وقرطبة. وكان يفصلها عن أراضي جيرانها الإسبان النصـارى في الشمـال منطقة خالية من السكان تمتد إلى الجنوب من مجرى نهر الـدويرو. وأكبـر حواضر هذه المملكة مدن قلعة رباح واقليـش وقونقة ووادي الحجارة.

ومع العرش ترك إسماعيل الظافر لابنه وخليفته حكومة على درجة كبيرة من الفعالية والتنظيم يشارك فيها ثلاثة من الـوزراء الكبـار عرفـوا بولائهـم وإخلاصهم للعائلة الذنونية المالكة في طليطلة وأيضاً بتمسكهـم باستقـلال البلد وحريته. وقد بادر هؤلاء عند وفاة سيدهم إلى دعم وتقوية خليفته ولي عهده المأمون بقوة وحماس بوجه من نافسوه على سلطانه من أقاربه، مما جعله يتجاوز معارضة هؤلاء بيسر وسهولة.

إلا أنه بالمقابل كان على المأمون أن يواجه منـذ أيام ملـكه الأولـى

صعوبات كثيرة على صعيد علاقاته الخارجية مع جيرانه من ملوك الطوائف مما اضطره لأن يخوض حرباً طويلة دامت حوالي ثلاث سنوات دفاعاً عن حدوده وسلامة أراضيه بوجه مطامع جاره ابن هود[1] التوسعية وسياسته العدوانية.

(١) سيد مملكة سرغوسة التي كانت تضم أكثر أراضي منطقة الثغر الأعلى.

الفصل الثالث

المأمون وملوك الطوائف

الحرب بين طليطلة وسرغوسة :

في الشمال الشرقي من مدينة طليطلة وقريباً جداً من الحدود مع مملكة سرغوسة آنذاك كانت تقع مدينة وادي الحجارة ذات الأهمية الكبيرة لموقعها الاستراتيجي الممتاز ولأسوارها الحصينة وأيضاً لمواردها الطبيعية الكثيرة والمتنوعة[1] . وكان أهاليها يبرعون في استغلال المزارع والجنائن المحيطة بها اعتماداً على ما كانت تمدهم به من مياه غزيرة روافد نهر التاج الكبير. يضاف إلى ذلك إن المدينة كانت تنتج آنذاك كميات وافرة من الزعفران[2] الذي كان يصدر بكثرة إلى خارج شبه الجزيرة الإيبرية كما إلى سائر مناطقها مما كان يعود على أهلها بمردود سنوي مالي وافر. وكان ابن هود منذ استولى على الملك في سرغوسة ، بعد اغتيال المنذر التجيبي سيدها وفي نفس الوقت

(١) نزهة المشتاق : ١٨٩ ـ الروض المعطار صفحة ١٩١ .

(٢) نزهة المشتاق : ١٨٩ .

ابن أخت إسماعيل بن ذي النون وحليفه، يظهر عداءً شديداً لطليطلة وللبيت المالك فيها نظراً لخوفه الشديد من قوة الظافر وقدراته العسكرية وأيضاً لرغبة هذا المستمرة في الثأر لمقتل ابن أخته. وبعد موت إسماعيل الظافر ليس فقط لم يعد ابن هود يخشى قوات طليطلة وإنما بادر وبسرعة لمحاولة التوسع على حساب أراضيها مستغلاً فترة الاضطراب التي رافقت انتقال الملك إلى ابنه المأمون. وهو في هذا الاتجاه لم يتردد في إعطاء الملجأ والمأوى لشقيق المأمون ومزاحمه على سلطانه[1]. وكان هدف ابن هود المباشر من هذا التحرك الاستيلاء على مدينة وادي الحجارة المجاورة لحدوده والتي كانت ثرواتها الوافرة وموقعها المميز محل أطماعه منذ زمن طويل. وكان يشجعه على ذلك معرفته بأن أهل هذه المدينة ما كانوا بأكثريتهم موالين لصاحب طليطلة. لقد كان هؤلاء منقسمين على أنفسهم: فبعضهم كان يؤيد سلطان بني ذي النون وآخرون وهم الأكثرية كانوا يميلون نحو مملكة سرغوسة المجاورة لأراضيهم[2].

وفي سنة **١٠٤٣** أعد ابن هود جيشاً خاصاً جعل على رأسه ابنه أحمد وأوكل إليه مهمة الاستيلاء على مدينة وادي الحجارة. وما كانت مهمة هذا الجيش عسيرة باعتبار أن أكثرية سكان المدينة لم يترددوا في تقديم العون والمساعدة للجيش المهاجم مما جعله يقضي على مقاومة المدينة في أيام قليلة ويستولي عليها[3]. أحداث وادي الحجارة هذه أغضبت المأمون بدرجة كبيرة فقرر رد التحدي والمبادرة إلى العمل على طرد المغيرين من أراضيه حتى قبل أن يثبت دعائم سلطانه ويبعد خطر منافسيه على الملك. خرج بنفسه على رأس ذلك الجيش القوي والبالغ التنظيم الذي تركه له أبوه

(١) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٧٩.

(٢) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٧٧.

(٣) أعمال الأعلام: صفحة ١٧٧.

والذي طالما كان موضع عنايته واهتمامه. وقبل وصوله إلى أسوار المدينة بادر سيد وادي الحجارة أحمد ابن هود لملاقاته في الطريق والتصدي له. وفي المعركة الدامية التي وقعت بين الجيشين كانت هزيمة ملك طليطلة كبيرة وحاسمة فقد على أثرها معظم جنده مما اضطره للفرار مع من بقي حياً من أتباعه واللجؤ إلى مدينة قلعة رباح هرباً من ملاحقة وانتقام المنتصرين الذين تابعوه. ومن هناك من داخل أراضي مملكة طليطلة، كتب أحمد ابن هود إلى أبيه ملك سرغوسة يخبره بانتصاره الكبير وبالوضع الصعب الذي صار إليه خصمهم ابن ذي النون إلا أن هذا الملك، ربما لاعتبارات سياسية داخلية تتعلق بالوضع داخل مملكته أو لخوفه من غزو من جيران الشمال النصارى الإسبان أمر ابنه بالعودة أدراجه وترك الملك الطليطلي يعود مع جنوده إلى عاصمة ملكه[1]. وبذا استعاد المأمون حريته وعاد إلى طليطلة إنما بعد أن فقد نهائياً مدينة وادي الحجارة الغنية والهامة.

إلا أن المأمون لم يقبل بما حصل ولا سلم بفقدان مدينته الغنية بل عزم على استعادتها مهما كلفه الأمر. وانطلاقاً من هذا التصميم لم يتردد في اللجؤ إلى جيرانه نصارى الشمال، على ما كان آنذاك في هذا من مخاطر، يطلب منهم العون والمساعدة على بني هود. ولما كان فرناندو الأول، راغباً في استئناف القتال ضد المسلمين فإنه رحب بطلب المأمون وقبل ما أرسله من مال وعطايا وخرج فوراً على رأس جيشه الكبير لمهاجمة مملكة سرغوسة في صيف ذلك العام (١٠٤٣) واجتياح أراضيها والانتقام من سيدها. ولما كان هذا عاجزاً من الناحية العسكرية عن مواجهة تجمع جيوش ليون وقشتالة في وقت واحد فإنه تجنب المعركة واعتصم مع جيوشه داخل حصون وقلاع المملكة تاركاً الناس والمدن تحت رحمة المهاجمين. عند ذلك عمد

(١) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٧٧ ـ أعمال الأعلام: ابن الخطيب صفحة ١٧٧.

الإسبان المهاجمون إلى تخريب البلدان والمزارع واقتلاع أغراس الجنائن وإحراق الحقول بعد الاستيلاء على نتاجها. وبعد أن خرب الإسبان كل شيء عادوا إلى مواطنهم مثقلين بالأسلاب والغنائم والسبي. أما المأمون بن ذي النون فقد عمل في هذه الأثناء، من جانبه على استعادة مدينة وادي الحجارة والتوغل داخل أراضي أعدائه منتقماً منهم شر انتقام. إلا أن هذه الحرب التي قصد منها المأمون الانتقام من أخصامه واستعادة ملك سلبوه إياه دون وجه حق كما اعتقد كانت لها آثار سيئة بل مدمرة على المدى الطويل بالنسبة للممالك الإسلامية لأنها فتحت أمام فرناندو الأول إمكانية التدخل في شؤونها الداخلية والمرور عبر خلافاتها للاستيلاء على أراض تتبع دولة الإسلام في إيبريا. ومما كان يسهل مهمة الإسبان النصارى هذه كون سائر ملوك الأندلس آنذاك وليس المأمون وحده، كانت تحركهم وتوجه سياساتهم أحقادهم وأطماعهم وأنانيتهم متناسين تماماً مصالح البلاد العليا.

وفي السنة التالية، أي سنة ١٠٤٤، رأى ابن هود الذي ما كان أقل من ابن ذي النون، انسياقاً وراء شهواته ونزواته وأحقاده أن يسلك مسلك خصمه وأن يطلب عون جيرانه إسبان الشمال. اتصل لهذه الغاية بسيد آراغون راميرو ودخل معه في تحالف عسكري يهدف لمساعدته في الدفاع عن أراضيه ضد تعديات ملك طليطلة. واتصل أيضاً بالملك فرناندو الأول وأقنعه، بالكثير من المال والعطايا والوعود، بأن يغزو أراضي جاره وحليفه القديم المأمون ملك طليطلة. ولما كان فرناندو الأول هذا غير متمسك كثيراً بتحالفه مع جاره فأنه بادر لقبول عرض ملك سرغوسة الذي كان يفسح له بمزيد من الاستغلال لانقسامات المسلمين وخلافاتهم. هاجم فرناندو الأول أراضي مملكة طليطلة واجتاح بلداتها وقراها ونشر النار والموت في كل مكان مما جعل المزارعين يهرعون أمامه إلى عاصمة ملكهم للاحتماء في ظل أسوارها القوية. وأمام عجز الطليطليين عن رد غارات المهاجمين الإسبان

على أراضيهم رأى عقالهم ضرورة السعي لمصالحة ابن هود فبعثوا له جماعة من علمائهم وفقهائهم ومقدميهم لإقناعه بإنهاء الحرب بين المملكتين الجارتين. قبل هذا عرض الوفد الزائر ووعد بإنهاء تحالفاته مع الإسبان. إلا أن ابن هود ما كان صادقاً في ما وعد ولا كان أميناً لما تعهد به إذ كان في الواقع يحاول أن يخدع خصمه. فلم يمض كبير وقت حتى خرج على رأس حملة كبيرة تضم جنوداً مسلمين ونصارى قاصداً مدينة سالم في مملكة طليطلة. وبوصوله إلى أسوارها ألقى عليها حصاراً شديداً مما جعل أهلها يخرجون منها مضطرين في محاولة لكسر طوق الحصار وطرد المهاجمين. وفي المواجهة التي حصلت بين الفريقين والتي كانت دموية إلى حد كبير قتل ملك سرغوسة من أعدائه خلقاً كثيراً واستولى على مدينتهم. هذا الانتصار شجعه على محاولة استعادة كل الحصون والقلاع التي كان في العام السابق قد استولى عليها المأمون بن ذي النون بمساعدة الملك الإسباني فرناندو الأول. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مما ساعد على نجاح حملة ابن هود هذه كون عبد الرحمن بن ذي النون شقيق المأمون قد رافقه في تحركاته وقدم له معلومات وفيرة عن طرق ومسالك المنطقة[1].

وبعد أن تأخر الإسبان النصارى في تقديم أي عون جدي لمملكة طليطلة وبعد أن يئس المأمون من إمكانية الحصول على مثل هذا العون رأى نفسه مضطراً للبحث عن حليف قوي بوجه محاولات ملك سرغوسة التوسعية والعدوانية، بين ممالك الطوائف الأندلسية. ولما كان ابن عباد سيد إشبيلية أقوى هؤلاء وأكثرهم إمكانيات وثراء فقد دخل في مباحثات معه خاصة بعد أن أبدى استعداده للاعتراف بسلطان هشام الثاني المتربع على سدة الخلافة في رعايته وتحت مظلته السياسية. وقد ندب سيد إشبيلية وزيره ابن الدب

(١) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٨١.

الأشبيلي إلى بلاط طليطلة حيث قدم المأمون بحضور وجهاء ومقدمي مملكته فروض الطاعة والولاء لهشام الثاني كما أقسم بحضور الجميع على الإخلاص له. توجهت بعد ذلك بعثة من فقهاء وعلماء ووجهاء طليطلة إلى قصر الخليفة في إشبيلية لتحمل له آيات خضوع الملك الطليطلي في سنة ١٠٤٤.

وفي ربيع العام المذكور، معتداً بحليفه الجديد سيد إشبيلية، وحتى دون الحصول على وعد جدي منه بالمساعدة، قرر استئناف الحرب ضد عدوه ملك سرغوسة لاسترجاع أراضيه المفقودة. ولهذا أرسل هدايا ثمينة وأموالاً طائلة لصديقه وحليفه القديم غرسية سيد نبرة مقابل مهاجمة أراضي سرغوسة. وما تردد الملك النبري كثيراً في قيادة جيشه الكبير في حملة أنزلت الخراب والدمار في كل الأراضي الواقعة بين مدينتي تطيلة ووشقة كما استولى على حصون هامة في إقليم تطيلة. لم يبد ابن هود أية مقاومة جدية في وجه المهاجمين وتحصن مع أتباعه في واحدة من قلاعه القوية تاركاً بلاده وأيضاً أتباعه تحت رحمة الجنود النبريين. بادر بعد ذلك المأمون، مستغلاً هزيمة خصمه إلى الإفادة من الفرصة فهاجم مدينة سالم واستردها. كذلك استعاد سيادته على كل الحصون والقلاع التابعة له والتي كان ابن هود قد استولى عليها. وفي الوقت الذي كان المأمون يقيم فيه في مدينة سالم يعيد تنظيم أمورها ويدبر شؤون الدفاع عنها بمواجهة أي عدوان جديد محتمل، توجه أخوه عبد الرحمن بالتفاهم مع سيد سرغوسة، إلى بلاد قشتالة لمرافقة ملكها فرناندو الأول في هجوم مباشر على عاصمته طليطلة[1]. هاجمت الجيوش القشتالية أراضي طليطلة فخربتها وأزالت كل ما وجدته في طريقها من مظاهر البناء والعمران. وبعودة المأمون يحي بن ذي النون إلى عاصمة

(١) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٨١.

ملكه اكتشف أنه بات عاجزاً عن إنقاذ ممتلكاته ورعاياه من أذى المهاجمين . وهكذا وبعد ثلاث سنوات من بدء النزاع بين ابن هود وابن ذي النون صارت أراضي وممتلكات الملكين في حالة يرثى لها لما نزل بها من خراب ودمار وأذى. وقد جاءت وفاة ابن هود غير المنتظرة في سنة ١٠٤٦ لتنقذ أهالي المملكتين من الحروب التي أنهكتهم وربما لتنقذ الجميع من احتلال قشتالي.

ولم يكن هذا النزاع الذي استطال كثيراً هو وحده الذي يمزق صفوف المسلمين في تلك الفترة. وإنما كان هناك أكثر من خلاف وأكثر من حرب أهلية تفرق بين ملوك الممالك الواقعة جنوبي نهر الدويرو. والغريب إن الخلافات والانقسامات التي كانت تفرق إسبان الضفة الأخرى للنهر من النصارى ما كانت أقل عدداً ولا كانت أضعف حدة بالرغم من الشعور بأن وجودهم وسلامة عقيدتهم ما يزال يتهددهما ظهور ناصر جديد أو تفوق ابن أبي عامر آخر. ويبدو أن الناس، الذين كانوا يعيشون على ضفتي هذا النهر، على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم، كانت تحكمهم وبدرجة كبيرة الأعراف الإقطاعية بمفاهيمها العسكرية وبما يصاحبها من حروب دائمة ومن انتشار عقلية الفرسان المشاكسة. والكلمة النهائية في ذلك العصر وفي تلك البلاد كانت للأشخاص الأقوياء وللسادة أكثر مما كانت للشعوب والأمم مما جعل الفردية والأنانية والخلافات الشخصية هي الفاعلة وهي النافذة الكلمة والقرار. ويبدو لي إنه ليس فقط تاريخ هذه الحقبة بالذات وإنما تاريخ أوروبا كلها في العصور الوسطى صنعه سادتها وفرسانها وأبطالها بدرجة كبيرة وأكثر مما فعلت الشعوب والدول. فأحداث هذه العصور هندسها بالدرجة الأولى الأفراد وخاصة السادة الإقطاعيون.

والواقع إن هذه الحقبة من القرن الحادي عشر للميلاد كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ دولة الإسلام في إسبانيا. ذلك إن استقلال

مملكتي سرغوسة وطليطلة في منطقتي الثغر الأعلى والثغر الأوسط وحيث كانت ما تزال تعيش فئات كبيرة من السكان الإسبان أصلاً، مستعربين[١] ومولدين، قد أوجد حالة نفسية جديدة بين أهالي هذه المناطق. فالتعاون مع الإسبان النصارى المجاورين لهم والتحالف مع ممالكهم سياسياً وعسكرياً ضد ممالك إسلامية أسقط ذلك الحاجز النفسي الذي طالما فصل ولعدة قرون بين أهالي إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة وجعل التعاون بين أهالي شقي إسبانيا عادياً بل ومقبولاً. فابن هود وابن ذي النون ذهبا في الصراع بينهما إلى حد عدم التردد في طلب العون والمساعدة ممن طالما كانوا موالي لدولة الإسلام في إسبانيا. وبذا بات من المألوف في كل من طليطلة وسرغوسة رؤية مسلم يتحالف مع نصراني لمقاتلة مسلم آخر وهو أمر ما كان مستساغاً ولا كان مقبولاً في السابق. هذه الذهنية التي أشاعها ملكان أندلسيان فتحت الباب أمام من طالما كانوا أتباع وموالي للخلافة الأموية للتدخل في شؤون إسبانيا الإسلامية والتأثير في أحداثها وفي تطور المجتمع الأندلسي.

الحرب بين طليطلة وبطليوس:

ولم تكن علاقات المأمون مع جاره الآخر ابن الأفطس في بطليوس جدية ولا حتى عادية وطبيعية. وعلى هذا فما أن أنهى خلافه مع مملكة سرغوسة حتى دخل مع سيد بطليوس في سلسلة من الحروب والصراعات دامت سنوات عديدة[٢]. وسبب هذا الخلاف ومبرره ابتدعهما المأمون نفسه مدفوعاً بنزعة توسعية في الاستيلاء على أراض جديدة إلى الغرب من ممتلكاته. ذلك إنه في الواقع ومع الوقت بدأ ابن ذي النون ينهج نهج ابن عباد في إشبيلية والبربر الحموديين في غرناطة في السعي كل لحسابه لتوسيع

(١) La Prise de toledo (Hesperis) P. 36 Levi Provencal.

(٢) Encyclopedie de l'Islam T. II, P. 237, Levi Provencal.

رقعة أراضيه بهدف إعادة تكوين وحدة الأمة الأندلسية التي فقدت[1]. لقد اختار الذنوني التوسع إلى جهات الغرب بالذات لاعتبارات كثيرة. حربه الطويلة مع سرغوسة أقنعته باستحالة التوسع ناحية الشرق حيث يحكم بنو هود الأقوياء بجيشهم الكبير وبتحالفهم الوثيق مع جيرانهم الإسبان النصارى. وهو ما كان يستطيع حتى مجرد التفكير بالتوسع على حساب مملكة غرناطة التي كانت تملك قدرات عسكرية كبيرة تتجاوز بمراحل إمكانياته في هذا المجال والتي كانت تدعمها بصورة دائمة كل القوى البربرية في الأندلس. وكانت غرناطة فوق ذلك صديقة وحليفة للعامريين الحاكمين في بلنسية. وهو ما كان يجرؤ على مهاجمة قرطبة التي كانت دوماً تتمتع بحماية عسكرية وسياسية من ابن عباد سيد إشبيلية بوجه أي عدوان محتمل من جانب المأمون سيد طليطلة.

لقد بدت بطليوس أمام المأمون ضعيفة بما يكفي لمباشرة سياسة توسعية حيالها. ولما كانت بطليوس في تلك الفترة في خلاف مع حكام إشبيلية فقد استغل الفرصة واجتاز الحدود إلى أراضي المملكة المجاورة[2]. ومع انشغال ابن الأفطس بالحرب مع الإشبيليين فإنه تصدى بقوة وعنف لمشاريع ابن ذي النون النون التوسعية ولفترة دامت عدة سنوات إلى أن جاءت الحروب بين سيد إشبيلية وسيد طليطلة لتنقذ ممتلكاته نهائياً من عدوان جاره القوي. ومع إن المصادر الأندلسية التي أرخت لتلك الفترة ما أمدتنا بالكثير من المعلومات والأخبار حول هذا الصراع وتطوراته إلا أن الشيء الثابت والأكيد هو أن كل ما جرى خلالها لم يغير من الحدود بين أراضي طليطلة وأراضي بطليوس.

(١) Los Mozarabes G. Cagigas P. 422.

(٢) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٨٢.

توقف الصراع بين إشبيلية وبطليوس في سنة ١٠٥١ م، وتوصل سادة البلدين إلى توقيع الصلح بمساعي ووساطة ابن جهور صاحب قرطبة[١]، أعطيا بني الأفطس القدرة على توجيه كل إمكانياتهم وقدراتهم نحو الغزاة الطليطليين. عند ذلك، لهذا السبب ولاعتبارات سياسية داخلية ولتدهور العلاقات المتزايد بين إشبيلية وطليطلة، ما وجد المأمون سبيلاً أمامه غير سحب قواته من أراضي جيرانه الأفطسيين. إلا أن نزعة العداء تجاه بطليوس وحكامها ظلت قوية عند المأمون الذي بقي يرى فيها حاجزاً قوياً يحول دون إرادته في التوسع جهات الغرب.

وعندما تخلص فرناندو الأول من مشاكل داخلية كانت تتهدد وحدة مملكته، قرر العودة مجدداً لمهاجمة أراضي جيرانه المسلمين جنوبي حدوده. قاد سنة ١٠٥٧ حملة كبيرة تضم ألف فارس وعشرين ألف رجل اجتاح بها أراضي مملكة بطليوس[٢]. وقد التزم المأمون بن ذي النون حيال هذا الغزو جانب الحياد الكامل تاركاً جاره الملك الأندلسي تحت رحمة الغزاة الإسبان مما سمح لهؤلاء بأن يستولوا بيسر وسهولة على حصنين هامين على نهر الدويرو هما: مليقة وبازو[٣]. هذا الحياد أو بعبارة أصح هذه اللامبالاة أثارت موجة من الغضب والاشمئزاز بين الطليطليين المسلمين وبصورة خاصة عند وزراء الدولة ومقدميها[٤]. إلا أن المأمون، وكان آنذاك مشغولاً ببناء قصره الشهير، ما اهتم بشكل من الأشكال بأزمة المملكة المجاورة ولا ترك نفسه تتأثر بمشاعر الطليطليين لأن عداءه لابن الأفطس سيد بطليوس كان ما يزال كبيراً وفاعلاً.

(١) Los Reyes de Taifas P. 72.

(٢) البيان المغرب: جزء ٣ صفحة ٢٣٧.

(٣) Aguado Bleye T. I. P. 595.

(٤) الذخيرة: جزء ٤ صفحة ١١٤.

وعند وفاة سيد بطليوس المظفر ابن الأفطس في سنة ١٠٦٨ دب الخلاف بين ولديه المتوكل ويحي حول وراثة عرش الملك المتوفي. وقد وجد المأمون في هذا الخلاف الطارىء فرصة ثمينة للتدخل في شؤون المملكة المجاورة الداخلية، للحصول سلماً على ما لم يستطع أن يحصل عليه في حروب دامت سنوات عديدة. لقد اختار أن يعطي دعمه وتأييده للأخ الأصغر يحي ضد أخيه المتوكل الذي كان صديقاً وحليفاً لابن عباد سيد إشبيلية. وهكذا أغرق الأخوان، كل منهما تدعمه قوة خارجية، مملكة بطليوس في حرب أهلية طويلة أشاعت الخراب والدمار والجوع لفترة طويلة في سائر أرجاء المملكة. وأبشع ما في هذه الحرب كونها سمحت للقشتاليين بالمطالبة بمزيد من المال ومزيد من الأرض.

وهكذا كان العداء والحرب يطبعان العلاقات بين مملكتي طليطلة وبطليوس. وحين كان المأمون لا يحارب ابن الأفطس كانت العلاقات بينهما تسيطر عليها البرودة والجفاء وعدم الاهتمام. ويمكن التأكيد بأن العلاقات بين هاتين المملكتين ما عرفت في يوم من الأيام وطيلة حياة المأمون فترة من السلام الحقيقي والمودة.[1]

العلاقات بين طليطلة وإشبيلية:

في زمن الظافر، أول ملوك طليطلة سادت البرودة وربما الجفاء العلاقات بين طليطلة وإشبيلية دون أن يصل ذلك إلى حد القطيعة أو الصراع المسلح. فالقاضي ابن عباد أول حكام العباديين في إشبيلية تحكمت في علاقاته مع ملوك الطوائف رغبته في إعادة توحيد الأندلس تحت زعامته باسم رجل نصبه على كرسي الخلافة في إشبيلية بدعوى أنه هو «هشام الثاني» المؤيد بالله. والظافر ابن ذي النون ما كان أقل منه طموحاً، إلا أنه كان في

---

(١) الذخيرة: جزء ١، قسم ٢، صفحة ٤٠٣.

بداية حكمه أضعف من أن يباشر بسرعة سياسة تهدف لإعادة توحيد الأندلس تحت زعامته، ولو أن هذا كان هدفاً راسخ الجذور في ضميره وعقله. ومن هنا كان موقفه يتسم بالرفض المطلق للخضوع لخليفة إشبيلية والاعتراف بسلطانه إنما مع الاكتفاء على الصعيد العسكري بسياسة دفاعية تعمل على صون حدوده والدفاع عن سلطانه.

وعند وصول المأمون إلى السلطة في طليطلة تواجه، منذ أيامه الأولى، مع عدوان جاره سيد سرغوسة على أراضيه فشعر بالحاجة الماسة للبحث عن حليف قوي بين ملوك الأندلس يؤيده ويشد أزره. ومن هنا وجد نفسه مضطراً لمباشرة سياسة أكثر مرونة تجاه سيد إشبيلية فاعترف بخليفتها بأمل الحصول على دعم وتأييد من قبل ابن عباد. إلا أن هذا، وكان منشغلاً آنذاك بصراعه المسلح مع بني الأفطس في بطليوس، ما وجد لنفسه أية فائدة في التدخل في النزاع بين طليطلة وسرغوسة، فاكتفى بأن قدم لحليفه الجديد دعماً معنوياً فقط وامتنع عن كل مساعدة سياسية أو عسكرية. ومن هنا فإن ابن ذي النون بعد أن أنهى حربه مع ابن هود، ولو أنه استمر على الاعتراف بسلطان «هشام الثاني»، ما حاول أن يعطي اعترافه هذا مضموناً جدياً أو فعالاً، وبالتالي ما كان له أي تأثير على سياسته العامة.

ومنذ مطلع العام ١٠٥١ م مال المأمون بصورة متزايدة نحو الاهتمام بأمور مملكته الداخلية وأيضاً بعلاقاته مع ممالك إسبانيا المسيحية. وقد حافظ على حياد كامل في هذه الأثناء تجاه كل ما كان يجري من أحداث في جنوب الأندلس كما في أقسامه الغربية خاصة وإن الخلافات العربية البربرية كانت محور أكثر ما يجري وكان هو يكره التدخل في مثل ذلك. وعلى هذا فإن المأمون ما أزعجته كثيراً سياسة ابن عباد التوسعية على حساب بعض

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٧٣.

الممالك الصغرى في الغرب أو على حساب ممالك بربرية أخرى في الجنوب .

وكانت هناك قضيتان أساسيتان تشغلان تفكير المأمون ، بحيث كان من الممكن أن تثير أية واحدة منهما حرباً بينه وبين ابن عباد وهما مسألتا : قرطبة وقرمونة . ذلك إن بني عباد كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بالاستيلاء على قرطبة إذ كانوا ينظرون إليها على أنها العاصمة الحقيقية والوحيدة للإسلام في الأندلس . بل فوق ذلك كانوا يرون أن الحصول عليها هو إنجاز لا بد منه إذا كانوا يرغبون في رفع مكانتهم بين المسلمين الإسبان وفي إعادة وحدة الأمة الأندلسية . ومن جهة أخرى كان المأمون ابن ذي النون ينظر إلى قرطبة بنفس المنظار ويرغب في الاستيلاء عليها للأسباب نفسها وأيضاً لقيمتها الدفاعية عن حدود مملكته وسلطانه بوجه رغبات العباديين في إشبيلية والحموديين والبربر في الجنوب ذات المضمون التوحيدي . وانطلاقاً من هذا الموقف كان المأمون على استعداد دوماً لمقاومة أي اعتداء على سيادة قرطبة من أية جهة أتى . وقد تابع هذه السياسة بقوة إلى أن اضطر في أيام المعتمد ابن عباد لإعلان الحرب عليه واحتلال العاصمة الأندلسية القديمة من قبل الجيوش الطليطلية .

وبالنسبة لدويلة قرمونة ، والتي كانت قريبة جداً من حدوده ، فقد مارس دائماً سياسة الحذر والتزمت حيالها رافضاً أن تؤول مقدراتها إلى سيد من ملوك الطوائف خاصة إذا كان قوياً كابن عباد . وقد مارست هذه الدويلة ولمدة طويلة سياسة اتسمت بالقلق وعدم الاستقرار مما عرضها لمخاطر كثيرة إنما دون أن تصل بها إلى حد فقدان الاستقلال . استمر هذا الوضع إلى أن توصل الجاران القويان ابن عباد وابن ذي النون إلى اتفاق حول مصير هذه الدويلة .

علاقات طليطلة مع البربر:

كانت الدويلات البربرية في الجنوب، من فوق ما يفصل بينها من خلافات وحساسيات قبلية، تشكل فيما بينها تحالفاً سياسياً وعسكرياً قوياً. وكانت زعامة هذه الدويلات كلها تعود إلى باديس بن حبوس سيد غرناطة. والجميع يعترفون بسلطان الخليفة الحمودي في مالقة. كان للتحالف البربري هدف أساسي هو الحؤول دون عودة الخلافة الأموية إلى الأندلس لكي لا تعود معها الهيمنة العربية على شؤون شبه الجزيرة الإيبرية التي طالما اشتكى منها البربر. وكان زعماء الدويلات العربية والصقلبية يعرفون قيمة الخطر البربري وقدرته على تهديد مصالحهم ويعملون دوماً على معارضة المشاريع البربرية. إلا أن المأمون ما كان يستشعر كثيراً هذا الخطر ولا كان يخاف آثاره وذلك للأسباب التالية:

- إذا كان البربر يشكلون خطراً على ممالك الطوائف، وإذا كانت دعوتهم الأندلسيين للاعتراف بالخليفة الحمودي في مالقة تتعارض مع النهج الاستقلالي لطليطلة فإن تحالف الممالك العربية والصقلبية يشكل، بالنسبة لابن ذي النون، خطراً أكبر لما لأهل هذا الحلف من إمكانيات عسكرية كبيرة ولما عندهم من أمل في النجاح. ولذا فالمأمون كان يرى من الأنسب والأسلم له أن يترك الفريقين يتصارعان ليتخذ هو موقف الحذر والترقب فقط.

- بما أن لمملكة غرناطة حدوداً ملاصقة لأراضيه فقد فضل المأمون أن لا يثير غضب سيدها القوي باديس بن حبوس لما له من نفوذ بين سائر البربر الأفارقة في الأندلس ولما كان عند هؤلاء من قدرات عسكرية تفوق كثيراً إمكانياته.

- الطليطليون الذين طالما أظهروا ميولاً استقلالية، كانوا يفضلون

البقاء بعيداً عن مشاكل الأندلس وصراعات أهلها والتفرغ لأمور بلدهم خاصة وأن الازدهار الاقتصادي بدأ يعم أرجاءها كما بدأت تظهر فيها بوادر نهضة علمية وأدبية ناشطة.

ـ كان الذنونيون، نظراً لطول إقامتهم على الأرض الإسبانية، قد فقدوا مع الوقت جل خصائص الدم البربري كما تخلصوا من عصبيتهم للعنصر البربري وولائهم له. إنما هذا لا يعني إنهم قد استعربوا بصورة كاملة. فهم وإن كانوا قد أخذوا الإسلام كدين واتخذوا من العربية لغة لهم فإنهم ما أخذوا الكثير من خصائص الشخصية العربية. ويبدو أن بني ذي النون، مثل كثير من العائلات العربية والبربرية، بعد طول الإقامة في الأرض الإسبانية قد اندمجوا في بيئة هذه الأرض ومحيطها. لقد تخلى هؤلاء عبر إقامتهم الطويلة في الأندلس عن الكثير من خصائصهم الأصلية وأخذوا الكثير مما تعطيه الأرض الإسبانية إنما بقوا في كل الحالات بعيدين عن أن يصبحوا إسباناً بكل معنى الكلمة أو عرباً أقحاحاً أو بربراً، بل يمكن القول إن هذه العائلات، وما كان أبناؤها قلة في القرن الحادي عشر في شبه الجزيرة الإيبرية، اتجهت لأن تشكل عنصراً مميزاً ـ إذا جاز التعبير ـ له من العرب القليل ومن البربر القليل وأعطته إسبانيا الكثير الكثير. والمأمون الذي كان أحد أبناء هذا العنصر ما كان يشعر في أعماقه بأي التزام تجاه قضية البربر في الأندلس ولا كان شديد الولاء والتحسس بقضايا عرب شبه الجزيرة.

هذه السياسة غير الملتزمة أو المحايدة تجاه قضايا البربر عموماً وبصورة خاصة تجاه غرناطة أقوى وأبرز دويلاتهم حافظ عليها المأمون طيلة فترة حكمه، الأمر الذي سمح له في سنة ١٠٦٦ أن يتدخل كوسيط في نزاع طال أمده بين دولتي غرناطة والمرية[١]. وقد كان لدوره المصلح هذا مردود

---

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٦٦.

كبير بالنسبة لدولته إذ حصل على حصن باجة الهام وضمه مع أراضيه إلى ممتلكاته. يضاف إلى ذلك أن هذا الحياد هو الذي سمح له بأن يتدخل كوسيط أيضاً بين مملكة غرناطة وبين ألفونسو السادس سيد قشتالة الذي كان على علاقات حسنة معها آنذاك.

إنما في النهاية لا بد من الإشارة إلى أنه بالرغم من الخدمات التي قام بها المأمون كمصلح ووسيط بين غرناطة وأعدائها فإن الغرناطيين ما أحبوه ولا وثقوا به لأنه كان دوماً يسعى وراء مصالحه الشخصية في نظرهم واعتبروه دوماً بمثابة عدو يرتدي ملابس الصديق. إلا أنهم وما داموا في صراع مستمر مع جيرانهم الإشبيليين لم يكن أمامهم من حل غير قبول هكذا حياد من ابن ذي النون القوي ولو أنه افتقر دوماً إلى الصدق والاستقامة[1].

علاقات طليطلة مع بني هود:

تحدثنا قبل الآن عن الحرب الطويلة التي قامت بين مملكتي طليطلة وسرغوسة على مدى ثلاث سنوات من ١٠٤٣ حتى ١٠٤٦ والتي هددت في أكثر من مناسبة استقلال وسيادة بني ذي النون. وقد انتهى هذا النزاع بوفاة أحد عناصره الأساسية سليمان ابن هود. إنما مع هذا بقيت طليطلة تنظر بكثير من الحذر والشك إلى ممارسات سادة سرغوسة وتصرفاتهم حيالها. وعندما صار المأمون بن ذي النون أقوى السادة الحاكمين في مناطق وسط شبه الجزيرة الإيبرية لم يتمكن من الانتقام من أخصامه التقليديين بني هود. ذلك إن تطور الأحداث لم يترك له فرصة مناسبة لتحقيق مثل هذا الهدف باعتبار أن أخصامه سادة سرغوسة قد حصنوا أنفسهم دوماً بتحالفات فاعلة. كان يربطهم تحالف قوي بالتجيبيين الحاكمين في وشقة وطرطوشة وليردة ويشدهم في نفس الوقت تفاهم عميق إلى الإسبان النصارى في قشتالة.

(١) مذكرات الملك عبدالله الزيري، مجلة الأندلس، ١٩٣٥ - ١٩٣٦، صفحة ٣١٨.

وكذلك كان المأمون يعرف أن بني عباد لن يسمحوا له إطلاقاً بتوسيع حدود بلاده في جهات الشرق. وعلى هذا مارس المأمون وحتى نهاية أيامه في الحكم حيال أعدائه التقليديين في سرغوسة سياسة غلب عليها طابع عدم الاعتداء.



الفصل الرابع

المأمون والمتغيرات السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الإيبرية

لقد رأينا سابقاً الملك سانشو الكبير يمزق وحدة إسبانيا المسيحية بالسماح بتقسيم أملاكه بين أولاده. وقد صارت بلاد قشتالة، قاعدة النصرانية الإسبانية ومنطلقها في الصراع مع دولة الإسلام في الأندلس إلى فرناندو الأول الذي قبل منذ أيامه الأولى في الحكم الالتزام بدور منقذ إسبانيا الذي صار تقليداً في الحياة السياسية في هذه البلاد. إلا أنه بالمقابل رأى أنه لا يستطيع أن يمارس هذا الدور بالفعل وأن ينطلق في حملات ضد المسلمين لاسترداد بعض ما بيدهم من أراضي طالما بقيت إسبانيا المسيحية مقسمة بين ملوك غارقين في خلافاتهم وعداواتهم الشخصية. ومن هنا كان قراره بأن يبادر أولاً إلى محاولة إعادة توحيد أراضي الإسبان النصارى والتي كانت تبدو سهلة التحقيق أمامه لما توفره له انقسامات المسلمين وخلافاتهم فيما بينهم من قدرة على توجيه كل جهوده نحو الهدف الذي حدده لنفسه. طليطلة كانت آنذاك تقاوم غزوات حكام سرغوسة، وبطليوس كانت تدافع عن أراضيها ضد أطماع بني عباد التوسعية. وهذا كله كان يوفر لفرناندو

الأول هدوءاً على حدوده مع المسلمين كان ضرورياً له لمباشرة مشروعه التوحيدي.

باشر فرناندو الأول حربه في إسبانيا المسيحية بمهاجمة مملكة ليون. وقد انتصر على سيدها برمودو الثالث انتصاراً حاسماً في معركة جرت في وادي تامارون[1]. وصار انتصار ملك قشتالة كاملاً عندما توفي بعد وقت قصير برمودو الثالث مما ترك له الفرصة للاستيلاء على كل أراضي ليون باسم زوجته سانشا شقيقة الملك المتوفي. وفي تموز من سنة ١٠٣٧ اتحدت أراضي مملكتي قشتالة وليون في دولة واحدة. هذا الإنجاز الكبير جعل فرناندو الأول في موقف قوي وتركه أقدر على التدخل في الخلافات والحروب الأهلية بين الممالك الأندلسية وخاصة بين سرغوسة وطليطلة. وقد عادت هذه التدخلات عليه بمكاسب مادية كبيرة وأيضاً بمردود إقليمي. وهذا كله كان من شأنه أن رفع من مكانة هذا الملك على جانبي نهر الدويرو الفاصل بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى حتى ذلك الوقت. ولما كان فرناندو الأول يهدف لتوحيد كل أراضي الإسبان النصارى في ظل عرشه فإنه ما اعتبر كافياً ما حققه من وحدة أراضي قشتالة وليون. وعلى هذا عزم على مهاجمة بعض أراضي أخيه غرسية ملك نبرة خاصة تلك الواقعة في ريوخا وبريبا. وأمام إصرار هذا الأخير على الدفاع عن أراضيه بكل الوسائل الممكنة، وأيضاً بوجه ما طالما أبداه من عداء تجاه سيد قشتالة، فقد بادر هذا إلى إعداد حملة عسكرية كبيرة ضمت جنوداً من النبريين والغاسكونيين وأيضاً مسلمين أمده بهم صديقه وحليفه أحمد بن هود سيد سرغوسة. وفي معركة كبيرة جرت بين جيشي الأخوين في أرض تبعد ثمانية عشر كيلومتراً عن مدينة برغش في شهر أيلول من العام ١٠٥٤ م هزم غرسية هزيمة شنيعة وفقد

حياته في ساحة القتال. وقد حقق فرناندو الأول انتصاره الكبير بفضل شجاعة جنود ليون الفائقة. وبفضلهم تمكن بعد سنوات قليلة أي في سنة ١٠٥٦ من الاستيلاء على كل الأرض الممتدة شمال غرب بريبا بما في ذلك دير أونيا. ثم عاد بعد سنوات قليلة أي في سنة ١٠٦٤ فضم إلى ممتلكاته قطعة كبيرة تمتد بين ساحل البحر الكانتابريكي ومجرى نهر الإيبرو.

ليس لدينا الكثير مما نعرفه عن العلاقات التي كانت تربط بين أخوي فرناندو، غرسية وراميرو وبين المسلمين. إلا أن الشيء المؤكد هو أن غرسية قد تدخل في أكثر من مناسبة في الحرب الطويلة بين طليطلة وسرغوسة مؤيداً ومساعداً سيد سرغوسة ابن هود. ومن هنا يمكن القول بأن علاقات سيد نبرة مع مملكة سرغوسة كانت جيدة بحيث أن غرسية حين خاض حربه مع أخيه تلقى عوناً وتأييداً من صديقه وحليفه أحمد ابن هود. أما راميرو فمع إنه كان يرتبط بعلاقات ود وصداقة مع أكثر من واحد من جيرانه المسلمين فإن شقيقه فرناندو قد هاجم ممتلكاته أكثر من مرة واستولى على أجزاء منها بيسر وسهولة ودون الخوف من أي عون أو مدد من جانب المسلمين قد يعرقل أهدافه.

غزوات فرناندو الأول في أراضي بطليوس:

انتصار فرناندو الأول في تامارون سنة ١٠٥٤ أعطاه دفعاً معنوياً كبيراً ورفع من ثقته بقدراته العسكرية فرأى أن يباشر حملاته ضد المسلمين. ما كان يعرفه عن انقسامات المسلمين وحروبهم مع بعضهم البعض جعله يطمئن إلى أنهم عملياً وكما تظهر أحداث الأندلس قد فقدوا الكثير من الحس الوطني كما من روحهم القتالية وحميتهم الدينية. بدأ حربه ضد المسلمين بمهاجمة أراضي بني الأفطس في بطليوس أضعف ممالك الأندلس المجاورة له. عبر الحدود إلى أراضيهم على رأس جيش يضم عشرة آلاف فارس

وعشرين ألف جندي[1] فخرب المزارع وهدم القرى وأشاع الخراب في كل مكان ثم استولى على مدينتين صغيرتين[2]. وبعد فترة قصيرة استولى على مدينة مليقة الهامة وألقى حصاراً شديداً على مدينة بازو والتي قاومت بشدة أول الأمر لكنها ما لبثت أن غلبت على أمرها ودخلتها جيوش الغزاة الذين قتلوا عدداً كبيراً من أهلها وانتقموا من المدافعين عنها بوحشية وشراسة. وبوجه هذه الغزوات بقي المظفر ابن الأفطس وحيداً دون عون أو مساعدة من الممالك الإسلامية المجاورة. ذلك أن ابن عباد أقوى هؤلاء كانت تشغله آنذاك حروبه ضد البربر ومحاولة تحقيق أطماع شخصية له لا تأخذ بالاعتبار كثيراً مصلحة المسلمين العليا. وبالمقابل فإن المأمون بن ذي النون كان مهتماً بصورة أساسية بمتابعة أعمال بناء قصره الكبير وربما أيضاً لكرهه الشديد لجاره ابن الأفطس ما كان يمانع كثيراً في رؤيته يتلقى ضربات الجيوش القشتالية. أما سائر الملوك الآخرين فكانوا أضعف من أن يفكر أحد منهم بنجدة المملكة المنكوبة وأهلها.

وهكذا بعد أن فقد ابن الأفطس الأمل في إمكانية الحصول على مساعدة من أي طرف مسلم، وبالتالي التصدي للقوات المهاجمة الكبيرة والقوية، لجأ إلى محاولة التوصل إلى حل سلمي مع فرناندو الأول. التقى الملكان، لهذا الغرض بالقرب من مدينة شنترين على نهر شنترين وتوصلا إلى توقيع اتفاق بينهما وضع حداً للأعمال الحربية. وقد تعهد ابن الأفطس مقابل ذلك بدفع ضريبة سنوية للملك القشتالي تبلغ خمسة آلاف دينار ذهبي وأيضاً بقبول اعتبار نفسه بمثابة تابع لسيد قشتالة.

---

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٣٨.

(٢) Primera Cronica General de Espana. Menendez Pidal, P. 486.

فرناندو الأول وسرغوسة :

وما أن انتهى الصراع المسلح مع بني الأفطس حتى وجه فرناندو الأول جيوشه باتجاه أراضي مملكة سرغوسة فغزاها واستولى بسهولة ويسر على ما كان لها من حصون وقلاع هامة إلى الجنوب من مجرى نهر الدويرو. وكما فعل ابن الأفطس بادر ابن هود بعد أن اقتنع باستحالة مقاومة جيوش الغزاة الإسبان إلى السعي للحصول على السلام. ولم يتردد مقابل ذلك بقبول الاعتراف بتبعيته للملك القشتالي. وبهذه الطريقة وحدها قبل القشتاليون الانسحاب من أراضي سرغوسة إنما مع احتفاظهم بحصن شنت اشتبين العظيم وبعدة قلاع أخرى أقل أهمية[1].

فرناندو الأول وطليطلة :

واثقاً من ضعف القدرات العسكرية للمسلمين عموماً ومعتزاً بما حقق من مكاسب عسكرية وإقليمية في حروبه مع سرغوسة وبطليوس قرر الملك القشتالي محاربة أقوى ملوك الطوائف المجاورين لأراضي إسبانيا المسيحية، المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة. اقتحم حدود مملكة طليطلة بجيشه الكبير واجتاح أراضيها دون أن تعرقل سيره أية قوة فعالة. ذلك إن الطليطليين على ما أظهروه في السابق من حماسة لاستقلالهم ومن إصرار على التمسك بسيادتهم فإنهم ما أبدوا حيال هجوم فرناندو الأول ما يكفي من الرغبة في الدفاع عن أراضيهم. وبسهولة وبزمن قصير احتل القشتاليون منطقة قونقة بكاملها وتمكنوا من الاستيلاء على عدة من القلاع والحصون الهامة في مناطق الحدود مع إسبانيا المسيحية اعتبروا وجودهم العسكري فيها ضرورياً للدفاع عن سلامة أراضيهم. وكانت هذه المواقع تتبع مملكتي طليطلة وسرغوسة التي كان سيدها يعتبر بمثابة تابع لملك

---

(١) Aguado Bleye, II. P 595.

قشتالة. وفي اختراقه أراضي ابن ذي النـون كان الملك القشتالـي يخـرب المزارع ويهدم القرى وينشر الخوف ويهرق الدمـاء في كل مكان. كذلك هدمت الجيوش الغازية وأحرقت حصني طلمنقة ومجـريط وألقـت حصـاراً شديداً على قلعـة هنـارس. ونظـراً لمـا ارتـكب فرنانـدو الأول من مذابـح وموبقات في حملته على مملكة طليطلة فإن أهل هذه القلعة خافـوا بطشـه وعزموا على مقاومته بقوة وعناد مما عرقل بالفعل تقدم جيوشه ولوقت طويل. إلا أن الحصار كان يشتد بصورة متزايدة وإمكانيات السـكان المحاصـرين كانت محدودة فوجه هؤلاء رسالة إلى المأمـون يرجونـه إنقاذهـم وإرسـال مساعدة عسكرية لهم قبـل أن يضطـروا لفتـح أبـواب قلعتهـم والاستسـلام للقشتاليين[1]. ولما كان المأمون يدرك عجزه عن إخراج الإسبان الغزاة من أراضيه، خاصة وإنه ما كان يأمل بالحصول على أي عون أو مساعـدة من جيرانه الملوك المسلمين، فقد رأى الخلاص في اتباع الطريق الذي دشنه وسنه سيد بطليوس ابن الأفطس. حمل مبالغ كبيرة من المال وهدايا ثمينـة وخرج بنفسه من عاصمة ملكه لمقابلة ملك قشتالة فرناندو الأول. قبل هذا العطايا ووافق على السلام والخروج من أراضي مملكة طليطلة بعد أن قدم له المأمون خضوعه وأعطاه ضمانات على استمرار ولائه وإخلاصه له[2]. وهكذا منذ سنة ١٠٥٧ ما عاد استقلال طليطلة، الذي جهد أهلها كثيراً في الحصول عليه، كاملاً، وصـار سيدهـا يقـدم فروض التبعية والـولاء لملك قشتالة وليون. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من توقيع اتفاق الصلح فإن فرناندو الأول ما أعاد للمأمون كل أراضيه التي اجتاحها إذ أصر علـى الاحتفاظ ببعض القلاع والحصون الهامة على نهـر الـدويرو اعتبرهـا هامـة وأساسية للدفاع عن سلامة أراضيه. وقد التزم فعلاً فرناندو الأول طيلة حياته

(١) Dozy T II, P. 235 - Aguado Bleye, T I, P. 595.

(٢) Primera Cronica General, P. 499.

بتنفيذ أحكام صلحه مع المأمون بدقة متناهية وأقام معه أفضل العلاقات. وبالمقابل تابع المأمون الاعتراف بتبعيته وخضوعه للملك الإسباني معتبراً تلك العلاقة ضمانته الأكيدة والثابتة بوجه مطامع سيد إشبيلية ابن عباد بأراضيه وبملكه. يضاف إلى ذلك إن هذا الصلح وما تبعه من علاقات جيدة بين الملكين أشاعا على حدود طليطلة مع إسبانيا المسيحية سلاماً ثابتاً ومستقراً ترك للمأمون الفرصة الكافية لمباشرة سلسلة من الحروب التوسعية على حساب بعض جيرانه من الملوك المسلمين مما زاد في نفوذه في إسبانيا الإسلامية.

فرناندو الأول وإشبيلية:

أما وقد نجح في إخضاع سادة طليطلة وسرغوسة وبطليوس وجعلهم يقدمون له فروض التبعية والولاء فقد اعتبر فرناندو الأول في سنة ١٠٦٣ الوقت ملائماً لاجتياح أراضي مملكة إشبيلية القوية حاملة راية إعادة توحيد إسبانيا الإسلامية ورائدة العروبة والإسلام بين ممالك الطوائف في ذلك الوقت. في ربيع ذلك العام اجتاح الملك الإسباني على رأس جيش كبير أراضي بني عباد فهدم قراها ونشر الموت والرعب بين سكانها ونهب زروعها وأحرق كرومها[١]. ومع إن سيد إشبيلية كان آنذاك من أقوى ملوك الطوائف في الأندلس فإنه وجد من الأجدى والأكثر منطقية وحكمة أن يصل إلى نوع من التفاهم مع الغزاة الإسبان. انتقل إلى معسكرهم ومعه الوافر من الهدايا النفيسة والكثير من الذهب والفضة قدمه للملك الإسباني وباشر معه مفاوضات تهدف إلى قيام سلام بين المملكتين. وقد توصل الاثنان إلى اتفاق وضع حداً نهائياً للحرب. وقد قبل ابن عباد بموجب الاتفاق المذكور بالشروط التي فرضها فرناندو الأول وأهمها: دفع ضريبة مالية سنوية لمملكة

---

(١) Primera Cronica General, P. 490.

قشتالة وتسليم سفراء ينتدبهم الملك الإسباني بقايا القديسة خوستا شهيدة الاضطهاد الروماني[1] لنقلها إلى أراضي إسبانيا المسيحية. ومنذ ذلك الحين صار ابن عباد، كمن سبقه من ملوك الطوائف، من أتباع الملك القشتالي.

فرناندو الأول وغرناطة:

بعد انتصاره على أقوى ملوك الطوائف في الأندلس صار فرناندو الأول يعتبر نفسه بحق سيد شبه الجزيرة الإيبرية كلها وأقوى سادتها وملوكها. وعلى هذا رأى أن عليه أن يعمل على إخضاع أولئك الملوك الذين كانوا ما يزالون يحتفظون باستقلال بلادهم كاملاً ويرفضون تقديم فروض التبعية لعرشه. اختار أن يوجه قواه أولاً إلى مملكة غرناطة أقوى الدويلات البربرية معتمداً على عداء سائر الملوك العرب المسلمين لها ولسادتها. إلا أن البربر كانو أكثر حماساً لمقاومة الغزاة الإسبان فواجهوا دعاواهم وقواتهم أيضاً بقوة وجدية وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة[2]. وبذا استطاعت غرناطة الاحتفاظ باستقلالها كاملاً وبأراضيها حرة.

فرناندو الأول وبلنسية:

هزيمة فرناندو الأول الشنيعة في غرناطة ما أثنت القشتاليين عن رغبتهم في متابعة مهاجمة أراضي الممالك الإسبانية معتمدين على عمق الخلافات بين الإسبان المسلمين واستحالة توحد قواهم. وفي سنة ١٠٦٤ قاد فرناندو الأول جيوشه، عبر أراضي المسلمين متجاهلاً مواثيق السلام التي كانت تشده إلى بعض ملوكهم فهاجم مدينة قلمرية واستولى عليها بعد حصار دام

---

(١) Primera Cronica General, P. 490.

(٢) كتاب الاكتفاء: صفحة ١٥٥.

ستة أشهر. والواقع أن سكان هذه المدينة، على فقرهم وضعفهم وعزلتهم عن باقي الأندلس أصروا على أن يقاوموا مقاومة الأبطال. ولذا فإنهم عندما استسلموا لفرناندو الأول فرض عليهم شروطاً قاسية ومذلة إذ أخذ منهم خمسة آلاف أسير وأجبر الآخرين على ترك المدينة وليس معهم إلا ما يكفي من المال لنفقات الطريق[1].

بعد استسلام مدينة قلمرية مباشرة وأيضاً بعد الاستيلاء على كل الأراضي المحيطة بها والواقعة بين نهري الدويرو والمونديغو قرر فرناندو الأول مدفوعاً بنشوة الانتصار متابعة الحرب ضد إسبانيا الإسلامية. اتجه هذه المرة في حروبه جهات شرق الأندلس وقصد على رأس جيشه الكبير مدينة بلنسية التي كان يدير أمورها ملك ضعيف يدعى عبد الملك، من حلفاء وأقرباء المأمون بن ذي النون. وبوصوله إلى أسوار المدينة ألقى عليها حصاراً قوياً طال بعض الوقت دون أن يتمكن من القضاء على مقاومة أهلها ودخولها. عند ذلك فكر باللجوء إلى الحيلة والخديعة للحصول على ما لم يستطع الحصول عليه بقوة السلاح. لقد أمر قادة جيشه برفع الحصار والتظاهر بالاستعداد للرحيل وذلك ليجعل البلنسيين يتخلون عن مراكزهم الحصينة على أسوار المدينة وفي أبراجها ويخرجون من بلنسية. وفعلاً انخدع المقاومون وأخذوا بنشوة الانتصار وغادروا مدينتهم ليلحقوا بأعدائهم المنسحبين. وهناك عند مشارف بلنسية جرت معركة رهيبة، بل ربما مذبحة، قتل فيها جل المقاتلين البلنسيين. ومع هذا فإن من كانوا داخل المدينة ومن انضم إليهم ممن فروا من ساحة المعركة ما قنطوا ولا استسلموا وإنما عادوا إلى التحصن داخل أسوارهم واستمرت المدينة مقاومة للحصار عاصية على المحاصرين. إلا أن أوضاع السكان الغذائية وقدراتهم على

---

(١) Dozy, T II, P. 256.

المقاومة والصمود كانت في تراجع مستمر رغم ما كان يصلهم من آن لآخر من عون ومدد من المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة. غير أن القدر تدخل في سنة ١٠٦٥[1] لإنقاذ المدينة إذ أصيب فرناندو الأول وهو في معسكره بمرض شديد أجبره على رفع الحصار والعودة مع جنوده إلى عاصمته حيث توفي بعد أربعة أيام أي في السابع والعشرين من كانون الأول من العام المذكور.

وقد بلغ فرناندو الأول قمة نفوذه وقوته في السنوات الأخيرة من حياته، بالرغم من الهزيمتين الكبيرتين اللتين مني بهما في غرناطة وبلنسية، إذ كانت انتصاراته على ملوك الأندلس عموماً قوية وباهرة وأذلت أكثر من واحد من كبرائهم وأقويائهم. والواقع إن دولة الإسلام في إسبانيا ما عرفت منذ قيامها مثل ما أنزل بها فرناندو الأول من هزائم وإذلال. لقد فقد المسلمون على أيام هذا الملك الكثير مما كان لهم من تفوق عسكري وسياسي في شبه الجزيرة الإيبرية كما فقدوا الكثير من هيمنتهم ومكانتهم. بل أكثر من ذلك ولأول مرة منذ ارتفع علم الإسلام في إيبريا اضطر ملوك مسلمون لتقديم فروض الخضوع والتبعية لملك إسباني مسيحي. ويعود تراجع مكانة المسلمين وقوتهم في الأندلس في هذه الفترة لأسباب واعتبارات متعددة. لقد سبق أن حمل المنصور ابن أبي عامر علم دولة الإسلام خفاقاً ظافراً حتى أقصى بقاع شمال غرب إسبانيا وجعل النصرانية الإسبانية في وضع لا تحسد عليه مما أوجد ردود فعل عكسية في ضمائر الإسبان النصارى. لقد دخل في قناعة هؤلاء إنهم، مع الدولة العامرية في القرن العاشر للميلاد صاروا مهددين أكثر من أي وقت مضى في وجودهم وعقائدهم وفي وطنيتهم الإسبانية. وعلى هذا فحين أتاحت لهم انقسامات الأندلسيين في القرن

---

(١) Espana del Cid. Pidal, II, P. 153.

الحادي عشر الفرصة المناسبة بادروا لخوض سلسلة من الحروب بقصد مباشرة حركة استرداد الأرض من أيدي المسلمين. ومع إن هذه الحروب، التي خاضها بشجاعة وبراعة زعيم قشتالة فرناندو الأول، ما كانت حاسمة ولا أزالت وجود الإسلام من إيبريا إلا أنها ثبتت دعائم النصرانية الإسبانية ووضعت حواجز بين إسبانيا المسيحية وإسبانيا الإسلامية ما استطاع قادة هذه الأخيرة بعد ذلك تجاوزها بنجاح ولو مرة واحدة. وإضافة إلى ما أثارته حروب المنصور من ردود فعل عنيفة ضد دولة الإسلام في الأندلس في أوساط الإسبان فأنها استنفذت إمكانات الأندلسيين وطاقاتهم لمدة طويلة وتركتهم في حالة من التعب والإرهاق الشديدين. والأسوأ من ذلك إن سياسة المنصور الداخلية واستبداده بالدولة والحكم ذهبا بما كان للخلافة من هيبة ومكانة وبالتالي فإن هذه المؤسسة التي طالما كانت رمز وحدة الأندلسيين وعماد كيانهم قد فقدت فعاليتها. وما أن غيب الموت المنصور وابنه عبد الملك حتى اجتاحت إسبانيا الإسلامية مرحلة من الفراغ السياسي المرعب سار بالأندلس بعد فترة من الفتن والاضطرابات إلى غياب الخلافة الأندلسية نهائياً. وقد تبع ذلك تمزق الأندلس واستيلاء مجموعة من الملوك والأمراء وأصحاب مراكز القوى المتخاصمين والمتناحرين فيما بينهم على أراضيها. وأخيراً لا بد من التذكير بأن عداء المنصور للارستقراطية العربية وخوفه من نفوذ أبنائها جعلاه يفتح الباب واسعاً أمام هجرة البربر من شمال إفريقيا إلى شبه الجزيرة الإيبرية مما أدى إلى تواجد ذلك العدد الكبير من الدويلات البربرية المعادية للعرب وحضارتهم بعد سقوط الخلافة الأندلسية. والدور المخرب والمثير دوماً للاضطراب والحروب الأهلية الذي قام به البربر في القرن الحادي عشر في الأندلس أساء كثيراً لدولة الإسلام في إيبريا وعرقلا كل مسعى لإعادة الوحدة. وعلى هذا وعند بداية مرحلة الانهيار في الأندلس في سنة ١٠٠٨ كان هناك في الجانب الآخر من

شبه الجزيرة الإيبرية عند الإسبان النصارى «سانشو الكبير» على أتم استعداد للاستفادة من أية فرصة يتيحها له المسلمون. إلا أن هذا ما استطاع أن يحقق في مجال الاسترداد طيلة حياته مكاسب كبيرة لأن الأوضاع السياسية شمال نهر الدويرو ما سمحت له بالكثير. إنما مع مجيء ابنه فرناندو الأول إلى الحكم، المعروف بتقاه وورعه واستقامته وشجاعته أيضاً، أمكن تحقيق ما لم يحدث قبل ذلك على صعيد استرداد أراضي من أيدي المسلمين. لقد أذل فرناندو الأول الأندلسيين وأخضع لسيادته أقوى ملوكهم وباشر بالفعل وبنجاح حروب الاسترداد.

النزاع بين أبناء فرناندو الأول:

كان فرناندو الأول شديد الانتماء إلى العقلية الإقطاعية بمختلف مظاهرها، والسائدة في العصور الوسطى في أوروبا الغربية. فهو، مثل شارلمان ولويس التقي وغيرهما كان ينظر للمُلك على أنه ملكية شخصية فلا يفرق بين ما هو خاص وما هو عام، ولذا عمل على تقسيم مملكته، كأي إرث عادي، بين أولاده. قد يبدو لنا مثل هذا الأمر اليوم غير معقول وغير منطقي خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تعرضت له المملكة من آلام ومصاعب عندما قسمها والده والجهود التي بذلها فرناندو الأول والحروب العديدة التي خاضها ضد إخوته حتى تمكن من إعادة إحياء وحدة المملكة. إلا أن عقلية العصر، وفرناندو هذا منه، كانت قوية وطاغية لا يمكن تخطيها بسهولة ويسر. لقد نسي فرناندو متاعبه القديمة وتجاهل كل نصائح وجهاء ومقدمي بلده وأعطى كل واحد من أولاده بعض الأراضي وفق ما يلي:

- أخذ ابنه الأكبر كل أراضي قشتالة ومعها ما للعرش من نفوذ في سرغوسة.
- حصل ألفونسو على كل أراضي مملكة ليون ومعها السيادة على مملكة طليطلة وفق الاتفاق المعقود مع ملكها المأمون ابن ذي النون.

ـ وعادت أراضي جليقية والقسم الواقع تحت سيادة الإسبان النصارى من بلاد البرتغال الحالية إلى غرسية. وهذا أخذ فوق ذلك الحقوق التي تعطيها الاتفاقات المعقودة مع مملكتي إشبيلية وبطليوس.

أعطى السيادة على كل ممتلكات الأديرة في الممالك الثلاث، شرط عزوفهما عن الزواج، لابنتيه ألفيرا وأوراكا.

وقد ورث سانشو، أكثر الإخوة نشاطاً وحيوية وأشدهم نزوعاً نحو الحرب والقتال، مع ما ورث الإيمان بوحدة المملكة والالتزام بجميع الطموحات والاتجاهات التوسعية التي طالما كانت أساساً في تاريخ قشتالة وتقاليدها[1]. ذلك أنه خلال القرن الحادي عشر جرت محاولتان لتحقيق وحدة إسبانيا المسيحية كانت الأولى مع جده سانشو الكبير والثانية مع أبيه فرناندو الأول والاثنتان انطلقتا من قشتالة والقشتاليون كانوا أداتها ورجالها بالدرجة الأولى. وإضافة إلى كل ذلك صارت إليه مهمة متابعة الحرب مع مملكة ليون باعتبار إنه ما استساغ ولا رأى في مصلحة إسبانيا المسيحية أن تنفصل ليون عن قشتالة وأن تذهب إلى أخيه الثاني[2]. وألفونسو أيضاً ما كان راضياً عن التقسيم الذي تم بين الإخوة إذ ساءه أن تصبح مدينة ليون في عهده عاصمة لمملكة صغيرة بعد أن كانت زمن أبيه مركزاً لكل إسبانيا النصرانية. وقد رأى الأخوان أن يحتكما، مرة واحدة، إلى السلاح فاجتمعا في مدينة برغش بحضور السيد الكمبيطور[3] واتفقا على أن تجري المعركة الحاسمة

---

(١) Espana del Cid, T.I, P. 597.

(٢) Espana del Cid, T.I, P. 165.

(٣) El Cid Campeador فارس من عائلة نبيلة في قشتالة. خدم في بلاط هذه المملكة أيام الملكين سانشو وألفونسو السادس في القرن الحادي عشر. وضع سيفه في خدمتهما وحارب ملوك الطوائف. اختلف مع ألفونسو السادس وتركه ووضع سيفه في خدمة من يدفع. حارب بعض الأحيان لحساب بعض ملوك المسلمين ونال شهرة كبيرة في منطقة شرق الأندلس.

بين جيشي سانشو وألفونسو في التاسع عشر من تموز على الحدود بين أراضي ليون وأراضي قشتالة . وتوافق الاثنان على اعتبار نتيجة المعركة بمثابة حكم إلهي غير قابل للنقاش والرفض يسلم بموجبه المهزوم أراضي مملكته وعرشها للمنتصر[٢] . جرت المعركة بعد ثلاثة أشهر من الاجتماع الودي الثلاثي وهزم فيها أهالي ليون إلا أن سيدهم ألفونسو فر من ساحة القتال دون أن ينفذ ما التزم به سابقاً تجاه أخيه . وفي كل الحالات انتصار سانشو ما كان قوياً ولا كان حاسماً بحيث استحال عليه متابعة شقيقه والقبض عليه كما صعب عليه متابعة الحرب ضد ليون والاستيلاء على أراضيها . وقد عوض سانشو عن ذلك بتوجيه جنوده وحرابه ضد سيد مملكة سرغوسة الذي تمنع عن دفع الضرائب التي كان قد التزم بها تجاه سيد قشتالة المتوفي فرناندو الأول . وبالمقابل فإن ألفونسو ، في محاولة منه للتعويض عن هزيمته أمام رعاياه وجه حراب جنوده نحو مملكة بطليوس التي كان سيدها آنذاك على فراش الموت . والغريب في هذا التصرف إنه كان يتجاوز فيه حدود التقسيم الذي فرضه والده وتدخل في شؤون مملكة مسلمة كانت الهيمنة عليها من حق أخيه غرسية . ويبدو إنه أخذ هذا المنحى مضطراً لكونه كان بحاجة ماسة لعمل يرفع به مكانته في عيون الإسبان النصارى ويظهر فيه مثل أخيه سانشو بطلاً من أبطال استرداد الأراضي من أيدي المسلمين . وهو ما كان قادراً على مهاجمة أراضي مملكة طليطلة على اعتبار أن صاحبها ، آنذاك ، المأمون ابن ذي النون كان قوياً وقادراً على رد العدوان عن أراضيه . هذا مع الإشارة إلى أنه كان ينفذ أحكام اتفاقه مع فرناندو الأول بدقة وحذر .

وأمام العدوان الذي مارسه ألفونسو على أراضي بطليوس ، ما وقف

---

(١) Espana del Cid, T.I, P. 166.

(٢) Aguado Bleye, T. I. P. 597.

المأمون موقف المتفرج ، وإنما تصرف باعتباره أقوى السادة المسلمين في وسط شبه الجزيرة الإيبرية ، فبادر إلى إغاثة المملكة المعتدى عليها مما جعل الملك الإسباني ألفونسو يوقف غزوه ويسحب جنوده بعد أن حصل على عهد من ملك بطليوس بالعودة إلى دفع الضرائب التي سبق أن التـزم بهـا تجـاه فرناندو الأول . ومع أن المأمون ما دخـل أراضـي بطليوس إلا لرد عدوان ألفونسو عنها فإن الرجلين قد تعارفا وتفاهما وهناك قامت بينهما نواة صداقة ستقوى وستتوطد مع الوقت .

وكان المأمون شديد الحرص دائماً على الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع جيرانه في إسبانيا النصرانية على اختلاف أشخاص الحاكمين فيها . ومن هنا كان ينفذ بدقة ما التزم به من ضرائب بموجب اتفاقه القديم مع ملك قشتالة . لقد كان يعتبر هذه العلاقات الحسنة ضرورة هامة لإشاعة السلام على حدوده الشمالية مما يتركه حراً في ممارسـة سياسـة توسـعية علـى حسـاب السـادة والأمراء الصغار في إسبانيا الإسلامية .

إلا أن العلاقة بين الأخوين الإسبانيين ألفونسو وسانشو ما لبثـت أن تحسنت تدريجياً مما جعل ألفونسو في سنة ١٠٧١ يزور شقيقه ويحضـر في بلاطه لقاءً موسعاً حضرته الشقيقتان أوراكا وألفيرا[١] . وقد حل الأخوان في هذا الاجتمـاع خلافاتهمـا علـى حســاب الأخ الثالــث غرسية سيد جليقية المعروف بضعفه وقلة مواهبه واتفقـا علـى اجتياح أراضيه وتقاسمهـا فيمـا بينهما[٢] . وبعد مرور حوالي الشهر ونصف الشهر على هذا الاتفاق اجتاحت جيوش سانشو أراضي غرسية فهزمته في شهر أيار من العام المذكور وأبقته سجيناً في مدينة شنترين . ثم عاد بعد عدة أيام فأطلق سراحه على أن يذهب

---

(١) Espana del Cid, T.I.P.169.

(٢) Aguado Bleye, T. I. P. 597.

ليقيم في بلاط المعتمد ابن عباد في إشبيلية على اعتبار أن المعاهدة المعقودة بين فرناندو الأول وابن عباد قد صارت التزاماتها من حق غرسية بموجب أحكام التقسيم. وبذا تقاسم الأخوان مملكة جليقية خلافاً لإرادة أبيهما. إلا أن الصلة الطيبة بين سانشو وألفونسو لم تعمر كثيراً، من جهة لأنها قامت على مطامع ومصالح آنية ومن جهة أخرى لأن سانشو كان مصمماً أكثر من أي وقت مضى على متابعة السعي لإعادة تحقيق وحدة مملكة أبيه تحت زعامته. وبعد وقت يسير من إنجاز تقاسم جليقية عاد الخلاف فظهر بين الأخوين أقوى وأخطر من السابق. وفي الأيام الأولى من كانون ثاني من سنة ١٠٧٢ جرت بين الاثنين معركة حاسمة في أراضي بني غومس المسلمين حلفاء ألفونسو هزم فيها هذا مع حلفائه هزيمة شنيعة ووقع أسيراً بيد أخيه سانشو الذي سار مباشرة بعد انتصاره إلى مدينة ليون حيث توج ملكاً على ليون وقشتالة في الثاني عشر من الشهر المذكور. أما ألفونسو فقد ألقى به أخوه سجيناً في حصن برغش. وقد أسرعت أوراكا التي كانت شديدة الحب لأخيها ألفونسو إلى ليون وأقنعت سيدها بإطلاق سراحه. وقد تم ذلك بعد أن تعهد ألفونسو بالاعتراف بما حصل وبتقديم فروض الطاعة والولاء لأخيه وأيضاً بالذهاب للعيش بالقرب من صديقه المأمون في طليطلة.

ألفونسو السادس في طليطلة:

في كانون ثاني من السنة ١٠٧٢ سار ألفونسو إلى أراضي طليطلة، ومعه مولاه بدرو أنسورز وأخواه غنزالو وفرناندو، حيث اختار أن يقيم في ضيافة تابعه القديم المأمون ابن ذي النون. وهو ما فعل ذلك إلا لمعرفته التامة بأن سيد طليطلة يمتلك من القوة والقدرات العسكرية ما يكفي للدفاع عنه وحمايته من دعاوى أخيه ونواياه العدوانية حياله. والواقع أنه في تلك الحقبة بالذات من تاريخ القرن الحادي عشر، وكما يؤكد أحد المؤرخين المسلمين

(١) المعجب: ٧٢ صفحة

الثقاة، كان المأمون ابن ذي النون[1] أقوى ملوك الأندلس وأوفرهم مالاً وأكثرهم شرفاً. ذلك إن نفوذه ما كان يقتصر فقط على حدود مملكته وإنما كان يشمل أراضي بلنسية ويصل إلى أطراف مرسية ويتحفز للانتشار في أرجاء قرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية القديمة.

لجوء الملك ألفونسو إلى بلاط المأمون كانت له نتائج هامة في إسبانيا الإسلامية إذ أثار في ضمائر الأندلسيين ذكريات أيام غبرت كان لملوكهم فيها السيادة الفعلية على كل شبه الجزيرة. لقد أخذ الأندلسيون، بعد كل ما لاقوه من صعاب وهزائم، بعد غياب الخلافة الأندلسية، يتطلعون إلى المأمون ابن ذي النون على أنه وحده، من دون سائر ملوك الطوائف، القادر على إعادة تكوين وحدة الأمة الأندلسية بعد طول فرقة. وعندما رأى الأندلسيون الملك الإسباني القوي ألفونسو ابن فرناندو الأول الذي أنزل بالمسلمين ما لا حصر له من الهزائم والذي أذل دولة الإسلام في الأندلس أكثر من مرة، يدخل بلاط طليطلة باحثاً عن الأمان وطالباً الملجأ تذكروا أيام الناصر العظيمة ومنظر الملكة طوطة صاحبة نبرة تدخل بلاط قرطبة طلباً للعون والحماية[2]. مع هذا الحادث الهام وفي العام ذاته عاش المأمون ابن ذي النون أعظم أيام حكمه وتوجهت إليه أنظار التقاة والغيارى على دين الإسلام ودولته يرجون على يديه خلاص دولة الإسلام في الأندلس وبعث خلافة الناصر العظيمة. في طليطلة استقبل ألفونسو السادس بكل مظاهر اللياقة والاحترام الجديرة بملك

(١) هنا تجدر الإشارة إلى أنه منذ اليوم الذي هزم فيه ألفونسو على يد أخيه ما عاد هناك مجال للحديث عن تبعية المأمون تجاهه. ذلك إنه في الواقع، ومنذ تقسيم مملكة فرناندو الأول بين أولاده، زال كل مفعول جدي لمعاهدات التبعية التي وقعها مع ملوك إسبانيا الإسلامية. وإذا كان ملوك الأندلس ما أعلنوا ذلك صراحة لكي لا يثيروا صراعات جديدة مع إسبانيا المسيحية فإنهم، والمأمون أقواهم، تصرفوا باستقلال تام وكامل في ممالكهم تجاه أبناء الملك الإسباني.

(٢) Dunlop, P. 86.

عظيم . فقد حباه المأمون بكل مظاهر العطف والمودة وأعطاه منزلا خاصا به في حرم القصر الملكي يقوم على أحد تحصينات المدينة ويشرف على جسر القنطرة المعبر الأساسي إلى المدينة . لقد أتاح له كل أسباب العيش الهادىء بعيداً عن ضوضاء الأحياء الشعبية وبمعزل عن فضول الطليطليين . وإقامته في ذلك الموقع كانت تتيح له التنزه من آن لآخر في جنائن القصر الملكي القائمة عند الطرف الآخر من جسر القنطرة(١) . وخلال إقامته في طليطلة توثقت كثيراً علاقاته بالمأمون إذ كان يصاحبه من آن إلى آخر في رحلات صيد في أحواز المدينة كما كان يشاركه في بعض الاجتماعات العامة والأعياد . كان المأمون يحرص على أن يعامله أفضل معاملة ويغدق عليه في المناسبات العطايا والمنح الثمينة . وتصف رواية إسبانيا مسيحية قديمة معاملة المأمون لألفونسو قائلة : «كان ملك طليطلة المأمون يحب دون ألفونسو كثيراً وكان يعامله كأنه ابنه وكان يعطيه هبات كثيرة ويعامله معاملة مشرفة» «وأيضاً أحله في قصر كبير وفخم قريباً من قصره يقع خارج أسواره ليوفر عليه كل إزعاج قد يأتيه من داخل المدينة»(٢) وكان ألفونسو دوماً يظهر الشكر وعرفان الجميل لما يلقاه من كرم الضيافة ويعبر عن رضاه وسروره بأكثر من وسيلة . وشارك أكثر من مرة في حروب المأمون إلى جانبه يقاتل أعداءه ببسالة وشجاعة .

وليعطي مزيداً من الوقت لهواية الصيد ولينعم بهدوء وحرية أكثر طلب من صديقه المأمون أن ينزله حصناً اختاره يقع على ضفاف أحد روافد نهر التاج حيث تكثر الطرائد(٣) . وقد أعطاه ملك طليطلة دون تردد الحصن الذي طلبه فاتخذه مقاماً له وبقي فيه حتى عودته إلى وطنه . لقد كانت إقامة ألفونسو السادس في مملكة طليطلة عظيمة الفائدة له إذ عايش المسلمين وتعرف إلى

---

(١) Espana del Cid, T. I. P. 176.

(٢) Primera Cronica General de Espana, P. 503.

(٣) Primera Cronica General de Espana, P. 503.

عاداتهم وتقاليدهم وعرف بشكل جيد قدراتهم وإمكانياتهم الاقتصادية والعسكرية. بل تذكر إحدى الروايات القديمة إنه عرف آنذاك من خبر ورد على لسان الأندلسيين أفضل وسيلة للاستيلاء على طليطلة بتجويع أهلها. تذكر الرواية إنه حين كان يرتاح في ظل شجرة بعد جولة صيد سمع حواراً بين رفاقه من أتباع المأمون يتناول قضايا الحرب والقتال والحصار. وقد ورد على لسان واحد من هؤلاء «إن هذه المدينة إذا ما انقطع عنها مورد الخبز والخمر والفاكهة لسنوات سبع متوالية بحصار قوي استسلمت دون كبير صعوبة في العام الثامن»[٢]. إنما في كل الحالات يجب أن لا نتوقف كثيراً عند أمثال هذه الرواية التي تفتقر إلى المصداقية، ذلك إن المأمون كان آنذاك في قمة مجده وما كان أحد يفكر بقرب انهيار دولته واستسلام عاصمته. يضاف إلى ذلك إن ألفونسو السادس ما كان يعرف العربية لغة الطليطليين آنذاك ليفهم حواراً حول مواضيع فنية على درجة من التعقيد والصعوبة. إلا إن الشيء الثابت هو أن الملك الإسباني قد استفاد الكثير من إقامته لاجئاً في حمى بني ذي النون وتعرف إلى أحوال مملكتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية. وأيضاً تعرف إلى وضع المدينة الجغرافي والاستراتيجي كما تعرف إلى مسالك أحوازها ودروبها.

بعد إخراج ألفونسو من أراضي إسبانيا المسيحية انتقلت شقيقته أوراكا إلى مدينة سمورة التي كانت تحت سيادة بدرو أنسورز مولى الملك الإسباني لتقيم فيها ولتتخذ منها مقراً لأتباعها وأنصارها[١]. وفي هذه البلدة التقت ببدرو المذكور، صديق وحليف أخيها الذي جاء من طليطلة لعدة أيام متخفياً، واتفقت معه على مباشرة تنظيم معارضة مسلحة ضد أخيها سانشو ملك ليون وقشتالة وأيضاً على تحريض أهالي ليون على التمرد عليه والخروج على سلطانه. والواقع إنها ما

(١) Primera Cronica General de Espana, P. 504.

(٢) Aguado Bleye, T. I. P. 598.

وجدت صعوبة في تحريض أهالي ليون على سانشو إذ كانوا أصلاً يكرهونه ويرون أنه كان شديد التحيز لأهالي قشتالة على حسابهم. ثم إن ما سهل مهمتهما كون عدة من نبلاء ليون وسادتها قد حافظوا على ولائهم وإخلاصهم لملكهم المنفي ورفضوا الاعتراف بسلطان سانشو الذي اعتبروه مغتصباً لمُلك ليون. وكذلك كان يعارض ملكه بشدة بنو غومس لكثرة ما وجه من إذلال للفارس الإسباني السيد الكمبيطور.[1]

وعندما تسربت إلى سانشو أخبار تحركات أخته أوراكا المعادية له عزم على حمل السلاح ضدها والاستيلاء على مقرها مدينة سمورة. وألقى بالفعل حصاراً قوياً على المدينة التي قاومت بشدة وصمدت طويلاً يساعدها في ذلك ما كان لها من أسوار قوية وأبراج عظيمة اجتهد في ترميمها وتقويتها فرناندو الأول. لما طال الحصار واشتدت وطأة الجوع على أهل سمورة ووهنت قوى المدافعين عنها خرج من بينهم فارس يدعى أدولفو أخذ على عاتقه القيام بمغامرة ينقذ بها السكان المحاصرين. غادر أسوار المدينة خفية وتسلل إلى معسكر سانشو في غفلة من حراسه وقتله يوم الأحد في السابع من شهر تشرين أول ١٠٧٢. أثر ذلك تفرق جنود سانشو وأخلوا ساحة القتال عائدين كل إلى أهله وداره مخافة أن يثأر منهم أعداء سيدهم الملك المغدور وخاصة ألفونسو السادس. وما كان هذا، على الأرجح، جاهلاً بما كان يجري في سمورة وليون، ذلك أن مولىً له يجيد العربية كان يخرج دوماً من القصر يتجول على طرق الشمال الإسباني يتسقط أخبار إسبانيا المسيحية وخاصة تفاصيل ما يجري في ليون من المسافرين وربما من جواسيس وعملاء ترسلهم أوراكا. ومن جهة ثانية فإن المأمون الذي كان يحرص على صيانة أراضي مملكته ومعرفة ما يعبر مسالكها ودروبها ما كان جاهلاً بالأحداث الجارية على الجانب الآخر من حدود بلاده. وقد حمل له عملاؤه وجواسيسه

(١) Aguado Bleye, T. I. P. 598.

أخبار حصار سمورة بكامل تطوراته كما عرف بمقتل سانشو بعد حدوثه مباشرة[1].

ومن جهتها أوراكا فقد بادرت حال معرفتها بمقتل سانشو بإرسال مبعوث إلى ألفونسو يخبره بما وقع ويدعوه للعودة مسرعاً لتسلم عرشه. وتذكر المصادر الإسبانية القديمة إن الملك الإسباني، حاول ساعة معرفته بما حصل أن يخرج في غفلة من مضيفه المأمون ودون أن يخبره بما عزم عليه[2]. إلا أن المرجح أنه ما خرج إلا بموافقة ورضى المأمون باعتبار أن هذا ما كان عنده سبب يبرر منع ضيفه من الخروج لاستعادة ملكه ونفوذه. ثم إن النهج الأساسي الذي اعتمده منذ ارتقائه عرش طليطلة والقائم على أساس المحافظة على علاقات الصداقة وحسن الجوار مع الإسبان النصارى في الشمال كان يقويه ويدعمه وجود صديق لمملكة طليطلة على رأس السلطة في قشتالة المجاورة. وتتويج ألفونسو السادس ملكاً على أراضي قشتالة وليون كان أفضل ضمان لقيام واستمرار هذه العلاقة.

قام ألفونسو، كما تقول المصادر الأندلسية، بزيارة القصر الملكي، مودعاً سيده وطالباً منه الإذن بالسفر إلى وطنه. وقد شكر سيد طليطلة على ما لاقاه وحاشيته من ترحاب وكرم ضيافة وحماية عند المأمون. والمأمون الذي كان على اطلاع بكل ما حصل في إسبانيا المسيحية وربما أيضاً بتحريض بعض أتباع ألفونسو لسيدهم على العودة سراً إلى ليون بادر ضيفه بقوله: «الحمد لله الذي خلصني من الغدر وأبعد عنك الأخطار. إذ لو أنك حاولت السفر سراً وخفية عني لوجدت أمامك السجن أو الموت باعتبار إني قد اتخذت كل الاحتياطات الأمنية اللازمة لكي لا يحصل مثل هذا السفر دون

(١) Aguado Bleye, T. I. P. 598.

(٢) Premera Cronica General, P. 514.

معرفتي. والآن اذهب بعون الله واستعد ملكك وسيكون لك من المال والسلاح ما تطلب لمساعدتك على استعادة قلوب رعاياك»[١].

وهكذا وفي يوم وصول مبعوث أوراكا خرج ألفونسو وحاشيته من طليطلة إلى ليون. وقد رافقه في سفره حتى الحدود المأمون ابن ذي النون حيث أقسم الملكان على المحافظة على تحالفهما[٢] ليشمل ابن المأمون من بعده[٣]. وقد ترك لنا رئيس الأساقفة رودريك وصفاً مسهباً لوقائع الوداع أظهر الحد الكبير الذي ذهب إليه المأمون في تكريم ضيفه الإسباني ساعة وداعه. «تحدث في هذا المجال دون رودريك رئيس الأساقفة عما فعله المأمون عند مغادرة ألفونسو مملكته إذ خرج معه وأحاطه بكل مظاهر التكريم... وقد ودع كل واحد منهما الآخر بكل مظاهر الحب»[٤]. وعند وصوله إلى مدينة سمورة وجد أخته أوراكا تنتظره بشوق وحنان. ومعها توجه إلى القصر الملكي حيث استقبل أسقف ليون ووجهاء ومقدمي المملكة. وتوافد إليه أيضاً زعماء من أستورياس وجليقية والبرتغال جاؤوا يرحبون بعودة مليكهم القديم ويجددون له آيات الخضوع والولاء[٥]. وقد استقبل أيضاً وفداً من زعماء قشتالة ممن كانوا يعارضون سياسة أخيه سانشو. ومع

---

(١) Espana del Cid, T. I. P. 189.

(٢) Espana del Cid, T. I. P. 189.

(٣) تذهب الرواية الإسبانية إلى أن القسم بالمحافظة على التحالف يشمل ابن المأمون البكر «هشام». وربما إن هذا التفسير قد وضع بعد استرداد طليطلة. فالمنطقي والمعقول أن يشمل القسم على التحالف الشخص الذي سيخلف المأمون على العرش. وعند سفر ألفونسو السادس إلى بلاده كان معروفاً في طليطلة إن خليفة المأمون هو حفيده يحي القادر وليس ولده. وأظن إن هذه الرواية ما وضعها مؤلفوها إلا لتبرير ما أقدم عليه ألفونسو السادس فيما بعد من استيلاء على مملكة طليطلة وطرد ملكها القادر ابن ذي النون.

(٤) Primera Cronica General de Espana, P. 514 - 515.

(٥) Aguado Bleye, T. I. P. 598.

هؤلاء وبرفقتهم قصد مدينة ليون عاصمته القديمة[1].

العلاقات بين المأمون والملك ألفونسو:

ومنذ أن عاد ألفونسو إلى عاصمة ملكه ليون أخذ يعتبر نفسه سيد إسبانيا المسيحية كلها دون منازع إذ ملك تقريباً على كامل الأراضي التي كانت في السابق تشكل مملكة أبيه فرناندو الأول. إلا أن الوضع على الجانب الآخر كان مختلفاً عما كان عليه زمن أبيه فقد غاب الحكم الضعيف والفقير والمشرذم وساد مُلك المأمون ابن ذي النون أقوى وأقدر ملوك إسبانيا الإسلامية. والواقع إن الاثنين كان يدرك كل منهما قوة الآخر وقدرات وإمكانات بلاده الكثيرة فانتهجا سياسة تقوم على الاحترام المتبادل والصداقة. وما حاول أحد منهما اعتبار الآخر مولىً له أو تابعاً لدولته. بل أكثر من ذلك ظل الملك الإسباني طيلة حياة المأمون يظهر الشكر والعرفان بالجميل للضيافة الكريمة التي وفرها له سيد طليطلة أثناء إقامته منفياً في حماه. وقد تصرف حيال جاره الملك الأندلسي باعتباره فارساً كبيراً ونبيلاً عريقاً. وما تردد في مناسبات كثيرة في تقديم العون والمساعدة له ضد أخصامه من ملوك الطوائف وبصورة خاصة حين كان المأمون يخوض حربه ضد المعتمد ابن عباد. وكان محور هذه الحرب الرغبة في السيطرة على قرطبة عاصمة الأندلس القديمة، من قبل ابن عباد وابن ذي النون. والواقع إن الصداقة المخلصة التي أظهرها دائماً ألفونسو السادس حيال المأمون هي التي أشاعت الهدوء على طول حدود هذا الأخير مع إسبانيا المسيحية مما سمح له بأن يركز كل طاقاته العسكرية في حملاته التوسعية على حساب جيرانه الملوك الأندلسيين وهي التي ساعدته بصورة خاصة على الاستيلاء على قرطبة. بل أكثر من ذلك هذه الصداقة هي التي سمحت له بأن يقوم بدور

---

(١) Espana del Cid, T. I. P. 191.

الحكم والوسيط بين ألفونسو السادس وبعض ملوك الطوائف مما رفع من مكانته بينهم. وحين عزم الملك الإسباني على محاربة باديس سيد غرناطة وإخضاعه لسلطانه تدخل المأمون بينهما وسيطاً ومصلحاً وأزال أسباب الخلاف بين بلديهما[1] مما حفظ لغرناطة استقلالها وصان سلامة أراضيها.

دامت هذه الصلات الطيبة بين المملكة الإسبانية ومملكة طليطلة حتى سنة ١٠٧٥ حين توفي المأمون ابن ذي النون. وقد أراد ألفونسو السادس، مخلصاً أن يتابع مع حفيده وخليفته القادر نفس السياسة، في البداية على الأقل، إلا أن عدم مقدرة هذا وقلة كفاءته وأيضاً تطور الأحداث السياسية في طليطلة تسبب بحدوث متغيرات جذرية في سياسة الملك الإسباني حيال جيرانه في المملكة المسلمة.

(١) مذكرات الملك عبدالله الزيري، مجلة الأندلس، ١٩٣٥ - ١٩٣٦، صفحة ٣١٩.

الفصل الخامس

غـزوات المأمون

بعد أن أنهى حروبه مع بني هود في سرغوسة وبني الأفطس في بطليوس، التي خاضها في مطلع حكمه، عاد إلى الانكفاء وراء حدوده يمارس سياسة خارجية تقوم على الحياد حيال ما يجري عند جيرانه من المسلمين كما من الإسبان النصارى. ومع إنه كان في ذلك الوقت يضمر الكثير من الطموحات والأهداف التوسعية، وبصورة خاصة حيال بعض الممالك الأندلسية المجاورة له، فإنه اكتفى بممارسة سياسة عسكرية متحفظة تسعى فقط للدفاع عن حدوده ومصالحه. وعلى هذا، وأيضاً بسبب إمكانيات مملكته الاقتصادية والعسكرية التي كانت آنذاك ما تزال محدودة، رأيناه ولمدة طويلة يكتفي بمراقبة ما يجري من أحداث خارج حدوده وبصورة خاصة تلك التي تواجهت فيها في ساحات القتال ممالك الطوائف البربرية بزعامة غرناطة مع تجمع الممالك العربية والصقلبية بقيادة بني عباد في إشبيلية. وكل ما كان يهمه في ذلك الوقت هو ضمان استقلال وسلامة أراضي حليفيه، أو بعبارة أصح تابعيه، سيد مقاطعة شنت مرية الشرقية وابن

رزين في السهلة. وأيضاً كان مهتماً إلى حد كبير بأن لا ينتصر بشكل نهائي أحد الفريقين المتخاصمين فيسود إسبانيا الإسلامية وتختل بذلك التوازنات الأساسية التي كان يقوم عليها وجود ممالك الطوائف.

إلا أن تغيراً أساسياً بدأ يحصل في طليطلة منذ سنة ١٠٥٦ م. الاتفاق مع فرناندو الأول أوجد سلاماً دائماً على الحدود مع مملكة ليون وقشتالة وزالت الحاجة لإبقاء جيش كبير في تلك المناطق. ثم إن السياسة الداخلية التي مارسها المأمون منذ بداية ملكه أوجدت ازدهاراً اقتصادياً كبيراً بدأت آثاره تظهر بشكل متزايد منذ بداية العقد السادس من القرن الحادي عشر. وقد بدا المأمون، إدراكاً منه لأهمية السلام مع جيرانه النصارى، شديد الحرص على استمرار اتفاقه مع الملك القشتالي، ينفذ أحكامه والتزاماته بدقة وعناية. ومع ذلك فإنه أصر على متابعة سياسة الحياد في شبه الجزيرة الإيبرية حتى سنة ١٠٦٥ متابعاً تركيز جل عنايته واهتمامه بأمور مملكته الداخلية. وكانت أهدافه الأساسية في هذا المجال تحقيق وحدة سكان المملكة حول عرش بني ذي النون، ومتابعة سياسة الإنماء الاقتصادي وتحصين البلاد ببناء حصون جديدة أو ترميم الموجود منها وتقوية المدن والبلدان بتعزيز أسوارها وتقوية أبراجها. وكان حرصه على البقاء محايداً عن كل ما يجري في البلاد ينبع أساساً من رغبته في متابعة سياسة الإنماء الداخلي حتى تعطي أكلها بشكل كبير. والواقع إنه منذ السنة ١٠٦٠ كان يبدو واضحاً للجميع نجاح المأمون الكبير في سياسته الإنمائية وأخذت طليطلة تبدو بين سائر حواضر إسبانيا الإسلامية الأغنى والأقوى والأقدر. بل أكثر من ذلك نمو طليطلة الباهر والكبير أنعش آمال بعض الأندلسيين بإمكانية إعادة وحدة الأمة الأندلسية بزعامة وقيادة عاصمة القوط القديمة.

وفاة فرناندو الأول سنة ١٠٦٥ وتقسيم ممتلكاته بين أولاده وبداية الصراعات المسلحة بينهم جاءت ليس فقط لتحرر المأمون من التبعية المذلة

التي كان يرتبط بها تجاه سيد قشتالة بموجب أحكام الاتفاق الموقع معه، وإنما لتجعله وبصورة علنية الملك الأقوى والأقدر في كل شبه الجزيرة الإيبرية. في هذه السنة بالذات قرر التخلي عن سياسة العزلة التي مارسها طويلاً، يعتمد في ذلك على ولاء أهل بلده له وعلى فعالية جيش بناه بعناية ودقة، وعلى سلام دائم عند حدوده مع جيرانه النصارى الإسبان، حيال أحداث الأندلس.

غزو بلنسية:

كانت دويلة بلنسية في شرق الأندلس تمارس منذ مدة طويلة، وبمبادرة من سيدها العامري، المنصور سياسة تقوم على الصداقة أو بعبارة أصح على التبعية تجاه طليطلة وصاحبها. ذلك إن هذا العامري كان يخشى دائماً سياسة بني عباد التوسعية فرآى أن يربط مصير مملكته بسيد طليطلة القوي والقادر على حمايته. ولتأكيد هذه العلاقة وتقويتها قام بطلب يد ابنة المأمون لتكون زوجة لولده البكر ولي عهده. تجاوب سيد طليطلة مع هذه الرغبة، وأعجب بفكرة زواج يربط بين المملكتين فأوفد بعثة كبيرة من الفقهاء والعلماء والوجهاء برئاسة ابن مغيث[1] إلى بلاط بلنسية لإجراء عقد الزواج. ثم أرسل بعد ذلك ابنته مع حاشية كبيرة إلى دار زوجها وأرسل معها تحفاً نادرة وهدايا ثمينة وجهزها أحسن تجهيز. وقد اهتم المأمون كثيراً بهذا الزواج وأدخله في حساباته السياسية لأنه جاء مؤآتياً لخططه المستقبلية. كان يرى في وجود صهر له على رأس هذه المملكة المشرقية الغنية ضماناً لاستمرار التحالف بين المملكتين من جهة، وحاجزاً أمام إمكانية قيام علاقات سياسية أو عسكرية بين البلنسيين والإشبيليين في مستقبل منظور. وقد احترم سيد بلنسية العامري طيلة أيام حكمه التزامه بأحكام التحالف مع

(١) التكملة: جزء ٢، صفحة ٥٥٢.

طليطلة واعتبر صلته بسيدها الذنوني حجر الأساس في سياسته الخارجية وفي تعامله مع سائر ملوك الطوائف. وقد أوصى قبل وفاته ابنه وخليفته عبد الملك بالمحافظة على الصداقة مع سيد طليطلة القوي والاعتماد دائماً على مكانته وقدراته الكبيرة لصيانة عرشه والدفاع عن أراضيه. وعند حصول الوفاة في سنة ١٠٦٠ ـ ١٠٦١ م لم يتردد الفقهاء وكبار المملكة البلنسية في تأييد عبد الملك عملاً بوصية أبيه ورفعه إلى سدة الملك[١]. الفريق المناوىء لأبيه وللعامريين عموماً في بلنسية رآى في صغر سنه[٢] وعدم خبرته في شؤون الحكم مبررات لإعلان التمرد ورفع لواء العصيان لمنع عبد الملك من الجلوس على عرش بلنسية. إلا أن عبد الملك هذا قاوم المتمردين عليه وصمد بوجههم بصورة خاصة بفضل الدعم الذي أمده به أصدقاء البيت العامري والمساعدة الفعالة التي قدمها له مساعده ابن روبش القرطبي إلى أن وصله العون العسكري من حليفه وقريبه المأمون سيد طليطلة.

وعندما وصلت أخبار التمرد والعصيان في بلنسية إلى أسماع المأمون نظر إلى الحادث بمنتهى الجدية إذ رأى في ذلك خطراً يتهدد تحالفه مع مملكة بلنسية ويفتح في حال نجاح العصاة أبواب هذه المملكة واسعة أمام أطماع وتدخلات خصمه ابن عباد سيد إشبيلية. انتقل هو ومساعدوه إلى مدينة قونقة ليكون قريباً من أراضي صهره عبد الملك. ومن هناك وجه جيشاً

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ١٦٥.

(٢) يفترض بريتو أي فيفس Prieto Vives أن عبد الملك المذكور كان طفلاً صغيراً عند وفاة أبيه وأنه حكم تحت وصاية وزيره ابن روبش. ولا أظن أن هذا الافتراض يقترب كثيراً من الواقع لأن كل المصادر الأندلسية تقريباً تشير إلى أنه كان شاباً صغيراً وليس طفلاً. وكلها تؤكد أنه حكم لوحده بعد وفاة أبيه وأن الوزير ابن روبش كان مساعده وأمين سره ولم يكن وصياً عليه. وكلها تجمع أيضاً على أنه عند وفاة أبيه كان زوجاً لابنة المأمون ابن ذي النون ولا يمكن الافتراض بأن طفلاً صغيراً يمكن أن يتزوج (البيان المغرب ـ ابن عذارى، جزء ٣، صفحة ٢٦٦، ٢٧٧، ١٦٥ ـ الحلة السيراء، صفحة ١٥٥ ـ ١٥٦ المخطوطة).

كبيراً بقيادة أحد أقرب مساعديه إليه للقضاء على المتمردين[1]. وأرسل مع الجنود جماعة من العلماء والمقدمين برئاسة الفقيه المشهور ابن مثنى[2]. وقد تمكن هذا الرجل والذي كان يعرف أحياناً بابن صبغون من التوصل بسهولة إلى إقناع المتمردين بعدم جدوى عصيانهم. ذلك إنه كان يعرف أكثرهم وكانت تربطه ببعضهم صلات وثيقة منذ أن كان يقوم بوظيفة مساعد لسيد بلنسية قبل أن يلتحق بخدمة المأمون. وبذلك انتهى عصيان بعض البلنسيين ضد عبد الملك سلماً ودون إهراق دماء. إلا أن هذا الحادث جعل المأمون على صلة أوثق بأوضاع بلنسية وأقنعه بالأوضاع الصعبة المحيطة بعرشها وجعله يدرك بصورة خاصة قلة مواهب صهره وعدم مقدرته على الحكم وعلى صيانة حدود دولته. إنما لكونه ما وجد الظرف موآتياً للقيام بضربة يستولي فيها على بلنسية فقد انسحب مع جيشه إلى طليطلة مبقياً رجل ثقته الوزير والعالم القرطبي ابن روبش[3] إلى جانب صهره عبد الملك. وقد كان المأمون يطمئن كثيراً لهذا الرجل لمعرفته بولائه الشديد للعامريين في بلنسية وأيضاً بحرصه على العلاقة الجيدة بين بلنسية وطليطلة.

في سنة ١٠٦٥ تعرضت بلنسية لهجوم قوي من جانب فرناندو الأول الذي اجتاح أراضيها، وهزم جيشها في معركة كبيرة جرت بالقرب من الطريق الرئيسية بين بلنسية ومرسية، وألقى حصاراً شديداً عليها وأشاع الموت والجوع في أراضيها. ونظراً لأهمية علاقته ببلنسية فقد رأى المأمون أنه لا يستطيع أن يظل متفرجاً على ما يجري فيها فقرر أن يهب إلى المغامرة بمساعدة صهره عبد الملك على ما في ذلك من خروج على أحكام اتفاقه مع الملك القشتالي ومن تجاوز لالتزامات تبعيته له. إلا أن مرض فرناندو الأول

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ١٦٥.

(٢) التكملة: جزء ٢ صفحة ٥٥٠.

(٣) وكان يعرف أيضاً بابن عبد العزيز.

المفاجيء جعله يرفع حصاره عنها ويعود إلى بلاده مما أنقذها من استسلام وشيك ومما خلص أيضاً المأمون من وضع حرج للغاية. بعد مغادرة فرناندو الأول إلى بلاده ووفاته بعد أيام قليلة رأى المأمون أن ينهي استقلال بلنسية ويضمها إلى مملكته مزيلاً بذلك عرش صهره عبد الملك. وقد شجعته على القيام بهذا العمل اعتبارات عديدة منها:

- وفاة فرناندو الأول وتقسيم مملكته بين أولاده ودخول هؤلاء في صراعات مسلحة فيما بينهم جعله يطمئن إلى استمرار الهدوء والسلام على حدوده مع إسبانيا المسيحية. وبالتالي ما عاد يخشى أي تدخل أو استغلال من هذا الجانب يعرقل مشاريعه التوسعية.

- لقد أظهر البلنسيون في مواجهتهم للقشتاليين تخلفاً مريعاً في المجال العسكري، كما أظهر سيدهم عبد الملك نقصاً فاضحاً في مواهبه القيادية والإدارية. وهذا كله يجعل من مملكة بلنسية فريسة سهلة أمام العباديين في إشبيلية.

- تفوق بني عباد وحلفائهم من ملوك الطوائف على الممالك البربرية وبصورة خاصة على الحموديين في مالقة وتسجيل انتصارات عديدة على هؤلاء رفع من مكانة ملك إشبيلية وجعل طموحاته أو أطماعه في تزايد مستمر. والمأمون يخشى إلى حد كبير على سلامة واستقلال بلنسية من هذه الأطماع.

- مجون عبد الملك المتزايد وإسرافه في معاقرة الخمرة ومجالسة رفاق السوء، معرضاً عن النصائح التي كان يعطيه إياها باستمرار الوزير العالم ابن روبش القرطبي، كانا يثيران مخاوف وقلق المأمون على مصير تحالفه مع بلنسية كما على مصير المملكة الحليفة نفسها.

مباشرة بعد انسحاب فرناندو الأول إلى وطنه اتخذ المأمون قراره

النهائي معتبراً، للأسباب المذكورة آنفاً، أن الوقت بات مناسباً لتوجيه الضربة القاضية إلى استقلال المملكة الحليفة. وربما ما كان صديقه الوزير ابن روبش بعيداً عن الإعداد والتدبير لهذا الأمر[1]. كتب المأمون إلى صهره عبد الملك يخبره برغبته في الحضور إلى بلنسية لزيارته. وبوصوله إلى أحواز المدينة نصب معسكره وأقام ينتظر مجيء عبد الملك وحكومته للترحيب به. وما تأخر هذا كثيراً، وبمنتهى البراءة وهدوء البال، في الخروج من مدينته والإقبال على عمه في معسكره مرحباً ومكرماً وداعياً إياه إلى الانتقال مع حاشيته وأتباعه للإقامة في القصر الملكي داخل المدينة.

وبعد أيام قليلة من إقامته في بلنسية باشر تنفيذ ما عزم عليه فألقى القبض على صهره وابنه وأعلن ضم ممتلكاته إلى مملكة طليطلة. وقد أنجز ذلك في العشرين من تشرين ثاني سنة ١٠٦٥[2]. ولتبرير ما أقدم عليه أمام البلنسيين ادعى أن عبد الملك كان يسيء معاملة زوجته قبل وفاتها. ومع إن هذه الرواية ينقلها إلينا المؤرخ الموثوق ابن عذاري فإنه لا يبدو لي منطقياً موافقته وافتراض أن هكذا سبب شخصي صرف يمكن أن يكون سبباً لكل ما قام به المأمون حتى توصل إلى الاستيلاء على بلنسية، علماً أن ابنة المأمون كانت قد توفيت منذ أمد. إذ المعقول والمنطقي أن يكون لما حدث أسبابه السياسية بالدرجة الأولى. فمن المعروف أن الاعتبارات السياسية وسلامة العروش والتيجان ووحدة الممالك كان لها دائماً الأولوية على الاعتبارات الشخصية والعائلية بين أباطرة وملوك العصور الوسطى. ولا يعقل الافتراض بأن ملكاً كالمأمون طالما اشتهر بحكمته وتعقله وبعده عن التهور يمكن أن يغامر بحرب لمعاقبة وتأديب صهر له. فأسباب الاستيلاء على بلنسية هي دون شك تكمن في اعتبارات سياسية تعود إلى رغبة المأمون بالتوسع من جهة

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٦٦.

(٢) Los Reyes de Taifas. P. 40

وإلى خوفه من سقوط المملكة بين يدي خصمه ابن عباد. وإذا كان قد ادعى غير ذلك فلكي لا يثير ضده أهالي المدينة لشدة ولائهم وإخلاصهم لسادتهم العامريين.

بعد قيام المأمون بانقلابه الناجح أقام في المدينة يعيد تنظيم إدارتها. عين على حكم المدينة رجل ثقته ابن روبش[1] (أبو بكر ابن عبد العزيز) ربما أيضاً لمكافأته على تعاونه في تدبير عزل الملك البلنسي[2]. في هذه الأثناء وردته من عاصمة ملكه طليطلة أنباء مقلقة جعلته يغادر بلنسية سريعاً إليها. فهو عندما ترك بلده لنجدة صهره صاحب بلنسية أوكل أمور الحكم في عاصمته إلى وزيره ورجل ثقته ابن الحديدي الفقيه[3]. يبدو أن هذه الثقة غير المحدودة التي كان المأمون يخص بها وزيره ما كانت تروق كثيراً للارستقراطية الأندلسية في المدينة. يضاف إلى ذلك إن طريقة ابن الحديدي وأيضاً أسلوب المأمون في التعاطي مع شؤون الدولة والحكم كانا يتسمان بالتشدد والحزم مما لم يكن يعجب كثيراً وجهاء طليطلة وعلماءها الذين استغلوا فرصة غياب ملكهم فتمردوا ورفعوا لواء العصيان في محاولة للتخلص من الوزير ابن الحديدي[4] وربما من سيده أيضاً. ولما كان ابن الحديدي شديد الولاء لسيده فقد بادر بإعلامه بما يجري في المدينة قبل أن يستفحل الأمر فعاد هذا فوراً إلى طليطلة وقمع الفتنة فيها وألقى القبض على كل الثائرين والمتمردين والمشكوك في ولائهم لعرشه وسلطانه وسجنهم في حصن وبذة.

(١) ابن الوزير ابن روبش الذي كان قد توفي قبل ذلك بعام واحد حسب ما يروي ابن حيان المعاصر لهذه الأحداث (الذخيرة).

(٢) الحلة السيراء، المخطوط، صفحة ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) الصلة: رقم ١٣٦٠، صفحة ٦٠٨.

(٤) الذخيرة: جزء ٤، صفحة ١١٧.

وقد أمر المأمون قبل مغادرته بلنسية بالعفو عن صهره وحفيده العامريين ونقلهما إلى بلدة شنتبرية ليعيشا فيها قريباً من طليطلة بحيث تسهل مراقبة تحركاتهما واتصالاتهما. وهناك توفي الأب بعد فترة قصيرة وهرب ابنه إلى سرغوسة ليعيش في ظل وحماية سيدها ابن هود. إلا أن العامري الصغير لم يلبث أن توفي هناك وبموته زال كل أثر لنفوذ العامريين وسلطانهم في الأندلس[٢].

وهنا يبدو من الطبيعي توضيح نقطة هامة تتعلق بالمكان الذي نفي إليه ملك بلنسية العامري والذي توفي فيه. ذلك إن المصادر الأندلسية ليست متفقة كلها على رأي واحد ورواية واحدة في هذا المجال. فابن عذاري يذكر في بيانه إن عبد الملك قد أجبر على الإقامة في شنتبرية كما ذكرنا بينما ذهب ابن الأبار إلى أن مدينة قونقة كانت ملجأه الأخير وفيها قضى نحبه[٣]. وفي مصدر ثالث نجد هذا الملجأ في مدينة أقليش. ونجد هذا الاسم في أوراق قديمة، مجهولة العنوان والمؤلف تتحدث عن فترة حكم ملوك الطوائف، وجدها ليفي بروفنسال وألحقها بالجزء الثالث من كتاب البيان المغرب لابن عذاري[٤]. وعند استعراض الروايات الثلاث وجدت ما قاله ابن عذاري، عن مقام الملك البلنسي في أواخر حياته في شنتبرية أقرب إلى الواقع والصواب للأسباب التالية:

- يبدو ابن عذاري، بصورة عامة، في بيانه أكثر المؤرخين معرفة بأخبار عصر الطوائف. والمعلومات التي نقلها إلينا عن أحداث الاستيلاء على بلنسية هي في مجملها صحيحة ودقيقة وتتوافق مع سائر الروايات

(١) الذخيرة: جزء ٤، صفحة ١١٧.

(٢) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٦٦.

(٣) الحلة السيراء: ١٥٥ - ١٥٦، المخطوطة.

(٤) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٣٠٣.

الأخرى في أكثر تفاصيلها. وهي بصورة عامة تخلو من التناقض والارتباك.

- يبدو من المنطقي والمعقول أن يختار المأمون لسجينيه مدينة شنتبرية القريبة جداً من طليطلة مما يسمح له بمراقبة تحركاتهما واتصالاتهما بدقة. ثم إن المدينة المذكورة هي موطن العائلة الذنونية الأصلي وأهلها يحملون الكثير من الحب والولاء للمأمون ولعرشه.

- ليس من المعقول الافتراض بأن المأمون، وهو المعروف بحذره وحكمته، يمكن أن يضع ملكاً سلبه عرشه وقيد حريته في مدينة قونقة القريبة جداً من بلنسية حيث كان ما يزال للعامري السجين أنصار ومؤيدون كثر.

- ولا يمكن قبول رواية المؤلف المجهول التي تجعل مأوى عبد الملك الأخير في إقليش لكون هذه الأوراق، على وفرة ما فيها من معلومات، تتضمن تناقضات وأخطاء كثيرة مما يفقدها الكثير من المصداقية والكثير من القيمة والوزن خاصة فيما يتعلق بأخبار مدينة بلنسية مما يجعلنا نميل إلى الافتراض بأن مؤلفها ما كان مطلعاً بما يكفي على أخبار هذه المدينة في القرن الحادي عشر.

وحين كان المأمون ينظم أمور بلنسية، قبل مغادرتها، اتخذ كل ما وجده ضرورياً من ترتيبات تضمن استمرار سيادته عليها. جرد المدينة من جيشها الخاص وألحق جنوده وضباطه بجيش طليطلة مما جعل هذا أوفر عدداً وأكثر قوة وبالتالي أقدر على تلبية حاجات الملك الذنوني التوسعية. ونظراً لمعرفته بأن وجهاء بلنسية ومقدميها ما كانوا راضين عما حدث في مملكتهم ولا كانوا موالين لعرشه فقد أمر عدداً كبيراً منهم بالانتقال إلى عاصمته[1] للعيش في ظله بحيث يأمن شرهم.

وقد بقيت مدينة بلنسية وممتلكاتها لمدة عشر سنوات وحتى وفاة

(١) Conde, P. 164.

المأمون تحت سيادته تشكل جزءاً أساسياً من ممتلكات عرشه. ويبدو أن ولاء أهالي المدينة عموماً للملك الذنوني كان طيلة هذه الفترة فوق الشبهات فشارك بعضهم في مختلف الحروب التي خاضها وساهموا بصورة أساسية وفاعلة في الحصار الذي ضربه على مدينة قرطبة.

وفي النهاية لا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض المصادر الأندلسية تزعم أن المدينة قد تمردت بعد أن غادرها المأمون واستعادت سيادتها واستقلالها. وتقول الأوراق المجهولة المؤلف، المنشورة مع البيان المغرب، إن الحاكم الذي عينه صاحب طليطلة هو نفسه الذي قاد العصيان وتزعمه[1]. إنما، واعتماداً على روايات عرف أصحابها بالصدق والدقة في تحري الأخبار، يمكن الجزم بأن المدينة ما استعادت استقلالها إلا بعد وفاة المأمون. فابن الخطيب[2] مثلاً يخبرنا بأنه عندما استولى ابن عكاشة على عاصمة الأندلس القديمة قرطبة باسم ملك طليطلة كان هذا مقيماً في بلنسية (كانون الثاني سنة ١٠٧٥ ـ جمادي الثانية سنة ٤٦٧ هـ). ويذكر ابن حيان أن أبا بكر ابن عبد العزيز الذي عينه المأمون حاكماً على بلنسية ظل يدبر شؤونها ويدير حكومتها باسم سيده حتى الأيام الأولى من مجيء خلفه وحفيده القادر. وفي أيام هذا الأخير تمرد ورفع راية العصيان والاستقلال، بتحريض ودعم من ابن هود سيد سرغوسة.

الاستيلاء على بياسة:

إلحاق بلنسية وأراضيها بمملكة طليطلة رفع كثيراً مكانة الملك الذنوني وأبرزه بين مسلمي الأندلس كواحد من أبطال السعي لإعادة الوحدة الأندلسية. ولو أن هذه الفكرة ما كانت بعد قد باتت شديدة الوضوح في سياسة المأمون

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٣٠٤.

(٢) أعمال الأعلام: صفحة ١٥٨.

وممارساته إلا إنه في كل الأحوال كان على درجة كبيرة من الذكاء مما ساعده في استغلال انتصاره إلى حد كبير.

في العام ١٠٦٦ م وقعت أزمة سياسية عنيفة في مملكة غرناطة المجاورة شدت أنظار المأمون إلى تطوراتها بصورة قوية. كان يساعد في هذا الوقت باديس سيد غرناطة وزير يهودي اسمه يوسف بن نغرللة عرف بصلفه وتعاليه عن الناس وكثرة مظالمه مما كان يسيء كثيراً للمواطنين من عرب وبربر وحتى لأبناء جلدته من اليهود[٢]. كان يطبق بقوة على دوائر المملكة ومؤسساتها مما ساعده في جمع ثروة طائلة. وكان يعاونه في كل ذلك جمع من أبناء دينه أوكل إليهم وظائف الدولة الهامة والأساسية. لقد كان بالفعل سيد مملكة غرناطة دون منازع وحاكمها الأساسي والأوحد. وبسبب خلاف شخصي بين هذا الوزير والشاعر المشهور «أبو اسحق الألبيري» نظم هذا قصيدة هجا فيها بشدة وقساوة ابن النغرللة وقومه. وقد تزامن ظهور هذه القصيدة مع استيلاء صاحب المرية ابن صمادح على مدينة وادي آش الهامة وما رافق ذلك من إشاعات تتهم الوزير اليهودي بالتآمر ضد سيده وتسهيل مهمة الغزاة في الاستيلاء على هذا الموقع العظيم التابع لمملكة غرناطة. من هنا كان تأثير القصيدة كبيراً في أوساط البربر، وكانوا يشكلون قسماً كبيراً من سكان غرناطة وأراضيها، فهاجموا في ٣٠ كانون أول سنة ١٠٦٦ قصر الوزير اليهودي وقتلوه ثم انتشروا في إحياء المدينة يلاحقون اليهود فيها فأجروا مذبحة رهيبة في ذلك اليوم قتل فيها حوالي أربعة آلاف منهم[٤].

وليس هناك شك في أن الوزير اليهودي قد تآمر بشكل أو آخر مع ابن

---

(١) الذخيرة: جزء ٣، صفحة ٩ (المخطوط).

(٢) Dozy, T. II. P. 250.

(٣) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٦٥.

(٤) الذخيرة: جزء ١ قسم ٢ صفحة ٢٧٢.

صمادح. ومن الصعب الذهاب مع ليفي بروفنسال، كما فعل في مقدمته لكتاب البيان المغرب، حين شكك في صحة الاتهامات الموجهة إلى ابن النغرللة. ذلك إن كل المؤرخين الأندلسيين، الموثوقين بصورة عامة، يؤكدون ضلوع الوزير في المؤامرة. فابن حيان يؤكد لنا أن الوزير اليهودي قد سهل لسيد المرية الاستيلاء على عدة من المواقع الهامة في مملكة غرناطة[1]. ويذهب ابن عذاري إلى أن هذا الوزير كان يعمل على دمج أراضي غرناطة والمرية في مملكة واحدة، تحت سلطانه هو، تشكل دولة عبرانية في شبه الجزيرة الإيبرية. والأرجح أن ابن عذاري قد ذهب بعيداً وبالغ في توجيه الاتهامات للوزير اليهودي حين قال إنه كان يريد إقامة دولة يهودية. والمرجح أن يوسف وجد نفسه مضطراً للتعاون مع سيد المرية ومساعدته في الاستيلاء على بعض أراضي غرناطة تقرباً منه واسترضاءً له لضمان ديمومة واستمرار نفوذه. ذلك إن سيده وولي نعمته ملك غرناطة كان قد أصبح طاعناً في السن يعدد أيامه الأخيرة. وكان من المعروف أن خليفته، حفيده المعز، يحمل أشد الكره والعداء للوزير اليهودي. ثم إن الجميع في غرناطة كانوا يتهمونه بأنه كان وراء مقتل أبيه ابن ملك غرناطة وهو لا يطمئن على مستقبله وحياته في ظل حكم المعز هذا[2]. ولهذه الأسباب اعتقد ابن النغرللة أن في مساعدة ملك المرية والتعاون معه ضماناً لمستقبله وحماية من ثأر سيتعرض له متى صار الحكم لحفيد باديس. وكان أصدقاؤه والمقربون منه جميعاً يعرفون أنه كان شديد الشعور بالخوف من المستقبل. وهو نفسه ما تردد مرة في أن يخبر أحد هؤلاء برغبته في التعامل مع صاحب المرية.

أثر مقتل الوزير اليهودي عزم صاحب غرناطة باديس على استعادة ما

(١) الذخيرة: جزء ١ قسم ٢، صفحة ٢٧١.

(٢) مذكرات الملك عبدالله الزيري، صفحة ٢٧١.

فقد من ممتلكات وبصورة خاصة وادي آش الغنية والهامة[1]. ولما كان باديس هذا يدرك تفسخ صفوف أتباعه، وضعف جيشه بالنسبة لما عند خصمه من إمكانيات عسكرية فقد قرر البحث عن حليف يساعده في طرد الغزاة من أراضيه. وقد بعث برسالة إلى الملك الذنوني إلقوي يطلب فيها منه مساعدة لطرد أهالي المرية من أراضيه على أن يعطيه بالمقابل ما قد يطلب من حصون وقلاع ثمناً لهذه المساعدة. ولما كان المأمون راغباً في توسيع رقعة ممتلكاته بأي اتجاه كان فقد بادر بنفسه على رأس جيش كبير فتوجه إلى وادي آش لمعاونة باديس في حصار كان قد ألقاه عليها[2]. كان الحصار طويلاً وشاقاً وباهظ الثمن إذ بلغت نفقاته حسب رواية ابن باديس نفسه ستة ملايين من الدنانير[3]. إنما في النهاية انتشر الجوع بين أهل المدينة وتعب المدافعون عنها من حرب طالت واستحال عليهم الانتصار فيها بوجه تحالف جيشين قويين ضدهم. قصد مقدموهم ووجهاؤهم المأمون وطلبوا إليه التوسط لدى حليفه باديس لإيجاد حل سلمي للحرب التي طالت. وقد وافق باديس على الصلح شرط أن يخلي أهالي المرية ومقاتلوهم وادي آش وأحوازها. وبذا عادت المدينة المغتصبة إلى مملكة غرناطة وتوقفت حرب طالت كثيراً بين المملكتين الجارتين.

وقد أوفى باديس بعهده وأعطى حليفه المأمون ابن ذي النون مدينة بياسة ذات الموقع الاستراتيجي الهام جداً لما كان يخطط له ملك طليطلة من مشروع للسيطرة على قرطبة. هذا مع العلم بأن ابن ذي النون ما كان صادقاً في تحالفه مع باديس إذ كان دوره أثناء الحصار أقرب إلى الوسيط منه إلى الحليف الفاعل. وقد كان للاستيلاء على بياسة فوائد هامة بالنسبة لمملكة

---

(١) الروض المعطار: ص ١٩٢.

(٢) مذكرات الملك عبدالله الزيري، ص ٢٧٤.

(٣) مذكرات الملك عبدالله الزيري، ص ٢٧٥.

طليطلة إذ امتدت أراضيها باتجاه الجنوب وباتت حدودها قريبة جداً من نهر الوادي الكبير.

الاستيلاء على قرمونة :

بين ممالك الطوائف القوية الثلاث غرناطة، إشبيلية وقرطبة كانت تقوم دويلة قرمونة ذات الرقعة الضيقة والتي كان يحكمها بنو برزال البربر الذين صار الحكم إليهم فيها بالوراثة من جدهم الذي كان المنصور بن أبي عامر قد جعله حاكماً عليها[1]. ونظراً لموقعها المتوسط بين ثلاث ممالك كل واحدة أغنى منها مالاً وأوسع أرضاً وأعز نفراً وأيضاً لكون العائلة الحاكمة فيها من أصل بربري في وقت كانت فيه الحساسيات البربرية ـ الأندلسية على أشدها فإن أهلها ما عرفوا السلام والأمن والاستقرار منذ سقوط الخلافة الأموية في قرطبة. كان عليهم أن يشاركوا مرغمين في ما عرفته الأندلس من صراعات وحروب لا حصر لها بين الممالك البربرية من جهة والدويلات التي أقامها العرب والصقالية من جهة أخرى. بعد سلسلة الانتصارات التي حققها بنو عباد في إشبيلية على الممالك البربرية واستيلائهم بصورة خاصة على أراضي دولة الجزيرة الخضراء الهامة قرروا الإجهاز على دويلة قرمونة، جارتهم التي طالما أزعجتهم بصمودها ومقاومتها لمطامعهم ورغباتهم بالتوسع على حساب أراضيها. أمام هذا الخطر الملح أدرك سيد بني برزال في قرمونة عدم قدرة جيشه الصغير على الصمود بوجه جيوش إشبيلية فقرر اللجؤ إلى جاره الآخر المأمون ابن ذي النون يطلب منه العون والمساعدة في الدفاع عن سلامة أراضيه وممتلكاته. ويبدو أن البرزالي كان قد تعب من مجاورة العباديين الأقوياء ويئس من قدرته على الصمود بوجههم فعرض على سيد طليطلة أن يعطيه دويلته على أن يقدم له هذا بديلاً عنها في

(١) العبر: جزء ٢، صفحة ٢٨٣، (Albadidum).

مكان آخر يكون فيه أكثر اطمئناناً وأوفر أمناً. وافق المأمون بسرعة على العرض وسار بجيشه فدخل أراضي قرمونة وضمها إلى مملكته وأعطى بالمقابل العز البرزالي حصن المدور وأراضيه[1].

أثار دخول جيوش الملك الذنوني أراضي قرمونة قلق ومخاوف سلطات إشبيلية إذ كانت ذات موقع هام بالنسبة لسلامة حدودها. ثم إن وجود ملك طليطلة القوي عند حدودها الشرقية كان لا بد أن يثير شكوك ومخاوف بني عباد نظراً لقدرتها على معاكسة أطماعهم ومشاريعهم التوسعية على حساب جيرانهم. وعلى هذا فقد باشر ابن عباد مفاوضات سرية مع المأمون ابن ذي النون يعرض عليه مساعدته في الاستيلاء على قرطبة، وذلك لمعرفته بما كان للمأمون من رغبة في ضم عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة إلى ممتلكاته، وذلك مقابل جلائه عن قرمونة وتسليمها للسلطات الإشبيلية. ونظراً لما كان لقرطبة من قيمة معنوية كبيرة عند سائر الأندلسيين ولما طالما سعى للحصول عليها فإن المأمون لم يتردد في قبول العرض المقدم من أعدائه التقليديين وتسليمهم أراضي ما كانت في نظره كبيرة الأهمية[2]. ومنذ سنة ١٠٦٧ باتت قرمونة قسماً من ممتلكات بني عباد سادة إشبيلية.

---

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٨٣.

(٢) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٨٣.

الفصل السادس

حرب قرطبة

الاتفاق الموقع بين صاحبي إشبيلية وطليطلة حول مستقبل قرطبة طمأن المأمون إلى حصوله على دعم وتأييد عدوه التقليدي وأنعش آماله بتحقيق حلم قديم طالما راوده . فابن عباد وابن ذي النون كان كل واحد منهما ، ومنذ أمد طويل يريد إنهاء استقلال قرطبة والاستيلاء عليها متى حانت فرصة مناسبة لذلك . إذ من المعروف أن سلسلة الحروب والصراعات الأهلية بين سائر ممالك الطوائف في الأندلس قد أدت في منتصف القرن الحادي عشر إلى إبراز إشبيلية وطليطلة على أنهما الأكبر سياسياً وعسكرياً في إسبانيا الإسلامية . ومن هنا هدف كل من صاحبي الدولتين إلى الاستيلاء على قرطبة لتتويج إنجازاته والوصول ربما إلى توحيد إسبانيا الإسلامية مجدداً وهذا لا يكون إلا عبر الحصول على قرطبة عاصمتها التقليدية . والواقع إن الرجلين قد حاول كل منهما حسم هذا الأمر وفي أكثر من مناسبة لمصلحته .

بنو عباد وقرطبة :

كان العباديون يعتبرون أنفسهم منذ سقوط خلافة قرطبة وصيرورة أمور

إشبيلية إليهم أحق الناس بإعادة وحدة الأندلس وأكثرهم التزاماً بذلك. وكانوا دائماً يدركون أن أية وحدة لإسبانيا الإسلامية تكون غير كاملة وغير ذات معنى إذا لم تكن قرطبة قاعدتها وعاصمة حكمها وملكها. وقد اعتبر ابن عباد منذ توفي يحي الحمودي، حامل لقب الخلافة، بحق أو غير حق، والهزيمة الساحقة لتجمع الممالك البربرية في سنة ١٠٣٥ م أن الوقت بات مناسباً لتحقيق حلمه، أو لما كان يعتبر نفسه ملزماً بإنجازه. وكان الاستيلاء على قرطبة لتنصيب «هشام الثاني» خليفة فيها خطوة أساسية لا بد منها لفرض سيادته على جميع الممالك الأندلسية. وعلى هذا عزم على الانتقال مع الخليفة «هشام الثاني» لجعله يقيم في القصر الخلافي في قرطبة. ولما كان ابن جهور في الأساس، غير معترف بسلطان هذا الخليفة ولا مؤمن بصحة نسبه وشرعية خلافته من جهة، ورافضاً من جهة أخرى كل دعاوى وطموحات العباديين فقد قرر التصدي وبقوة لهذه المحاولة. وقد توصل بسهولة لإقناع القرطبيين ببطلان دعوى ابن عباد وبأن من يأتيهم به ليس سوى دجال يدعي الخلافة دون حق. وقد بادر إلى حذف اسمه من خطبة الجمعة في مساجد العاصمة الأندلسية[1]. وبوصول ابن عباد ومن معه إلى أسوار قرطبة وجد أبوابها مغلقة في وجهه وناسها على أتم الاستعداد لمقاومته صيانة لاستقلال بلدهم وسيادتها. ولما كان عاجزاً آنذاك عن فرض دعاواه على القرطبيين وغير قادر على دخول بلدهم عنوة وبقوة السلاح فقد قبل العودة خائباً إلى إشبيلية مع خليفته.

وقد أجبرت أحداث السنوات التالية العباديين على وضع مشروع احتلال قرطبة جانباً إنما دون أن ينسوه أو يتخلوا عنه نهائياً. ومع إن سيد قرطبة ابن جهور مارس بعد ذلك ولمدة طويلة سياسة الحياد حيال كل

(١) العبر: جزء ٤، صفحة ١٥٩.

الصراعات المسلحة التي قامت بين ملوك الأندلس فإن ابن عباد لم يهادن المدينة ولم يظهر النية أبداً على احترام استقلالها وإرادة أهلها. وبعد عشرين سنة على المحاولة الأولى التي قام بها المعتضد ابن عباد قرر ابنه المعتمد في سنة ١٠٥٧ أن يعيد التجربة في محاولة لتحقيق ما عجز عنه أبوه. جهز لهذه المهمة جيشاً خاصاً اجتهد في جعله أهلاً للهدف العظيم الذي يصبو إليه، وجعل على رأسه ابنه إسماعيل وأمره بالذهاب للاستيلاء على قرطبة. إلا أن هذا تردد كثيراً في تنفيذ المهمة الصعبة لكونه، من جهة، قد تعب من حياة الحرب والمغامرة التي كان يدفعه إليها أبوه ومن جهة أخرى لخوفه من احتمال تدخل عسكري من جانب صاحب غرناطة باديس مما يهدد مشروعه بالفشل. إنما في النهاية وجد إسماعيل بن عباد نفسه مجبراً على الخروج فقاد جيشه باتجاه قرطبة وفي الطريق أقنعه صديق له مغامر من مالقة[1] بعدم جدوى مثل هذه الحملة فقرر العودة من حيث أتى دون أن ينفذ إرادة أبيه مدعياً بأن أخباراً وصلته تفيد أن باديس حليف وصديق القرطبي قد جهز جيوشه وأكمل عدته لمساعدة أهل قرطبة. ما استطاع المعتمد ابن عباد أن يكبح جماح غضبه على ابنه إسماعيل لإفشاله هذه الحملة، ولما كان يأخذ عليه من حماقات عديدة ارتكبها قبل ذلك فبادر لقتله بيديه[2]. وبذا فشل للمرة الثانية مشروع بني عباد للاستيلاء على قرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية. ومع هذا فالفكرة ظلت في ضمائرهم وبقيت حلماً يسعون لتحقيقه متى سنحت فرصة مناسبة.

بنو ذي النون وقرطبة:

صاحب طليطلة وإن كان يضمر في ذاته النوايا التوسعية حيال قرطبة، فأنه كان في ممارساته العلنية أكثر حكمة وتعقلاً من العباديين. كان ينهج

---

(١) الذخيرة: جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٣٩.

(٢) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٤٤.

حيال العاصمة الأندلسية سياسة تـراوح بين الصداقة والعداء حسب الظروف والأوضاع إنما دائماً دون الوصول إلى حد المخاطرة بحرب قد تضعـه في مواجهة مسلحة مع سائر أو بعض ملوك الطوائف بسبب قرطبة. إلا أنه بعد وفاة فرناندو الأول وما تبع ذلك من تمزق الصف الإسباني وعودة الاستقلال الكامل لدولة طليطلة صار المأمون أكثر جرأة في التعبير عن أطماعه التوسعية وأصرح في إظهار رغبته في الاستيلاء على قرطبة[1]. وكان يشجعه على ذلك بصورة خاصة أن سياسة الاهتمام بجيشه التي مارسها منذ أن ارتقى العرش جعلته أقوى سادة الأندلس عسكرياً في ذلك الوقت. إذ كان المأمون يدرك جيداً إنه من قرطبة وعبرها فقط يمكن مباشرة سياسة تهدف إلى إعادة جمع كل الأندلسيين، على اختلاف أجناسهم وعناصرهم في دولة واحدة. وبعد التوصل إلى اتفاق حول موضوع قرطبة مع العباديين بات المأمون واثقاً أكثر من أي وقت مضى من نجاح مشروعه إذ أبعد من طريقه القوة العسكرية الوحيدة التي كانت قادرة على معارضته والوقوف بوجه أطماعه.

قرطبة على أبواب الحرب:

عندما ارتقى سدة الحكم في قرطبة أبو الوليد ابن جهور في سنة ١٠٤٣، تابع سياسة أبيه القاضي مؤسس دولة قرطبة التي كانت تتسم بالحكمة والاتزان والبعد عن الصراعات الأهلية والعنصرية. وهذا أدى إلى بقاء واستمرار الهدوء والازدهار الاقتصادي اللذين عرفتهما قرطبة منذ صار الحكم فيها إلى بني جهور. وفي أواخر سنوات حكم أبي الوليد صير أمانة سره وشؤون حكومته إلى العالم الفقيه ابن السقاء الذي كان قبل ذلك مدبراً لأمور المدينة. وقد نجح هذا في بداية أمره في التعامل مع شؤون الدولة بحكمه وخبرة وتعقل كما تعامل مع القرطبيين بلطف ومرونة وتواضع. وبعد

(١) الذخيرة: جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٥.

فترة قصيرة من تسلمه شؤون الحكم دفع اقتصاد الدولة، المزدهر أصلاً، دفعة قوية في طريق التقدم والغنى، وعمل على ترسيخ وحدة القرطبيين بمواجهة كل الأخطار الخارجية التي كانت تتهدد استقلالهم[1]. خدماته الوفيرة للبلاد التي أثمرت كلها في المدى القصير وولاؤه الكبير لحكام قرطبة من بني جهور رفعا بسرعة من قدره ومكانته في كل أنحاء الدولة. إلا أنه كان لا بد أن يتأثر بالعقلية الاستغلالية السائدة في كل أجهزة الممالك الأندلسية فصارت له مع الوقت ثروة ضخمة وكثر أتباعه وأنصاره في الجيش كما في الإدارة وتحولت داره لتصبح المقر الحقيقي للحكم والحكومة[2]. وفوق ذلك تجمع حوله وفي حاشيته كثير من المنافقين من جهلة ووصوليين كانوا يسيؤون للمواطنين ويتهجمون على ارستقراطية المدينة العريقة وعلى علمائها وفقهائها مما صار يثير مع الوقت عداء المجتمع القرطبي للوزير ابن السقاء[3]. إلا أنه بالرغم من ذلك ظل هذا الوزير رجل الدولة القوي والمدافع عن سلامتها وحدودها بوجه كل الأخطار والأطماع الخارجية مما كان يؤدي إلى تزايد ثقة سيده به ودفاعه عنه بوجه معارضيه ومنتقديه من القرطبيين. ولما كان ابن عباد في إشبيلية قد أخذ يدرك بصورة متزايدة أن ابن السقاء هو العقبة الأساسية بوجه مشاريعه التي طالما سعى لتحقيقها والهادفة إلى السيطرة على قرطبة[4] فقد رأى في النهاية أنه لا بد من التخلص من هذا الرجل بأي شكل من الأشكال. دعى إلى زيارته في إشبيلية عبد الملك، أحد أبناء ابن جهور صاحب قرطبة، فأكرمه كثيراً وأخذ يحرضه على وزير أبيه مركزاً على كره القرطبيين المتزايد له وأقنعه بأن بقاء ابن السقاء

(١) الذخيرة: جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٣.

(٢) الذخيرة: جزء ٣، صفحة ١٨٨.

(٣) الذخيرة: جزء ٤، صفحة ١٩٠.

(٤) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٥١ ـ الذخيرة: جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٥.

في منصبه لا بد أن يشكل في المستقبل خطراً على حكم بني جهور. ولما كان عبد الملك في الأساس كارهاً لوزير أبيه يخاف تعاظم نفوذه وسطوته في الدولة فقد اقتنع بسهولة بمنطق ابن عباد وقرر التخلص منه بوضع حد لحياته. وفعلاً أقدم في سنة ١٠٦٣ على اغتيال الوزير وعشرين من حاشيته وأتباعه. هذا الاغتيال حرم قرطبة من أحد أفضل من تعاقبوا على إدارة شؤونها في عصر ممالك الطوائف وترك أبوابها مشرعة أمام مطامع ودسائس ومؤامرات الطامعين في الاستيلاء عليها من الملوك المجاورين وبصورة خاصة ابن عباد صاحب إشبيلية.

وبعد أشهر عدة من هذا الحادث الكبير أقدم صاحب قرطبة ابن جهور لمرضه وتقدم العمر به على التنازل عن الحكم لولديه إذ صير لأحدهما عبد الملك الشؤون العسكرية وقيادة الجيوش وترك لكبيرهما عبد الرحمن رعاية شؤون المال والإدارة والقضاء[1]. إلا أن عبد الملك معتمداً على ما صار له من شعبية في أوساط القرطبيين بسبب إقدامه على التخلص من الوزير ابن السقاء ومتذرعاً بضعف شخصية أخيه وقلة كفاءته في شؤون الحكم أقدم على اعتقاله ووضعه في السجن مما سمح له بالتفرد في حكم دولة قرطبة[2]. وقد حكم الناس بعد ذلك بطريقة استبدادية قاسية. إلا أنه مع الوقت أخذ يهمل أمور الدولة ويجنح بصورة متزايدة نحو الحياة السهلة المرحة. أكثر من معاشرة الجواري والقيان، وبالغ في الميل إلى الموسيقى والغناء وجعل جل عشرائه وندمائه من أهل الشراب والمجون. هذه الحياة المترفة كانت باهظة التكاليف فأرهقت مالية الدولة وأفرغت خزائنها في فترة زمنية قصيرة. وممارساته هذه أذهبت بالاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي مما اجتهد أبوه وجده في إيجادهما في عاصمة الأندلس. وبعد سنوات قليلة من بداية

(١) الذخيرة: جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٠.

(٢) أعمال الأعلام: ص ١٧٤.

حكم عبد الملك هذا ذهبت فعالية جيش الدولة ودب الوهـن إلـى صفوفـه وافتقر جنوده إلى المال والعدد فشاع الاضطراب وعدم الاستقرار في قرطبة مما جعل كل الطامعين بها، وبصورة خاصة المعتمد ابن عباد الذي صارت إليه مملكة إشبيلية منذ الثامن والعشرين من شباط سنة ١٠٦٩[1] يأملون بقرب خروج عاصمة الخلافة القديمة من أيدي بني جهور. إلا أن صاحب إشبيلية فضل آنذاك أن يتظاهر باحترام الاتفاق المعقـود بين أبيه وابـن ذي النـون والذي يعطي هذا الأخير الحـق بالاسـتيلاء علـى المدينـة، وذلك لحاجتـه للمحافظة على علاقة طيبة مع المأمون لاعتبـارات عسـكرية. والواقـع إن المعتمد ما كان يحترم هذا الاتفاق إلا في الظاهر بينما كان من وراء سـتـار يعمل المستحيل لكي لا تقع عاصمة الأندلس بأيدي الطليطليين.

المأمون يحاصر قرطبة:

منذ سنة ١٠٦٧ حين تنازل المأمون عن قرمونة لبني عباد في إشـبيلية مقابل التعهد بتأييده ومساعدته في الحصول على قرطبة، أخـذ يعـد العـدة لحرب ما عاد يخشى كثيراً خوضهـا. لقـد وضـع خطـة لاحتـلال العاصمـة الأنـدلسية درسـت بأدق تفاصيلهـا. اشتـرى كميات وافـرة من الأسلحـة واستحصل على مخزون كبير من الأغذية كما جمـع الجنـود من كل جهـة ضمهم إلى جيشه وكتب إلى حكام ومقدمي جميع مقاطعات مملكته يأمرهم بامداده بالعون والمساعدة. وما تردد في أن يضم إلى جيشه عدداً كبيراً من الجنود المرتزقة من إسبانيا النصرانية لقاء مرتبات كبيرة لأنه كان مصمماً على انجاح مشروعه وجعل دخولـه إلـى العاصمـة الأنـدلسية، ليس فقـط نصـراً عسكرياً وإنما أكبر وأعظم انتصارات حكمه العسكرية والسياسية. إلا انه في كل الحالات ما وصل إلى حد طلب مساعدة ألفونسـو السـادس علـى ما ذكر بعض

(١) البيان المغرب: جزء ٣، صفحة ٢٤٩.

المؤرخين الإسبان، على ما بين الرجلين من تفاهم وصداقة أكيدة، ذلك إن أحداً من المؤرخين الأندلسيين لم يشر إلى مثل هذه المساعدة. ونذكر في هذا المجال أن ابن حيان[1] المعروف بمواقفه العدائية من العائلة الذنونية لم يشر إلى مثل ذلك وإنما اكتفى بتأكيد وجود جنود يتكلمون لغات مختلفة في جيش طليطلة الذي حاصر العاصمة الأندلسية مما يتوافق مع ما نعرفه من أن الملك الذنوني قد ضم إلى جيشه كثيراً من مرتزقة الإسبان بمرتبات كبيرة دفعها من خزانته. وهذا يقودنا في النهاية إلى التسليم مع المؤرخ الإسباني سيمونيت بأن النصارى من إسبان ومستعربين كانوا يقاتلون مع المأمون ضد قرطبة[2]. أما بالنسبة إلى الملك الإسباني ألفونسو السادس فمن المعروف والمؤكد إن أوضاع إسبانيا المسيحية آ نذاك ما كانت مريحة له ولا كانت ملائمة بما يكفي ليكون حراً في مساعدة أصدقائه.

وفي سنة ١٠٧٠م كان قد صار للمأمون بالفعل الجيش الكبير الذي أراده، يضم في صفوفه عرباً وأندلسيين من أهالي بلنسية وبربراً ونصارى مرتزقة، والذي كان يريده وسيلة لانجاز حلمه الكبير. إلا أن ضربة كبيرة وجهت إلى مشروعه في اللحظة الأخيرة حين تمنع ابن عباد عن تقديم المساعدة الموعودة وبالتالي حين أظهر نواياه الحقيقية في معارضة رغبة المأمون في الاستيلاء على قرطبة.

خرج المأمون على رأس جيشه الكبير فاجتاح به أراضي دولة قرطبة واستولى بسهولة ويسر على عدد من الحصون والمواقع الهامة دون مقاومة تذكر. ذلك إن سيد قرطبة عبد الملك بن جهور ما كان آنذاك يملك من أسباب القتال والحرب غير جيش صغير يتألف من مائتي جندي وحرس أهلي قليل الخبرة عديم الكفاءة فيه حوالي خمسمائة متطوع. وأيضاً استولى

(١) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٧.

(٢) Simonet., P. 682.

المأمون على أحواز العاصمة وضواحيها وبصورة خاصة بقايا مدينة الزهراء ذات الموقع الاستراتيجي المتميز وألقى بعد ذلك حصاراً شديداً على قرطبة. وفي الأيام الأولى اكتفى بشن غارات صغيرة متقطعة على أسوار المدينة دون أن يحاول مباشرة معركة حاسمة. ولما كان قد استولى على كل القرى والمزارع والبلدات المحيطة بها وتحكم بالدروب والمسالك إليها فقد أخذ يشدد حصاره بصورة متزايدة مانعاً عن أهلها والمدافعين عنها كل مدد اقتصادي أو عسكري على أمل أن يستنفذوا ما عندهم فيبادروا إلى الاستسلام. كان يعرف عبر جواسيسه وعملائه أن المدينة ما كانت مستعدة لمثل هذا الحصار ولا كان عند أهلها ما يكفي من الغذاء والسلاح لخوض معركة المقاومة والصمود. ومن هنا كانت خطته الأساسية في حصاره القضاء على المقاومة ودخول المدينة دون قتال ودون إهراق دماء. إلا أنه خلافاً لكل المعطيات وخلافاً لما توقع صمدت المدينة وقاتل أهلها بشراسة وطال صمودهم بما يكفي لجعل الآخرين وبصورة خاصة ابن عباد يحاولون التدخل للاستفادة من الوضع الصعب الذي بدأ يواجهه المأمون.

عندما ساد الجوع المدينة بشكل خطر وانتشر القنوط واليأس بين أهلها بادر عبد الملك ابن جهور إلى اختيار أخف الشرين فلجأ إلى المعتمد ابن عباد يطلب منه المساعدة لإنقاذ دولته وصيانة استقلالها. وقد أوفد بعثة خاصة إلى بلاط إشبيلية لتخبر صاحبها بالوضع الصعب في قرطبة ولتطلب تدخله السريع. وما كان المعتمد، الذي نعرف رغبة عائلته القديمة بضم قرطبة إلى ممتلكاتها ليرفض الإفادة من فرصة نادرة كهذه. أرسل صاحب إشبيلية جيشاً من ثلاثمائة فارس وأتبعهم بألف آخرين على رأسهم أفضل قادته محمد بن مرتين[1]. وبوصول الفرسان الإشبيليين إلى مشارف قرطبة

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٤٩.

أقاموا لأنفسهم معسكراً عند أطرافها الشرقية. وقد كانت المساعدة الإشبيلية قوية وفاعلة بحيث جعلت المأمون بعد عدة أيام يرفع الحصار ويعود أدراجه. إنما أمام هذا التطور السريع والمفاجىء يبدو من الضروري إيضاح مسألتين على درجة كبيرة من الأهمية:

- ماذا جرى بين الجيشين خارج أسوار قرطبة وقبل أن يرفع المأمون حصاره عن المدينة؟

- ما هي الأسباب الحقيقية لفشل حصار ابن ذي النون؟

الواقع إن المصادر الأندلسية لا تمدنا بما يكفي من الروايات والأخبار لمعرفة حقيقة ما جرى بين الجيشين. ابن الخطيب وحده أشار إلى أن مناوشات صغيرة وقعت بين الإشبيليين والطليطليين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم[1]. إلا أن المستغرب وغير المفهوم هو إقدام المأمون، مع كل ما طالما أبدى من رغبة في الاستيلاء على قرطبة، ومع كل الاستعدادات العظيمة التي قام بها، على الانسحاب دون قتال ودون مباشرة المعركة الفاصلة التي كان مستعداً على ما يظهر لخوضها وأيضاً للانتصار فيها. من جهة أخرى يقدم لنا المستشرق كوندي إجابة مفصلة على هذه التساؤلات فيؤكد حصول المعركة وهزيمة الطليطليين إنما دون أن يشير إلى المصادر الأندلسية التي استقى منها. تبدو هذه الإشارة غامضة ومضطربة ومجهولة السند إلا أنها في النهاية تظهر معقولة ومنطقية وعلى الأرجح مقبولة. يقول كوندي: «إن معركة دموية شديدة وقعت بين الفرسان الإشبيليين والجيش الطليطلي أدت في بدايتها إلى زرع الفوضى والاضطراب في صفوف هذا الجيش بعد أن هرب من بين صفوفه الفرسان البلنسيون. ومع إن جنود صاحب السهلة تمكنوا بعد ذلك من احتواء المنتصرين إلا أن الهزيمة صارت بعد ظهر ذلك اليوم كاملة وشاملة

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٥٠.

وهرب قلب الجيش الطليطلي ولحق بهم الفرسان الإشبيليون برئاسة الأمير الشاب محمد ابن عباد ومعه عبد الملك بن جهور. ومع أن الفرسان المدافعين عن قرطبة كانوا قليلي العدد فإنهم آثروا المشاركة في الانتصار ولحقوا هم أيضاً بفلول جيش المأمون بن ذي النون المتراجعة»[1].

إلا أن التسليم بحصول قتال جدي رافقته معركة دموية قاسية يطرح سؤالاً آخر كبير الأهمية. من المعروف أن المأمون أعد حملته هذه بعناية كبيرة على امتداد عدة سنوات تلقى خلالها مساعدات وافرة من البلنسيين ومن أهل السهلة كما جمع عدداً وافراً من المرتزقة الإسبان النصارى. وهذا يعني إنه قد اجتاح أراضي قرطبة بجيش كبير وافر العدد والعدة. وهنا لا بد من التساؤل عما إذا كان من المعقول والمنطقي أن يهزم هذا الجيش أو أن يتفادى المواجهة الحاسمة أمام ألف وثلاثمائة فارس من إشبيلية ومائتين آخرين من المرتزقة القرطبيين؟ إذا أخذنا بعين الاعتبار الإشارات القليلة التي أوردها في هذا الشأن ابن حيان[2] فمسؤولية الفشل والهزيمة تقع بالكامل على عاتق المأمون ابن ذي النون نفسه. ذلك إن هذا الملك أظهر منذ البداية نقصاً فاضحاً في قدراته العسكرية عندما أضاع وقتاً طويلاً وثميناً في الحصار دون أن يباشر معركة جدية واحدة ضد مدينة ضعيفة، تفتقر لأبسط أسباب الدفاع والصمود، مضطرة دائماً للاستسلام عند أول ضربة جدية. ولو أن الجيش الكبير توفرت له قيادة قادرة وذات كفاءة لما أمكن بشكل من الأشكال انزال الهزيمة به في ذلك الوقت. ومع أننا لا نجد في استعراضنا لحياة المأمون الطويلة والحافلة بالأحداث ما يستدل منه على جبنه أو على جهله بفنون الحرب والقتال فلا بد من التسليم بأنه خلال ذلك الحصار قد ارتكب عدة أخطاء فنية واستراتيجية قضت على آماله بالاستيلاء على قرطبة وأساءت كثيراً

(١) Conde., P. 163.

(٢) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٧.

لمكانته الكبيرة في الأندلس. وقد قرر العودة إلى عاصمته، مذلولاً مقهوراً، بعد أن فقد الأمل في انجاز ما عزم عليه. والواقع إن نتائج هذه الهزيمة كانت مأساوية بالنسبة لملكه ولمكانته في سائر أنحاء إسبانيا الإسلامية. والقرطبيون مأخوذون بنشوة انتصارهم ومسرورون باحتفاظهم باستقلالهم وسيادتهم هم الذين نشروا تلك الروايات عن عدم كفاءة المأمون وجهله بالفنون العسكرية. بل ذهبوا في التشنيع عليه إلى حد نفي كل فضيلة عنه وتصويره على أن كل مكانته استمدها من كونه ابن الرجل الكبير الظافر بن ذي النون[1].

استيلاء العباديين على قرطبة:

بعد رفع الحصار مباشرة بدأت قرطبة تستعيد مظاهر الحياة الطبيعية فاستحضرت إلى أسواقها ما فقد منها من سلع وبضائع ليعود إليها نشاطها ولتأخذ الأسعار وضعها الطبيعي. وكان عبد الملك ابن جهور شديد الاغتباط باحتفاظه بسلطانه واستقلال بلده وأيضاً بعودة العداء والخلاف بين جارتيه المملكتين القويتين إشبيلية وطليطلة مما اعتقد أنه سيريحه في المدى الطويل[2]. وعلى هذا الأساس عاد إلى داره ينتظر رحيل الإشبيليين.

إنما في الواقع ما كان وارداً على الإطلاق في نوايا ابن عباد أن يغادر قرطبة، التي طالما عمل وخطط هو وأبوه من قبله لدخولها وضمها إلى مملكته. فالمعتمد ابن عباد، وقد صارت إليه فرصة ثمينة جعلت جيوشه في شوارع وأحياء قرطبة، كان يصر أكثر من أي وقت مضى على الإفادة من هذه الفرصة إلى أقصى حد ممكن. ولكي يدخل إلى قلب عبد الملك شيئاً من الطمأنينة وراحة البال وعده بترك مدينته حال التأكد من عودة المأمون نهائياً

(١) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٦.

(٢) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٩.

إلى أراضيه وأيضاً حين يزول كل خطر قد يتهدد قرطبة من حيث أتى.

وخلال إقامة الإشبيليين هذه، تأكد لزعمائهم وقادتهم تردي أوضاع العاصمة الأمنية في ظل حاكمها عبد الملك وظلمه للرعية وعدم كفاءة معاونيه مما كان يثير نقمة وسخط القرطبيين إلى حد كبير. وقد رأوا بأعينهم سكان العاصمة يتذمرون من حكمه ويشكون من مظالم أتباعه وحاشيته. وفي النهاية اتفقوا مع مجموعة من الوجهاء والفقهاء المعادين لبني جهور أساساً على القيام بانقلاب ينهي حكم عبد الملك. وبعد مرور سبعة أيام فقط على انجاز جلاء جيوش ابن ذي النون، تظاهر العباديون عملاً بوعودهم لابن جهور، بالاستعداد للرحيل وقاموا بتحركات عسكرية ما كانت تهدف في الواقع إلا إلى تنفيذ نواياهم الحقيقية. وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يستعد لوداعهم بمظاهر التكريم والاحترام ألقى الإشبيليون بصورة مفاجئة حصاراً على القصر يساعدهم في ذلك المتآمرون معهم من القرطبيين. أمر عبد الملك حرس القصر بالدفاع ورد المهاجمين والمتمردين إلا أن الحامية، نظراً لضعفها وقلة عدد أفرادها هزمت وتسرب المهاجمون إلى ممرات ودهاليز القصر. وقد لجأ عبد الملك مع أفراد عائلته إلى غرفة اختبأ فيها ثم ما لبث أن استسلم للمهاجمين بعد أن أخذ الأمان لنفسه ولمن معه وأسر أيضاً، والده الشيخ المريض أبو الوليد ابن جهور مع عائلته. وقد حمل عبد الملك وشقيقه إلى إشبيلية بينما أرسل الوالد ومعه كل العائلة ليسجنوا في جزيرة شلتيش. إلا أن الشيخ العجوز لم يعمر طويلاً بعد هذه المحنة إذ توفي بعد أربعين يوماً، في العام ١٠٧٠[٣].

وهكذا غابت عن مسرح الأحداث في الأندلس دولة بني جهور في

(١) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٩.

(٢) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٥٩.

(٣) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٢٦.

قرطبة، والتي يحلو لبعض المؤرخين المعاصرين تسميتها بالجمهورية لكون أصحابها ما حملوا الألقاب الملكية، وأيضاً لكونهم تقيدوا في أكثر الحالات ببعض مظاهر الشورى في الحكم، بعد أن عمرت أربعين سنة لتصبح المدينة جزءً من مملكة بني عباد في إشبيلية. وقد أوكل المعتمد حكم عاصمة الأندلس القديمة إلى ابنه الشاب عباد يساعده القائد العسكري ابن مرتين[2] المعروف بشدة ولائه وإخلاصه للعباديين. ولما كان عباد الحاكم يعرف، أن جل أهل العاصمة كانوا يكرهون حكمه ويرفضون الخضوع لعرش أبيه فقد سارع إلى العمل على استرضائهم. أغدق العطايا والهبات السخية على وجهاء المدينة وفقهائها وأقام الأعياد البهيجة والاحتفالات الباذخة لجلب أنظار العامة والحصول على تأييدها. وقد أثمرت هذه التدابير بالفعل إذ بدأ السكان الذين ما كانوا معتادين على هذه الأساليب إلى موالاة العباديين. إضافة إلى ذلك حاول أن يسارع عودة ما كانت عليه المدينة من استقرار ورخاء اقتصادي قبل الحصار ليجعل القرطبيين ينسون بسرعة ذكريات أيام حكم بني جهور العادل والرشيد. احتلال مدينة قرطبة وإلحاقها بمملكة إشبيلية أثار موجة من الفرح والحماس في أوساط الإشبيليين وخاصة عند زعيمهم المعتمد الذي اعتبره أعظم انجازات العباديين السياسية. ذلك إن هذا الانتصار رفع من قدرهم بين الأندلسيين وزاد من مكانتهم وفتح أمامهم الآمال بإمكانية إعادة وحدة الأندلس على أيديهم. فباستيلائه على قرطبة، عاصمة الخلافة صار المعتمد العبادي يعتبر نفسه أحق سادة الأندلس بالسيادة على كل إسبانيا الإسلامية. وقد خلد المعتمد، وهو من كبار شعراء الأندلس على الإطلاق، هذه المناسبة بقصيدة رائعة جاء فيها:

خطبتُ قرطبة الحسناء إذ منعت   من جاء يخطُبها بالبيض والأسَل

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٥٨.

وكم غدَت عاطِلاً حتى عَرَضــتُ لها فأصبَحَت في سرِي الحلـي والحلل
عِرسُ الملوك لنـا في قصرهـا عُرُسٌ كل الملـوك بهـا في مأتــم الوجَل

كان لهزيمة المأمون تأثير مدمر في ضميره وعقله أفقده ثقته بنفسه كقائد عسكري وكرئيس دولة، كما جعله يفقد ثقته بجيشه وبجنوده وضباطه. وأكثر ما ساءه هو خيانة العباديين له ونكثهم بالعهود التي قطعوها له مما أثار اشمئزازه منهم إلى حد كبير. وهو لهذا الاعتبار ما اعترف علناً بهزيمته وإنما أخذ يستعد لجولة جديدة يثأر فيها ممن خانوه ويستولي على قرطبة التي طالما حلم بضمها إلى ممتلكاته. وبالفعل فإنه كرس جهوده في السنوات التي تلت ذلك للاستعداد لجولة الثأر. وكتعبير عن اشمئزازه مما حصل وعن رفضه لانضمام قرطبة لمملكة أعدائه العباديين كان يخرج من آن لآخر من بلاده فيهاجم أراضي العاصمة الأندلسية القديمة ويدمر مزارعها ويخرب دروبها ومسالكها ويحرق مواسمها[١] إنما دون أن يباشر حرباً جدية منظمة. وفي سنة ١٠٧٣ اجتاح بجيش عظيم أراضي قرطبة واستولى على عدة من المواقع الهامة والحصون وأشاع الموت والدمار في سائر أنحائها إنما دون أن يتمكن من الاستيلاء على المدينة ذاتها لكون حاكمها العبادي، المعروف بشجاعته وجرأته تمكن من رده عن أسوارها وابعاده عنها[٢]. إنما هذه الغزوة على ما واجه فيها من هزيمة أمام أسوار قرطبة عادت عليه بأموال وفيرة ومكاسب هامة. وتجدر الإشارة أنه في حملته هذه رافقه صديقه وحليفه صاحب ليون وقشتالة ألفونسو السادس. ويقدم لنا مؤرخ إسباني مسيحي[٣] تفاصيل هامة

---

(١) نفح الطيب، جزء ١، صفحة ٦٢٥، (طبعة صادر).
(٢) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٧١.
(٣) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٧١.
(٤) Dozy T II.,P. 273.
(٥) Primera Gronica General, P. 521 - 522.

ودقيقة حول ظروف ومظاهر هذا التعاون قائلاً: «في هذه السنه[1] التي نتحدث عنها حارب ملك قرطبة، المأمون ملك طليطلة، وأثار الكثير من الضرر في أراضيه. وعندما عرف ذلك الملك ألفونسو أخذ جيشه الكبير وخرج لمعاونة المأمون للعلاقة السابقة بينهما والتي أشرنا إليها سابقاً. وقد سر المأمون كثيراً عندما رأى صديقه قادماً إليه وقدر له ذلك وأكرمه بأن خرج مع كل رجاله لاستقباله واتجه الرجلان بعد ذلك إلى قرطبة حيث أحرقا ودمرا وخربا كل ما صادفاه وعادا إلى أراضيهما ومعهما مكاسب وغنائم كبيرة».

هزيمة المأمون الثانية وفشله في الاستيلاء على قرطبة جعلاه ينهج طريقاً أخرى غير الحرب والقتال لتحقيق حلمه في الاستيلاء على العاصمة الأندلسية القديمة. لقد وجد من الأنسب والأفضل له أن يتوسل التآمر والخديعة للوصول إلى هدفه. اتصل بصديقه وحليفه وربما عميله ابن عكاشة وطلب إليه أن ينظم موآمرة تهدف إلى السيطرة على قرطبة وتسليمها إليه.

ابن عكاشة:

كان الحكم ابن عكاشة من كبار العرب في الأندلس يعود في أصله إلى عكاشة بن محصن أحد أصحاب الرسول[2]. رافق الوزير ابن السقاء أيام سعده وكان من أقرب مساعديه، فأوكل إليه أكثر من وظيفة هامة في قرطبة مما جعله مطلعاً على شؤون المدينة عارفاً بمشاكلها وقضاياها. وفي هذه الفترة تعرف إلى كثيرين من مقدمي العاصمة وفقهائها وعلمائها وأقام مع بعضهم صلات وثيقة. بعد نكبة ابن السقاء سجن ابن عكاشة وعومل معاملة مجرم حقيقي إلا أنه ما لبث أن تمكن من الفرار من سجنه ولجأ إلى المأمون ابن ذي

(١) السنة الثانية لملك ألفونسو.

(٢) نفح الطيب، جزء ٢، صفحة ٣٧٧.

النون حيث لاقى الترحيب والرعاية[1]. وفي طليطلة أظهر وبسرعة كبيرة لسيدها الكثير من المقدرة والكفاءة والذكاء فنال حظوة كبيرة عنده وبات أقرب مستشاريه إليه. لقد كان ابن عكاشة في أعماقه، مغامراً من طراز نادر يميل إلى سفك الدماء وعلى استعداد دائم لتجاوز كل مبادىء الأخلاق والقواعد الإنسانية للوصول إلى غاياته. ومما كان يساعده، في الوصول إلى أهدافه في أكثر الحالات، كونه كان على درجة كبيرة من الشجاعة كثيراً ما كانت تصل حد التهور والمغامرة. هذه الصفات مجتمعة جعلت المأمون يجد فيه ضالته المنشودة للوصول إلى الاستيلاء على قرطبة بغير أساليب القتال. ولهذه الغاية بالذات سماه حاكماً لمجموعة من الحصون والمواقع القريبة من العاصمة الأندلسية مما يساعده على البدء بتنفيذ مؤآمرته. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المصادر التاريخية الإسلامية تخطىء أحياناً في التعريف بشخصية ابن غكاشة هذا. فابن الأثير[2] مثلاً يذهب إلى أن منفذ خطة المأمون هو حريز بن حكم، أي ابن عكاشة الابن وليس الأب كما يقول ابن الخطيب[3]. إنما هناك أكثر من إشارة أكيدة على أن ابن عكاشة المقصود وموضوع حديثنا هو حكم الأب دون غيره أبرزها:

ـ يشير ابن الأبار في الحلة السيراء[4] إلى إن حريز بن عكاشة قد عاش إلى ما بعد سقوط طليطلة بأيدي الإسبان وتوفي في سنة ١٠٨٧ بينما نحن نعلم أن الشخص الذي تآمر مع المأمون ضد قرطبة قد قتل على أيدي الجنود الإشبيليين في سنة ١٠٧٨م.

ـ والمصدر نفسه يخبرنا بأن الشخص الذي استولى على قرطبة لحساب

---

(١) الحلة السيراء، (المخطوط)، صفحة ١٨٠.

(٢) الكامل في التاريخ .Abbadidum T II., P. 35

(٣) أعمال الأعلام، صفحة ١٨٣.

(٤) ٢ الحلة السيراء، المخطوط، صفحة ١٨٠.

ابن ذي النون كان عارفاً بأخبارها ومشاكلها لأنه سبق أن شارك في حكومتها. ونحن نعرف أن الحكم بن عكاشة هو الذي شغل منصباً رسمياً في حكومة قرطبة على أيام الوزير ابن السقاء[1].

بادر ابن عكاشة منذ عين حاكماً إلى إشاعة جو من الاضطراب وعدم الاستقرار في أحواز قرطبة كما في القرى القريبة منها ونشر الفوضى على دروبها ومسالكها مما أضر بحركتها الأقتصادية وعرقل الأعمال فيها. وفي حالات كثيرة كان يغير على المناطق المحيطة بها ليدمر ويخرب كل ما تصل إليه يديه. في هذه الأثناء كان يمارس السلطان الفعلي في قرطبة القائد الإشبيلي محمد بن مرتين باعتبار أن ابن عباد كان ما يزال شاباً يافعاً قليل المقدرة عديم الخبرة. كان ابن مرتين هذا، بالرغم من شهرته كقائد عسكري باهر على درجة كبيرة من القساوة ميالاً إلى سفك الدماء، مغرقاً في الفساد والمجون. إغراقه في الأباحية ومعاقرة الخمرة أثار بدرجة كبيرة الفقهاء وسائر الفئات المحافظة في قرطبة فشكلوا حزباً كبيراً معارضاً للعباديين بصورة أساسية وعامة ما لبث أن مال إلى التعاون مع ابن عكاشة الذي كان كثيرون من القرطبيين يقيمون معه علاقات وثيقة وطيبة. وقد عرف هذا كيف يستفيد من هذه الفرصة المتاحة ويتقرب من القرطبيين ويستغل بعضهم لأغراضه. وعبر هذه الصلات تمكن من الاتصال بصورة مباشرة مع حامية المدينة وزار أفرادها سراً في أكثر من مناسبة وقدم لهم المال الكثير والهبات الثمينة. تنبه أحد الضباط الموالين لبني عباد لهذه التحركات المريبة فأخبر بها أمير قرطبة العبادي. إلا أن هذا ما أخذ الرواية على محمل الجد، لصغر سنه ولقلة تجاربه أو لثقته الكبيرة بقائده ابن مرتين فأحال الشاكي إليه وهذا بدوره أحاله إلى من هم أدنى منه رتبة[2]. هذا التصرف كان صورة واضحة عن الأسلوب

---

(١) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٧٣.

المستهتر واللا مسؤول الذي كان الأمير العبادي ومساعده يصرفان به شؤون قرطبة في الفترة الأخيرة من ولايتهما.

المأمون في قرطبة:

في ليلة عاصفة، شديدة الظلمة، غزيرة المطر، وجدها ابن عكاشة ملائمة لتنفيذ مشروعه، سار نحو قرطبة ودخلها مع الفجر بعد أن سهل له ذلك حارس من المتآمرين معه. ولما كان عارفاً بدروب المدينة خبيراً بمسالكها وأزقتها، فإنه ما أضاع لحظة واحدة، إذ توجه مباشرة وعبر أقصر الطرق إلى قصر بني جهور الذي كان يقيم فيه حاكم المدينة الأمير العبادي. استفاق هذا على الحركة المفاجئة والضجيج القوي فحمل سلاحه وخرج مع بعض أتباعه المخلصين له للتصدي للمهاجمين. قاتل ابن عباد، رغم صغر سنه بشجاعة وبطولة وأجبر المتآمرين على التراجع من مداخل القصر إلا أن أحد أتباع ابن عكاشة غافله وعاجله بضربة قاتلة وألقى بجثته عارية إلى الشارع. وما وجد المهاجمون صعوبة كبيرة في دخول دار ابن مرتين عندما وُصلوا إليها إذ كان سيدها مخموراً تشغله راقصات ومغنيات عن كل أمر جدي. لقد افتقد هذا في اللحظة الصعبة الشجاعة التي طالما عرف بها ففر من وجه المهاجمين إلى دار صديق له اختبأ فيها[1] إلا أن هذا ما أبعد عنه كأس الموت إذ اكتشف مكانه، بعد عدة أيام أتباع ابن عكاشة فأوقفوه ثم قتلوه. وعندما صار أمر قصر قرطبة إلى ابن عكاشة بدأ هذا اتصاله بفقهاء المدينة وعلمائها ومقدميها فزارهم واحداً واحداً ودعاهم إلى تأييد سيده ابن ذي النون صاحب طليطلة والاعتراف بسلطانه على بلدهم. وفي هذا الوقت كان أنصار الملك الذنوني في قرطبة كما في ضواحيها يتوافدون على ابن عكاشة يدعمونه ويشدون أزره. وقام بعض منهم بأمر ابن

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٥٨.

عكاشة نفسه بقطع رأس ابن عباد عن جسده وطافوا به شوارع قرطبة وأزقتها مما أرهب الجنود الإشبيليين وجعلهم يفرون مذعورين من المدينة.

وبعد أن شعر المغامر ابن عكاشة أنه قد بات فعلاً سيد الموقف دخل المسجد الجامع ودعا القرطبيين فيه إلى إعلان ولائهم لسيد طليطلة. وقد تجاوب الجميع مع هذه الدعوة، بعضهم خوفاً وجزعاً وآخرون كرهاً بالعباديين، وكثيرون ما كانوا يبالون بما يحصل وبالتالي ما كان لهم موقف واضح يتمسكون به لكثرة ما تعاقب أمامهم وعلى مسرح بلدهم من مآسي ومحن ومهازل أيضاً. وبعد أيام قليلة بدأت تتوافد على ابن عكاشة وفود القرى والبلدات المحيطة بقرطبة لتقديم فروض الولاء والخضوع للسيد الجديد ابن ذي النون. وأخيراً، في شهر كانون الثاني سنة ١٠٧٥، وصل قادماً من بلنسية مع حاشية كبيرة وأتباع كثيرين المأمون ابن ذي النون ودخل المدينة[١] التي طالما طمع فيها وحلم بالسيطرة عليها. واستقبل الملك الطليطلي بمظاهر مغرقة بالبذخ والفخامة لإظهار عظمة ملكه وقوة دولته أمام رعاياه الجدد. وفي هذه اللحظة اعتقد المأمون أنه باستيلائه، بعد طول انتظار، على عاصمة الخلافة الأندلسية قد جعل الطريق إلى وحدة الأندلسيين في ظل عرشه سالكة أكثر من أي يوم مضى. وهنا يمكن التساؤل عما إذا كان موته الذي حصل بعد ذلك بستة أشهر فقط بمثابة خسارة كبيرة للإسلام في الأندلس؟ فهل لو تمكن هذا الرجل من العيش سنوات أخرى، أكمل فيها تأكيد قواعد نفوذه وسلطانه في البلاد، وضم إلى سيادته مناطق أخرى في الأندلس وربما كل الأندلس، لكانت إسبانيا الإسلامية قد عرفت مصيراً أفضل بكثير من ذاك الذي واجهته مع ابنه في نهاية القرن الحادي عشر؟ ومع إن الجواب على مثل هذه الأسئلة يبقى افتراضياً وتقديرياً إنما يبدو

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٥٨.

أن الرجل كان أهلاً لتلك المهمة عارفاً بأساليب تحقيقها مصراً على انجازها ولو اضطر لسلوك أساليب وطرق ليست دائماً شرعية وأخلاقية.

وفاة المأمون:

عند دخول المأمون إلى قرطبة كان، في الظاهر على الأقل، يظهر الكثير من العرفان بجميل ما صنع له ابن عكاشة وما أنجز لدولته فأغدق عليه الأموال وأغرقه في المنح والعطايا، كما سماه وزيراً في دولته. قلنا في الظاهر على الأقل، على اعتبار أن رجلاً كالمأمون اشتهر بخبرته الطويلة في الحكم والسياسة ومعرفته بالرجال ما كان ليطمئن أو ليثق بمعاون له هو أقرب إلى المغامر البعيد عن كل مكرمة أو خلق قويم كابن عكاشة. كان المأمون يدرك في أعماقه أن رجلاً كابن عكاشة، لا يمكن نظراً لجرأته وتهوره، إلا أن يكون خطراً على ديمومة سلطان بني ذي النون في قرطبة. وقد عبر المأمون عن عدم ثقته بابن عكاشة هذا عندما أسر لأحد أصدقائه قائلاً[1]: من اجترأ على الملوك لم يصلح للملوك.

عدة أسابيع بعد ذلك وفي شهر حزيران من سنة ١٠٧٥[2] لفظ المأمون أنفاسه أثر موآمرة دبرها مقربون منه فدسوا له سماً في بعض طعامه أو شرابه. على هذه الصورة أورد لنا ابن حيان خبر وفاة المأمون ابن ذي النون. إلا أن الرواية كما وردت، على دقة أخبار ابن حيان، تبدو مصطنعة وغير منطقية وغير مقبولة لما كان معروفاً عن مساعدي ابن ذي النون والمقربين منه ورعاياه عموماً من حب له وتعلق بملكه. يضاف إلى ذلك إنه ما كان على ما تذكر المصادر في سياسته وممارساته ما يمكن أن يغضب أو يسيء إلى معاونيه. والأفضل والأقرب إلى الصواب التساؤل مع المستشرق دوزي عما

(١) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٧٤.

(٢) أعمال الأعلام، صفحة ١٥٨.

إذا كان ابن عكاشة غريباً عن هذه الجريمة؟ والأرجح أنه ما كان بعيداً عنها بحال من الأحوال إذ كان في أصله وطبعه مؤهلاً لارتكاب أبشع الجرائم ولممارسة أشنع الموبقات لتحقيق أغراضه. ويمكن الافتراض بأن نوايا المأمون حياله قد ترامت إلى أسماعه فقرر التخلص منه معتبراً خليفته «القادر» أضعف وأكثر طواعية وبالتالي أقل خطراً عليه وعلى مصالحه. إنها فرضية، تفتقر إلى ما يؤكدها في أخبار وروايات المؤرخين الأندلسيين، إلا أنها تبدو لي منطقية ومعقولة ومطابقة لأخلاق ابن عكاشة وأساليب عمله.

استقبل رعايا ابن ذي النون وأنصاره في طليطلة خبر وفاته بحزن شديد. وقد حملت جثته على أكتاف محبيه حتى طليطلة حيث دفن وسط مظاهر حزن شديدة. وبقي ابن عكاشة بعد ذلك يدبر شؤون قرطبة باسم الملك الذنوني الجديد «القادر» مدة عامين إلى أن تمكن من الاستيلاء عليها مجدداً سيد إشبيلية المعتمد ابن عباد.

عودة قرطبة إلى بني عباد:

عندما وصلت إلى إشبيلية أخبار نجاح موآمرة ابن عكاشة بعد أيام قليلة شعر المعتمد بألم كبير لأنه مع فقدانه العاصمة الأندلسية الحبيبة أضاع آمالاً كبيرة حول الوحدة الأندلسية كان شديد التعلق بها. وتلقى فوق ذلك نبأ مقتل كبير أبنائه وأحبهم إليه مما ترك في قلبه جرحاً بقي ينزف حتى نهاية حياته. خسارتان كبيرتان حلتا بسيد إشبيلية في وقت واحد فأصابتا في روحه وقلبه مقتلاً. غير أن هذا كله بدل أن يدفعه في طريق اليأس والاستسلام أثار عنده رغبة جامحة في استعادة المدينة المفقودة والانتقام من قتلة ابنه الحبيب. إلا أنه ما تجرأ على القيام بذلك طالما كان المأمون ابن ذي النون على قيد الحياة لما كان لهذا آنذاك من قوة عسكرية ولما كان يشده من تحالف وثيق إلى سيد

---

(١) الذخيرة، جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٧٤.

إسبانيا المسيحية ألفونسو السادس. بعد ذلك بستة أشهر فقط ورد إلى إشبيلية نبأ موت المأمون غيلة فتلقاه المعتمد بفرح وسرور. قرر أن يباشر حربه فوراً في محاولة لاستغلال الاضطراب الذي لا بد سيعقب وفاة سيد طليطلة خاصة وأنه كان من المعروف والشائع أن حفيده وخليفته «القادر» يفتقر إلى الكثير من الميزات والقدرات التي يحتاجها من يرتقي عرش طليطلة في تلك الظروف القلقة. بدأ يهاجم بجيش كبير أراضي بني ذي النون القريبة من قرطبة. إلا أن محاولات كثيرة قام بها في بداية الأمر فشلت وردت غاراته كلها إذ كان ابن عكاشة حاكم قرطبة من قبل الملك الذنوني قوياً وعلى استعداد دائم لرد أي عدوان على أراضي سيده.

وأخيراً حزم المعتمد ابن عباد أمره في سنة ١٠٧٦ ـ ١٠٧٧[1] (٤٦٩هـ) وجمع جيشاً كبيراً أعد خصيصاً للحملة على قرطبة وهاجمها في وقت كان حاكمها يتعرض لمعارضة قوية من بعض سكان المدينة وأيضاً كان فيه الحزب الموالي لبني عباد يستعيد قواه ومكانته بين القرطبيين. وصل إلى مشارف العاصمة وأقام معسكراً لقواته عند ضاحيتها الشرقية. ثم ما لبث أن عبر بجموع قواته نهر الوادي الكبير بمعاونة بعض مؤيديه من سكان العاصمة ودخلها دون مواجهة أية مقاومة جدية من حاميتها. وعندما واجه ابن عكاشة هذه الأحداث لم يجد أمامه غير الفرار ناجياً بنفسه إذ كان قد فقد الأمل في الحصول على عون جدي من سيده القادر ابن ذي النون كما فقد ثقته بإخلاص وولاء من بقوا معه من أتباعه. إلا أنه في النهاية اضطر لأن يخوض

(١) يذكر دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا (جزء ٢، صفحة ٢٧٥) أن دخول المعتمد ابن عباد إلى قرطبة قد حصل في سنة ١٠٧٨ (٤٧١) معتمداً في ذلك على رواية للمراكشي. إلا أنه يبدو لي من المنطقي والمعقول أكثر الذهاب مع ابن خلدون واعتبار هذا التاريخ هو ١٠٧٦ ـ ١٠٧٧ (٤٦٩ هـ) خاصة وأن قطعة نقدية موجودة الآن في إسبانيا تؤكد ذلك بكونها قد ضربت في طليطلة في سنة (٤٦٩ هـ) وعليها اسم المعتمد ابن عباد (Prieto y Vevies., P. 75.).

صراعاً دموياً قاسياً أظهر فيه شجاعة لا حدود لها وجرأة بلغت حد التهور مع أتباع الملك العبادي الذين كانوا منتشرين على طول المسالك الذاهبة من قرطبة أو الصائرة إليها لمراقبة تحركات العناصر المناوئة لسيد إشبيلية. وقد انتهى هذا القتال بمقتل ابن عكاشة وحمل جثته إلى المعتمد الذي أمر بصلبها إلى جانب جثة كلب على قنطرة قرطبة. وهكذا ليس فقط استعاد الملك العبادي سيادته على قرطبة وإنما انتقم شر انتقام من قاتل ولده الحبيب[1]. ولحكم العاصمة الأندلسية سمى المعتمد ابنه الثاني الذي ظل يدبر أمورها إلى أن صارت تحت سيادة المرابطين[2]. وقد تبع استرجاع العاصمة الأندلسية الاستيلاء على كل ممتلكات طليطلة الواقعة بين نهري وادي آنة والوادي الكبير[3].

---

(١) لا يجمع المؤرخون الأندلسيون على رواية واحدة فيما يتعلق بطريقة وفاة ابن عكاشة. يذكر ابن الخطيب (أعمال الأعلام، صفحة ١٨٨) أن ابن عكاشة قد قتله يهودي وهو يغادر المدينة بالقرب من جسر القنطرة. إلا أن الرواية الأقرب إلى المعقول، إذ يجمع عليها عدد من الرواة الثقاة، ينقلها إلينا ابن بسام في ذخيرته، (جزء ١، قسم ٢، صفحة ١٧٥) حين يقول إن قتلة الوزير هم بعض فرسان المعتمد. وهو يعتمد في ذلك على رواية للمعتمد نفسه يظهر فيها أسفه الكبير لكون فرسانه قتلوا ابن عكاشة ولم يحملوه إليه ليقتله بيديه ثأراً لدم ابنه. وقد أورد ابن الأبار في حلته السيراء (المخطوطة، صفحة ١٨٠) الرواية نفسها.

(٢) ابن الأثير (T II., P. 135 Abbadidum.

(٣) ابن الكرديوس (مخطوط، صفحة ١٥٥).

الفصل السابع

حكومة طليطلة

عندما تأسست مملكة بني ذي النون في طليطلة لم يكن سلطانها يشمل غير المدينة وأحوازها وما كان للعائلة الذنونية من ممتلكات في شنتبرية . ومن هنا لم يجد مؤسس هذه المملكة صعوبة كبيرة في ترتيب وتسيير الإدارة الحكومية فيها خصوصاً وأن الطليطليين كانوا بعد أن انفصلوا عن سلطان قرطبة قبل سقوط الخلافة الأموية فيها قد رتبوا إدارة مدينتهم ونظموا مؤسساتها واعتادوا تصريف شؤونهم بتنظيم ودراية كبيرين . ثم إن الظافر ابن ذي النون قد شغل في سنوات ملكه الأولى في تأكيد سلطان دولته في الداخل وفي صيانة حدود مملكته من أطماع جيرانه النصارى في الشمال كما من سياسات الملوك الأندلسيين المعادين له بصورة دائمة والطامعين بأراضيه فلم يتعامل باهتمام كبير مع شؤون التنظيم الداخلي ولم يدخل شيئاً من الجديد والمستحدث على ما وجده في طليطلة عند دخوله إليها من إدارة ونظم ومؤسسات .

وقد سمى منذ بداية ملكه لمساعدته في إدارة شؤون المملكة عدة

وزراء كانوا يقومون في وقت واحد بالتزامات الوزير وواجبات المستشار الملكي الخاص. وأشهر هؤلاء وأبعدهم أثراً ونفوذاً[1]: الحاج بن محقور وابن لبون وابن سعيد بن الفرج وابن الحديدي. وكانوا جميعاً يتعاونون على ما يبدو في تصريف شؤون البلاد وتدبير أمور العباد برعاية سيدهم الظافر دون أن تكون هناك حدود واضحة لواجبات كل منهم ولالتزاماته ولحدود وظيفته. ويبدو في هذا المجال أن ممالك الطوائف الأندلسية وخاصة تلك المجاورة للممالك الإسبانية النصرانية كانت شديدة التأثر بالنظم الإقطاعية السائدة عموماً في أوروبا. ومن هنا كان ملوك الطوائف في الأندلس يجارون ملوك الإسبان والفرنج في نظرتهم إلى صلاحياتهم ومصدر سلطانهم فلا يميزون بين الشيء العام والشيء الخاص وبصورة خاصة لا يميزون بين الوظيفة العامة والوظيفة المرتبطة بشخص الملك والمنوطة بها خدمته الشخصية. وعلى هذا لم يحاول المأمون أن يضع القوانين والضوابط والحدود لعمل وزرائه وموظفيه وخدمه فإرادته هي القانون ورغباته هي الأوامر والنواهي وما هو صالح له يكون صالحاً بالضرورة لمملكته وأهلها. والشيء الثابت هو أن وزراء الظافر كانوا جميعاً موضع ثقة سيدهم ومنه كانوا يستمدون سلطاتهم ونفوذهم ومكانتهم. وقد أمر إسماعيل قبل وفاته ابنه وخليفته المأمون بأن يستمر في الثقة بهؤلاء والاعتماد عليهم في تدبير شؤون ملكه. إلا أن الأمور مع المأمون كانت قد تغيرت بشكل جذري مما استلزم مستجدات كثيرة على صعيد الحكم والإدارة. فالدولة باتت بفضل جهود مؤسسها، قوية الدعائم، ثابتة الأركان، تملك عليها عائلة قوية نافذة فرضت وجودها على كل المناوئين لها من الجيران الأندلسيين والإسبان النصارى على السواء. ثم إن المأمون نفسه كان واسع المطامح راغباً في نشر نفوذ ملكه بعيداً وراء حدوده. هذه الأمور استلزمت إعادة تنظيم الحكومة

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٣.

والإدارة على قواعد أكثر استقراراً وأشد فاعلية. وعلى هذا أقام في طليطلة إدارة جديدة على درجة كبيرة من الدقة والتنظيم لتكون لائقة بملك عظيم كما كان يرى نفسه وبمملكة عظيمة كما أراد لدولة بني ذي النون أن تكون.

وفي التنظيم الجديد الذي أقامه اتبع، وإلى حد كبير، النهج الأموي في مجال الإدارة مبتعداً قدر الامكان عن الاعراف والأساليب الاقطاعية التي طالما سار عليها آل ذي النون في اقطاعهم في شنتبرية أولاً، ثم في طليطلة بعد ذلك. يضاف إلى ذلك إنه راعى في إدارته الجديدة الأوضاع والظروف المستجدة بعد قيام عصر الطوائف. لقد جعل المأمون من حكومته إدارتين رئيسيتين.

١ ـ **الإدارة العسكرية**: وقد جعل على رأسها وزيراً أعطاه سلطات واسعة. جاءت هذه الإدارة، بما وصل إلينا من أخبار وروايات عنها، شديدة الدقة بحيث تقترب بعض الشيء مما في وزارات الحرب أو الدفاع في أيامنا. كانت تهتم بأمور التجنيد وتوظيف المرتزقة، وأيضاً بقضايا الاعتدة والمواد الغذائية. وكانت في زمن الحروب تتولى تنظيم الحملات وتهتم بتوالي الإمدادات إلى الجبهات، وفي زمن السلام كانت تشرف على شؤون تدريب الجند على الأعمال الحربية وتحضير المناورات. وكان رئيس الإدارة العسكرية يرافق دوماً الملك، الذي هو في نفس الوقت القائد الأعلى لجيوش الدولة، عندما يخرج للحرب وينوب عنه في القيادة إذا شاء أن لا يخرج بنفسه. وكان في بعض الحالات، وخاصة إذا كانت الحملة صغيرة أو محدودة الهدف، يكتفي بتكليف أحد معاونيه قيادة الجيش.

٢ ـ **الإدارة المدنية**: التي كانت تهتم بالشؤون المحلية للعاصمة وللملحقات. وأيضاً كان من صلاحياتها صيانة الأمن وفرض النظام والقانون داخل البلاد والتأكد من حسن إداء جميع المرافق العامة. وكان يرأس هذه الإدارة موظف كبير يشغل في الوقت نفسه منصب المستشار الخاص للملك.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الفصل بين الإدارتين العسكرية والمدنية كان في أكثر الحالات على الصعيد العملي أكثر مما هو في النصوص بمعنى أنه ما كانت هناك قوانين وأنظمة واضحة وإنما كانت تتحكم بالأمور إرادة الملك وشخصيات الوزراء. ثم إنه ما كانت هناك حدود لصلاحيات الوزراء، فكانت تتسع أو تضيق وفق صلة الوزير بالملك وثقة هذا به. وكان في مملكة طليطلة إلى جانب هذين عدة موظفين آخرين وبعض الوجهاء يحملون جميعاً لقب وزير إنما لم يصلنا من المعلومات والتفاصيل ما يكفي للحكم عما إذا كان هذا اللقب شرفياً وشكلياً أو ما إذا كانت لهم بالفعل بعض صلاحيات الوزير وبعض سلطاته.

وزراء المأمون:

ولو أن عدداً كبيراً من الأشخاص شغلوا مناصب وزارية في عهد المأمون أو على الأقل حملوا لقب الوزير فإن اثنين من هؤلاء دون غيرهما شغل كل منهما رئاسة واحدة من الإدارتين العسكرية والمدنية طيلة أيام حكم هذا الملك على استطالتها. وهذا يدل بدرجة كبيرة على ثقة لا حدود لها بولائهما واطمئنان إلى حسن إدائهما.

أ ـ ابن الحديدي: كان يحي بن سعيد الملقب بأبي بكر[1] والمولود في تاريخ غير معروف منا ابناً لواحد من ألمع الوجوه العلمية في الربع الأول من القرن الحادي عشر في إسبانيا الإسلامية. تربى في ظل أبيه وبرعايته فجعله يحصل على معارف واسعة في الفقه والحديث وعلوم الدين عموماً كما في تاريخ العرب وأدبهم وشعرهم مما أكسبه مكانة بارزة في المجتمع منذ سنوات شبابه الأولى. وبدأ بعد ذلك يتردد على أكابر علماء وفقهاء عصره يحضر مجالسهم ويتزود من علمهم ويناقشهم ويحاورهم. وتتلمذ بصورة

(١) الصلة، رقم ١٣٦٠، صفحة ٦٠٨.

خاصة على ابن عباس وابن مغيث أعلم فقهاء عصرهما واكتسب منهما الكثير. وفي وقت مبكر كان قد صار بما جمع من علوم ومعارف وبما له من وضع عائلي مميز أحد أبرز وجوه مجتمع طليطلة.

عندما دخل إسماعيل بن ذي النون طليطلة صير إلى ابن الحديدي الشاب، ربما ليفيد من مكانته ومكانة عائلته في المدينة، وظيفة الوزارة ثم جعل منه مستشاره الأول والأقرب. استطاع الوزير الشاب بعلمه الغزير وإخلاصه لسيده، وربما بشيء من الوصولية، أن يستحوذ في برهة قصيرة على ثقة إسماعيل الظافر الكاملة مما جعله في واجهة الحياة السياسية ومن العناصر الفاعلة في حياة المملكة[1]. وكان من الطبيعي أن يثير هذا النجاح السريع والمفاجىء حسد وعداء الكثيرين إلا أن المأمون استمر على ثقته بوزيره مفضلاً إياه على سائر المقربين منه حتى نهاية حياته. وقبل وفاته أمر ابنه المأمون بأن يظل معتمداً على الوزير ابن الحديدي وأن يحترم دوماً نصائحه وآراءه. ولما كان المأمون أصلاً مقدراً لكفاءة الوزير، ومدركاً لقيمة تجاربه الوافرة في أمور الدولة والحكم وشاعراً بعظيم إخلاصه لآل ذي النون، فقد أبقاه في منصبه[2] وأوكل إليه مهمة الإشراف على الإدارة المدنية. وعبر منصبه الرسمي هذا مارس ابن الحديدي دائماً وظيفة المستشار الشخصي للملك وشارك في مجلس المملكة بصورة دائمة وأساسية[3]. وقد تنامت مكانته بصورة خاصة في أوساط عامة الناس لما كان يؤديه باستمرار

---

(١) الصلة، رقم ٤٩٣، صفحة ٢١٨.

(٢) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٧٧.

(٣) لا نملك فكرة واضحة عن هذا المجلس وطريقة تكوينه وكيفية تسمية أعضائه وقيمة قراراته، إلا أننا نعرف أنه كان موجوداً وكان يقدم النصح والمشورة وربما ما هو أكثر للملك. والأرجح أنه كان بمثابة صورة بدائية للمجالس الاستشارية التي عرفناها عند الملوك الأوروبيين في مطلع العصور الحديثة. كان أعضاؤه يختارون على الأرجح من الوجهاء والفقهاء وكبار موظفي الدولة بأمر من الملك.

للمدينة ولمن يقصده من أبنائها من خدمات.

شملت ثقة الملك بابن الحديدي اتباع هذا وأقاربه فسمى كثيرين منهم لوظائف هامة وأساسية. فقد تبوأ أخوه علي[1] مكانة رفيعة في المجتمع الطليطلي وشارك في مجلس المملكة الاستشاري. وابنه سعيد عين من قبل الملك قاضياً لمدينة طليطلة. وظل يمارس هذه الوظيفة الهامة حتى حلول النكبة التي حلت بأبيه وأودت بحياته فاعتقل وأرسل إلى السجن في مدينة وبذة حيث بقي حتى وفاته في سنة ١٠٧٩.

المكانة الكبيرة التي صارت لابن الحديدي على أيام المأمون، والمركز المميز والمتزايد أهمية الذي كان له عند الملك، ما كانا إلا ليزيدا في عداء الأرستوقراطية الطليطلية له وليثيرا ضده حسد وكره سائر موظفي المملكة ومع تصاعد نفوذه وتزايد أهميته كان يزداد كره أخصامه له وتتوالى مؤامراتهم ومساعيهم لزعزعة ثقة الملك به. إلا أن شيئاً ما لم يعكر صفاء العلاقة بين المأمون ابن ذي النون ووزيره ابن الحديدي. عندما ترك المأمون عاصمته في حملة إلى مدينة بلنسية لمساعدة ملكها ترك على رأس حكومة طليطلة وزيره الأمين ابن الحديدي فصرف أمورها بحزم وشدة وقمع شكاوى ودسائس الوجهاء وكبار الموظفين. وقد رأت ارستوقراطية المدينة في غياب الملك فرصة مناسبة لتمرد تتخلص عبره من هيمنة الوزير. وحين علم المأمون بهذه التحركات وهذه النوايا الشريرة سارع في العودة إلى عاصمته وقمع المتآمرين وألقى برؤوسهم في سجن مدينة وبذة حيث بقوا حتى وفاته.

بعد هذه الحادثة صار ابن الحديدي بحق رجل مملكة طليطلة القوي دون منازع. وحين ذهب سيده ابن ذي النون بعد ذلك في حملة إلى قرطبة

---

(١) الصلة، رقم ٨٩٤، صفحة ٦٠٨.

(٢) الصلة، رقم ٥٠٥، صفحة ٢٢٢.

رافقه ودخل إلى جانبه العاصمة الأندلسية وكأنه شاهد على أعظم إنجازات المأمون وأبهرها. في هذا الوقت كان ابن الحديدي حقاً في قمة مجده ونفوذه. إلا أن نهايته ما لبثت أن تحولت إلى مأساة بعد فترة قصيرة من وفاة المأمون على عهد حفيده القادر. ذلك أن هذا بدا في بداية عهده شديد الطواعية لأرستوقراطية طليطلة فانساق مع أحقادها وضغائنها وأمر بقتل وزيره الأمين بصورة مفاجئة وغير منتظرة في ٢٦ آب سنة ١٠٧٥[١]. وما اكتفى وجهاء المدينة بذلك بل أطلقوا لأحقادهم العنان وحرضوا عامة المدينة وسوقتها على مهاجمة منازل أقربائه وأنصاره. أما ابنه سعيد قاضي العاصمة فقد أبعد عن منصبه وألقي به في السجن.

ابن الفرج :

كان أبو عامر ابن الفرج ينتمي إلى واحدة من أنبل وأعرق عائلات الأرستوقراطية الأندلسية في القرن الحادي عشر. كثيرون من أفراد هذه العائلة شغلوا وظائف كبرى لدى مختلف ملوك الطوائف. وآخرون برعوا في ميادين الفقه والأدب والشعر[٢]. وكان أحد أقربائه المعروف باسم «أبو سعيد» يشغل منصب حاكم مدينة قونقة. وتعتبر مدينة بلنسية الموطن الأساسي لعائلة ابن الفرج حيث كانت تتمتع بمركز متفوق اجتماعياً ومادياً.

وفي وقت غير محدد حل أبو عامر في طليطلة حيث، برز بصورة سريعة في مجتمعها وتميز بعلمه وفصاحته ونبل خلقه[٣]. وهذا لفت إليه انتباه المأمون فسماه وزيراً وجعله على رأس إدارته العسكرية[٤]. وقد بقي ابن

---

(١) الصلة، رقم ١٣٦٠، صفحة ٦٠٨.

(٢) المغرب في حلى المغرب، جزء ٢، صفحة ٣٠٤.

(٣) قلائد العقيان، ابن خاقان، صفحة ١٥.

(٤) أعمال الأعلام، صفحة ١٧٩.

الفرج على رأس هذه الإدارة متمعتاً بثقة سيده طيلة أيام ملكه. بعد وفاة المأمون استمر في عمله لفترة قصيرة فقط. ذلك إن أوضاع المملكة السياسية تبدلت في ظل مُلك القادر ابن ذي النون مما أحدث تغييراً جذرياً في مسار الحكم والإدارة. لقد حاول في البداية أن يحتوي الملك الشاب وأن يجعله يسير على نهج سلفه إلا أنه فشل في وقف تردي الأوضاع ومنع الملك من مجافاة الحكمة والاعتدال. لقد فعل كل ما استطاع لتفادي نكبة الوزير ابن الحديدي إلا أنه ما نجح. وأخيراً اختار ترك منصبه وغادر طليطلة باحثاً عن ملجأ أمين بعد أن استحال عليه تصحيح مسار سيدها الجديد. لقد خرج تاركاً ثروته وأمواله دون أن يشير المؤرخون إلى أنها صودرت أو إنه هو شخصياً تخلى عنها أو فقدها قضاءً وقدراً. تاه كثيراً وتعثر مرات يلفه النسيان ويعضه الجوع قبل أن يستقر في حماية الوزير القوي أبو محمد الحكيم[1]. بقربه عاش منمتعاً بحمايته ورعايته، حاصلاً على كفافه، يشارك من آن إلى آخر في مجالسه واجتماعاته. لا نعرف بالدقة متى توفي. ذلك إن المؤرخين الأندلسيين ما وفروا لنا أية معلومات تتعلق بولادة هذا الرجل أو بظروف حياته في سنوات عمره الأخيرة.

إلى جانب هذين الوزيرين اللذين شغلا منصبيهما حتى الأيام الأخيرة من عهد المأمون ابن ذي النون، نجد عند المؤرخين الأندلسيين أسماء عدد من الأشخاص حملوا لقب الوزير في ظل المأمون. إلا أننا لا نستطيع أن نحدد الدور الذي قاموا به أو المهمات التي أوكلت إلى كل منهم. غير أن الأرجح هو أن هذا الملك اعتاد أن يمنح لقب الوزير لبعض أتباعه أو لأشخاص قدموا له خدمات جليلة إنما دون أن يحدد لهم مناصب معينة أو مهمات محددة ثابتة. من هؤلاء:

---

(١) المغرب في حلى المغرب، جزء ٢، صفحة ٣٧٦.

ـ أبـو عيسى بـن لبون[1] الـذي كان يحمـل لقـب الـوزير طيلـة أيام المأمون. ويبدو أن هذا الرجل قد شغل قبل ذلك علـى أيام سلفـه الظافـر مؤسس المملكة منصباً عسكرياً برع فيه مما أعطاه لقب «القائد» الذي لازمه طويلاً. إنما ليس واضحـاً الدور الحقيقي الذي قام به زمن المأمون في حياة المملكة السياسية. وفي عهد القادر استمر في منصبه إلى أن شغـل وظيفـة حاكم لأحد الحصون الهامـة في مملـكة بلنسية بعـد سقـوط طليطلـة بأيدي الإسبـان النصارى. وكان في نفس الوقت يشغل منصـب الـوزير في بلاط القادر ابن ذي النون الـذي صار ملـكاً علـى بلنسية بعـد أن فقـد عاصمتـه طليطلة. وعندما استولى السيد الكمبيطور على مدينـة بلنسية وقتـل رجلهـا القوي القاضي ابن جحاف الذي خلف القادر على حكمها لجأ إلى سيد شنت مرية الشرق فعاش في ظله وتخلى له عن السيادة على الحصن الذي كان بيده لعجزه عن الدفاع عنه ضد أطماع جيرانه من الإسبـان النصارى. وفي هذه المدينة الصغيرة قضى أيام عمره الأخيرة[1]. وهناك شخص آخر يدعى ابن الحدى[3] حمل لقـب الـوزير في حكومـة المأمـون وقـام بدور أساسـي في الاتصالات والمفاوضات الطويلة التي جرت بين مملكتي طليطلة وإشبيلية حول الاعتراف بالخليفة «هشام الثاني» ومثل سيده المأمون في احتفـال في إشبيلية أعلنت فيه طاعة سيد طليطلة للخليفة المذكور.

ـ **ابن مثنى**: وكان يعرف على الأغلب بابن صبغون. حمل هذا الرجل أيضاً لقب الوزير في أيام المأمون. وكان من الوجـوه العلمية اللامعـة في عصره، تميز بفصاحتـه ومعارفـه الواسعـة في علـوم الشريعـة وفـي الأدب والشعر. كان يشغل منصباً رسمياً في حكومة بلنسية قبل أن يحل في طليطلة

---

(١) المغرب في حلى المغرب، جزء٢، ص ٣٧٦.

(٢) الحلة السيراء، (المخطوط)، صفحة ١٧٥.

(٣) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ٢٧٩.

ويسميه صاحبها وزيراً. توفي في مدينة بلنسية في سنة ١٠٦٥[١].

إضافة إلى هذه الأسماء التي أوردتها المصادر الأندلسية فإن الاكتشافات الأثرية في مقبرة طليطلة الإسلامية أعطتنا اسم وزير أهمله مؤرخو عصره، ربما لكون الدور الذي قام به كان محدود الأهمية والأثر[٢]. لقد وجد المكتشفون على شاهد لقبر وجد في طليطلة، وهو يحفظ الآن في متحف الآثار بمدريد، الكتابة التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا قبر الوزير الألب أبي عمرو بن موسى توفي رحمه الله ليلة الجمعة في جماد الآخر سنة خمس وستين وأربع مئة[٣] كان يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله»[٤].

وأخيراً لا بد من أن نشير إلى أن الطبيب والرياضي وعالم النبات علامة عصره ابن وافد اللخمي والمعروف عند الأوروبين باسم Eben Guefet كان قد حمل أيضاً في أيام المأمون لقب الوزير[٥]. وهذا يجعلنا نفترض أنه ربما كان يوكل إليه بعض المهام في مجال العلوم التي ازدهرت على أيام دولة بني ذي النون في طليطلة كما لم تزدهر في الأندلس في أي وقت سابق.

(١) التكملة، جزء ٢، صفحة ٥٥٠.

(٢) Inscriptions Arabes en Espagne, Planta XV., p. 75.

(٣) ١٥ شباط سنة ١٠٧٣.

(٤) Musee Archeologique de Madrid, No. 7478.

(٥) طبقات الأمم، صفحة ٨٣ - التكملة جزء ٢ صفحة ٥٥١.

الفصل الثامن

الحياة الاقتصادية في مملكة طليطلة

إذا أردنا أن نفهم بشكل واضح المواقف المعارضة التي اتخذتها مدينة طليطلة على امتداد تاريخ الدولة الأموية في الأندلس والتي وضعتها دائماً في موقف المواجهة المسلحة مع سلطات قرطبة فلا بد من تكوين فكرة واضحة عما كان دائماً في هذه المدينة وحولها من طاقات وقدرات اقتصادية وفيرة وثابتة . بل إن هذه المعرفة بأوضاع المدينة الاقتصادية ومواردها هي سبيل أساسي لتفسير وإدراك ما بلغته المدينة حين صارت ركيزة وقاعدة لمملكة خاصة بها من توسع إقليمي وازدهار اقتصادي ونفوذ سياسي تجاوز حدود إقليمها بدرجة كبيرة .

والواقع إن الموارد الأقتصادية الكبيرة والدائمة للطليطليين كانت دائماً المصدر الأهم والأفعل لقدراتهم القتالية وأيضاً لإمكاناتهم غير المحدودة على الصمود والمقاومة . ومن هنا كانت سلطات قرطبة ، مثلها مثل كل الذين حاربوا المدينة منذ ارتفع علم الإسلام على أراضي إيبريا ، تبادر إلى تخريب مزارع المدينة وتدمير أحوازها وتقطيع دروبها ومسالكها قبل أن

تباشر محاصرتها أو قبل أن تسعى لمهاجمتها ودخولها بقوة السلاح .

ويمكننا اعتبار اقتصاديات طليطلة المزدهرة على الدوام في أساس كل الأدوار السياسية والعسكرية الكبيرة التي لعبتها على امتداد العصور الوسطى . فالازدهار الكبير والسناء العظيم مما صار لمملكة بني ذي النون في القرن الحادي عشر يدينان بصورة أساسية لغنى المدينة والأراضي المحيطة بها . وأبرز مظاهر هذا الغنى تتمثل في .

ـ **الزراعة** : وكانت تحيط بالمدينة أراض خصبة واسعة تلائم زراعة الخضار والحبوب والأشجار المثمرة وذلك لوفرة المياه التي يحملها بصورة مستمرة إليها نهر التاج العظيم . يضاف إلى ذلك توفر مناخ ملائم للزراعة عموماً في إقليمها . وقد عرف أهالي طليطلة في العصور الوسطى كيف يفيدون من هذه الظروف الطبيعية الملائمة لجعل أراضيهم دائماً على درجة كبيرة من القدرة على العطاء . وبصورة خاصة في ظل ملكية بني ذي النون ، التي حققت للمدينة كما لسائر أراضي الإقليم استقراراً سياسياً وهدوءاً أمنياً طالما افتقدتها ، حقق القطاع الزراعي ازدهاراً مدهشاً وأمد المدينة بفائض كبير في الانتاج . وكان التصدير المستمر لكميات كبيرة ، وبصورة مستمرة ، من المنتوجات الزراعية يؤمن لخزينة المدينة ولأهلها ثروات كبيرة لا ينقطع تدفقها . وما كانت هذه المنطقة من بلاد الأندلس متميزة بوفرة انتاجها فقط وإنما كانت خضارها وفاكهتها من أفضل وأجود ما كانت تعطيه شبه الجزيرة الإيبرية في تلك الأيام[1] .

وكما في طليطلة وأحوازها كذلك ازدهرت الزراعة في ، وحول ، سائر مدن مملكة بني ذي النون . مدينتا طلبيرة ووادي الحجارة أفادتا كثيراً من الاستقرار السياسي وتطورت فيهما وفي أحوازهما الزراعة بما عاد على

(١) الروض المعطار ، صفحة ١٣٢ .

خزانة المملكة بمزيد من المال. لقد ازدهر انتاج الزعفران في طليطلة ووادي الحجارة وبلغ محصوله السنوي أرقاماً مدهشة، كما كان بالغ الجودة مما جعل له شهرة في كل بلدان العالم[1]. وكان الطليطليون يصدرون منه سنوياً كميات وافرة إلى سائر أنحاء الأندلس وأيضاً إلى إفريقيا الشمالية ومصر وسوريا. وقد برع سكان المناطق الجبلية في المملكة في تربية المواشي وخاصة الأبقار والأغنام ذات الشهرة الواسعة بجودة لحومها مما جعل من اليسير تصديرها إلى سائر مناطق شبه الجزيرة الإيبرية.

الصناعة:

تاريخ طليطلة في ظل دولة الإسلام الحافل بأعمال الثورة والتمرد والعصيان على سلطات الحكومة المركزية في قرطبة فرض تطوراً كبيراً في مختلف الصناعات من حيث الكمية والنوعية بصورة خاصة لتأمين حاجات السكان أيام الحصار التي ما كانت قليلة. وأكثر ما تطورت في ذلك الزمن صناعة الأسلحة لمواجهة الحاجة الدائمة إليها. ومع الوقت صار لطليطلة في القرن الحادي عشر شهرة واسعة في كل أنحاء إيبريا باعتبارها مصدراً لأجود أنواع الأسلحة. وفي ظل حكم بني ذي النون حققت هذه الصناعة مزيداً من التقدم ومزيداً من الازدهار وصار نتاجها يصدر إلى كل أنحاء إسبانيا الإسلامية، كما المسيحية في فترات السلام. ومما كان يساعد هذا القطاع على التقدم والازدهار وفرة المواد الأولية وبصورة خاصة الحديد والنحاس اللذين كانا يتوفران بكميات كبيرة من الجبال القريبة من المدينة[2]. والغابات الكثيفة والواسعة التي كانت تغطي تلك الجبال كانت مصدراً

(١) معجم البلدان، ياقوت، جزء ٦، صفحة ٥٦.

(٢) نزهة المشتاق، الإدريسي، صفحة ١٨٧.

(٣) نزهة المشتاق، صفحة ١٨٨.

أساسياً للأخشاب التي تؤمن الطاقة اللازمة لتلك الصناعة[٢]. وإلى جانب طليطلة كانت تقع قرية صغيرة اشتهر ترابها بخصائص طبية فريدة جعلته مطلوباً في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي آنذاك يؤكل في بعض الحالات ويعالج به الشعر. وكان هذا التراب يعالج ويحضر في طليطلة قبل أن يصدر إلى بلدان مصر وسوريا والعراق وبلاد الأتراك[٣] مما كان يشكل مصدراً مالياً لأهل تلك القرية ولطليطلة وأيضاً لخزينة المملكة.

ومع إن صناعة المفروشات وأدوات الزينة كانت في ذلك العصر متمركزة بصورة أساسية في العاصمة الأندلسية إلا أن آل ذي النون ما أهملوا وسيلة لتطويرها في أراضيهم. وقد توصلت مدينة قونقة لأن تكون لها صناعة مزدهرة متخصصة في الحفر على الخشب وأيضاً في إعداد الصناديق والخزائن الصغيرة من الخشب أو العاج[٤]. وبسبب انتشار تربية الأغنام على نطاق واسع في المملكة أمكن لمدينة قونقة إقامة صناعة نسيج صوفي ممتاز اشتهرت بجودتها وتنوع أصنافها وخاصة الأغطية الفاخرة التي كانت تصدر إلى خارج البلاد بكميات وافرة[١].

التجارة:

موقع طليطلة المتوسط بين سائر مناطق الإنتاج آنذاك في شبه الجزيرة الإيبرية جعل منها قاعدة رئيسية للتجارة ولتبادل السلع والمنتوجات. ثم إن وفرة إنتاج مملكة بني ذي النون وتنوعه فتح أمام أهالي المدينة آفاقاً واسعة للعمل التجاري خاصة في قطاع التصدير مما عاد عليهم بفوائد مالية كبيرة. لقد أظهر حكام بني ذي النون قدرة فائقة على فهم الأوضاع الاقتصادية

(١) Primera Cronica General de Espana., p. 503 - 504.

(٢) نزهة المشتاق، صفحة ١٨٨، الحميري، صفحة ١٣٣.

(٣) Inscriptions Arabes en Espagne., p. XVI.

(٤) نزهة المشتاق، صفحة ١٩٥.

لبلدهم وتجاوبوا معها وقدموا للعاملين فيها كل مساعدة ممكنة. وقد أثمرت هذه الجهود ونمت بدرجة كبيرة الثروة الوطنية ومعها مداخيل خزانة المملكة. وهذه الظاهرة بالذات هي التي تفسر لنا ذلك البهاء وذلك الغنى مما عرف بهما بلاط طليطلة آنذاك. بل لولا هذا الازدهار لما توفرت للمأمون تلك الأموال الطائلة التي كان يصرفها على البناء والإعمار وأيضاً لدفع الحركة العلمية في بلاده في طريق الازدهار مقلداً، إن لم يكن منافساً بالفعل لبلاط إشبيلية المشهور ببذخه وغنى أهله.

مالية مملكة طليطلة :

الازدهار الذي عرفه اقتصاد طليطلة بمختلف قطاعاته في القرن الحادي عشر زاد بنسبة كبيرة مداخيل الخزانة العامة من واردات الضرائب. وكان هذا الغنى في إنتاج المملكة الذنونية على تنوعه يزيد في مداخيل خزانة الدولة من الضرائب ويضخم مخزونها من النقد. وما تحقق هذا الثراء المدهش والمتزايد إلا بفضل التفوق السياسي الذي حققه بنو ذي النون لبلدهم على سائر دول شبه الجزيرة الإيبرية.

وهنا من حقنا أن نتساءل عن الحد الذي كانت تبلغه هذه المداخيل وعما إذا كانت قد توصلت لأن تغطي حاجات المملكة في زمن المأمون الذي بالغ في الإنفاق على القطاع العسكري وأيضاً على قطاعي البناء والعلوم والثقافة؟ وبعبارة أوضح هل كان هناك توازن بين مداخيل طليطلة ومصاريف الملك والبلاط أيام المأمون؟

في ظل الظافر أول ملوك بني ذي النون كانت المملكة في مرحلة التكوين وبالتالي فإن تأسيس وتنظيم إدارتها الداخلية كانا بحاجة للكثير من المال وكذلك العمل على إزالة آثار الممارسات المعادية للسلطة. يضاف إلى ذلك أن المؤسسة العسكرية، كانت بحاجة دائمة للوافر من المال لإقامة

جيش دائم وقادر على صيانة حدود المملكة من أعدائها الكثر من ملوك الطوائف وللدفاع عنها من تعديات الملوك الإسبان النصارى[1]. وكل هذا كان يتطلب الكثير من المال. إلا أن الملك الظافر المعروف بميله إلى الحرص والتقشف كان يدير مالية دولته بدقة وحذر بحيث ما ترك مصاريفه يوماً تتجاوز قدرات خزانته. وحتى داخل بلاطه فإن الحياة كانت تتسم بالبساطة وتتفادى كل ما كان معروفاً عن باقي ملوك الطوائف من مظاهر الإسراف والتبذير. ومع حبه الشديد للأدب والشعر والعلم فإنه كان يكتفي بالقليل من المال يعطيه لمن يستحق من الشعراء والأدباء الذين كانوا يترددون على قصره وما كانوا كثيرين على كل حال. وقد درج في حياته على هذا المنوال حتى يومه الأخير متجاهلاً ما كان معاصروه يوجهونه إليه من نقد مرير واتهام بالبخل الشديد[1]. إلا أن هذه السياسة كانت حكيمة إلى حد كبير من حيث أنها تركت البلاد تسير في طريق النمو والازدهار وأبقت خزانة الدولة في وضع سليم دون أن تضطر الدولة في يوم من الأيام إلى تحميل الناس ما لا طاقة لهم عليه من الضرائب الإضافية. ومن هنا يمكن الافتراض بأن مداخيل خزانة طليطلة ظلت طيلة أيام حكم الظافر قادرة على تغطية مصاريف الدولة وتكوين إحتياطي مالي كان في تزايد دائم.

وعند وفاة الظافر كانت حاصلات الضرائب في مملكة طليطلة تفوق بكثير نفقاتها ومصاريفها[2]. ومع ابنه المأمون تبدلت الأوضاع عامة في البلاد، ذلك أن الظروف السياسية في إسبانيا عموماً كانت قد تغيرت كما أن شخصية الملك الجديد كانت شديدة الاختلاف عما كان عليه سلفه. مع المأمون تزايدت النفقات العسكرية ومصاريف الإدارة بصورة مستمرة.

(١) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.

(٣) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٠.

فسياسة الدولة التوسعية على أيامه كانت باهظة التكاليف. فقد اضطر في أكثر من مناسبة لأن يلجأ إلى سادات قشتالة وليون يطلب منهم العون والمساعدة مما كان يكلفه غالياً ويرهق خزانته في المدى الطويل. ثم إن المأمون كان يسوق في بلاطه نمطاً من الحياة يتسم بالفخامة والبذخ. لقد ابتنى لسكناه أجمل قصور ذلك العصر وجهزه بأفخم المفروشات وأنفس الرياش مما كلفه من الدنانير الذهبية الكثير الكثير. كان محباً للاحتفالات والمهرجانات الباذخة المترفة يقيمها في قصره من آن لآخر ويدعو لمشاركته فيها جل وجهاء وعلماء ومقدمي مملكته. ولعل أشهر تلك الاحتفالات أعذار ابن ذي النون الذي خلد ذكره المؤرخون[1].

وقد ترك لنا مؤرخو أحداث القرن الحادي عشر وصفاً دقيقاً لما كان عليه قصر ابن ذي النون في طليطلة مما يقرب من الخيال. فقد ذكر ابن حيان نقلاً عن ابن بدرون أن المأمون صاحب طليطلة «بنى فيها قصراً تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالاً كثيراً، وضع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء تسكب لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد الشمع فيها لفعل». وذكر ابن بسام في ذخيرته وفي معرض الحديث عن الاحتفال باعذار ابن ذي النون أن «لهذه الدار بحيرتان قد نصت على أركانهما صور إسود مصوغة من الذهب الإبريز أحكم صياغة، تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه فاغرة الشدوق، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هَوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين. وقد وضع في قعر كل بحيرة منهما حوض رخام يسمى المذبح، محفور من رفيع المرمر، كبير

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٠٠

الجرم، غريب الشكل، بديع النقش، قد أبرزت في جنباته صور حيوان وأطيار وأشجار، وينحصر ماؤهما في شجرتي فضة عاليتي الأصلين، غريبتي الشكل، محكمتي الصنعة، قد غرزت كل شجرة منها وسط كل مذبح بأدق صناعة يترقى فيهما الماء من المذبحين فينصب من أعالي أفنائهما انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية، فتحدث لمخرجه نفحات تصبي النفوس ويرتفع بذروتها عمود ماء ضخم منضغط الاندفاع ينساب من أفواهها ويبلل أشخاص أطيارها وثمارها». وهو فوق ذلك قد رعى في عاصمة ملكه أنشط حركة ثقافية وعلمية عرفتها إسبانيا الإسلامية في تاريخها الطويل. كان يغدق على العلماء والباحثين الأموال الكثيرة ويمد المؤلفين والمخترعين بالمنح والعطايا دون حدود

وهكذا نرى إن نفقات المملكة العسكرية منها، أو ما كان يصرف في البلاط، على أيام المأمون كانت كبيرة وربما مرهقة للخزانة العامة. إلا أن الازدهار الاقتصادي الذي كان في تصاعد مستمر بفضل سياسة المأمون كان يعمل على زيادة مستمرة لمداخيل الخزانة. يضاف إلى ذلك إن إلحاق بلنسية بمملكة طليطلة زاد كثيراً في مردود الضرائب. إلا أنه مع هذا يبدو لي، إذا أخذنا بعين الاعتبار ما نقله إلينا المؤرخون الأندلسيون عن نشاطات المأمون الوافرة في سائر مجالات الحياة، من الصعب الافتراض بأنه كانت هناك موازنة بين مداخيل الخزانة العامة ومصاريفها. ولهذا لا بد من التسليم بأن مالية المأمون قد تعرضت لأكثر من أزمة حادة اضطرته للجوء إلى فرض الجعالات والضرائب الاستثنائية على الأغنياء من رعاياه. بل أكثر من ذلك أعتقد أن الأزمة السياسية التي اجتاحت المملكة بعد وفاته كانت لها جذور مالية تضاف إلى ما طالما ركز عليه المؤرخون من عدم كفاءة خليفته القادر ومن غياب الوزير القوي ابن الحديدي.

البَابُ الرّابع

الحياة الثقافية في طليطلة .

الشعر والكتابة .

علم التاريخ .

علوم الطب والنبات .

علوم الرياضيات والفلك .

الفصل الأول

الحياة الثقافية في طليطلة

عندما بدأت الخلافة العباسية في بغداد خلال القرن العاشر للميلاد نفقد بعض تفوقها السياسي كانت خلافة قرطبة في قمة ازدهارها السياسي وامتدادها الإقليمي. إلا أن الحياة الثقافية في المشرق ما كانت دائماً تسير جنباً إلى جنب، وفي توافق مع الحياة السياسية، فظلت بغداد بعد هذه المرحلة ولزمن طويل تعيش ما سماه جورج سارتون[1] «العصر الذهبي» للعلوم والثقافة في العصور الوسطى. في هذا الوقت كانت قرطبة ما تزال مستمرة على التقليد الذي طالما درج عليه الأندلسيون بمحاكاة المشرق دوماً واعتبار حضارته مثالاً لا بد من السعي للوصول إليه أو إلى مثله. وهي لذا كانت دائماً تشجع حركة التبادل الثقافي مع بغداد في محاولة للاستفادة من إنجازاتها الفكرية والثقافية. يكفي أن نذكر في هذا المجال الترحيب الواسع الذي حظي به زرياب حين حل في الأندلس. لقد نظر إليه القرطبيون على

(١) Introduction to the History of Science Sarton., p. 738.

أنه مثال لا بد من الاحتذاء به فقلده كبارهم في طريقة ملبسه وفي أساليب عيشه وأنواع طعامه. إلا أنه في ظل الخلافة الأموية في الأندلس ما كان بالإمكان الاكتفاء بتقليد ومحاكاة بغداد وأهلها وإنما صار لقرطبة هدف أبعد يقضي بقيام «غرب إسلامي» لا يقل حضارة وتقدماً عن المشرق الإسلامي.

من المعروف إن بغداد كانت قد باشرت اتصالها الوثيق بالحضارات القديمة في فارس والهند واليونان منذ بداية القرن التاسع. وقد نشطت هذه الحركة بصورة خاصة مع الخليفة المأمون الذي شجع بدرجة كبيرة أعمال الترجمة مما سمح للعلماء المسلمين بالانتقال السريع في القرن المذكور من مرحلة النقل والهضم إلى مرحلة الإنتاج والعطاء. في هذا الوقت وحين كانت هذه النهضة العلمية في طور النمو والتطور كانت إسبانيا الإسلامية ما تزال منشغلة بتكوين وحدتها السياسية مما كان يجعلها تكتفي في المجال الفكري ببعض النشاطات المحدودة في الفقه والآداب العربية التقليدية.

وهنا يجدر بنا أن نذكر بأن حكام قرطبة، رغم مشاغلهم الداخلية الكثيرة ورغم العداء الشديد الذي كان يباعد بينهم وبين العباسيين في الشرق، ما تركوا في أي وقت من الأوقات علاقاتهم الاقتصادية والثقافية تصل إلى حد القطيعة الكاملة مع هؤلاء. والأندلسيون عموماً ما انقطعوا عن ارتياد شبه الجزيرة العربية أما للقيام بفريضة الحج أو لزيارة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وطلبة العلم منهم، بصورة خاصة، كانوا يترددون باستمرار على سوريا ومصر والعراق يحضرون فيها مجالس العلم والأدب ويتزودون بالمعرفة من أساتذتها الكبار. والتجار الأندلسيون أخذوا على عاتقهم تأمين تبادل مستمر للبضائع والسلع بين شطري العالم الإسلامي ما انقطع إلا في فترات قليلة وقصيرة جداً. ومع هذه الحركة كانت تصل إلى قرطبة بصورة شبه منتظمة كتب ومؤلفات لا حصر لها من نتاج النهضة الثقافية في المشرق عموماً وفي بغداد بصورة خاصة.

ومع قيام الخلافة الأموية في قرطبة صارت هذه الحركة أكثر نشاطاً لأن الخلفاء أنفسهم كانوا ليس فقط يريدون محاكاة بغداد وأهلها وإنما يهدفون للدخول في منافسة حضارية معها. ولمباشرة مثل هذه المنافسة بشكل جدي، كان لا بد في نظرهم من الاستمرار ولبعض الوقت في اعتماد متزايد على منجزات المشرق العلمية. ومن هنا رأينا حركة استيراد الكتب والمصنفات العلمية تنشط في عهد الخلفاء بنسبة كبيرة وفي بعض الحالات تتم بمبادرة منهم كما كان يحصل بصورة خاصة زمن الحكم المستنصر. وإدراكاً من الخلفاء لكون نهضة فكرية حقيقية لا يمكن أن تنمو وتتطور في محيط يسوده التشدد والتزمت فقد عملوا على خلق مناخ من الحرية غير المحدودة. وقد التزم جميع الخلفاء، بصيانة حرية الفكر والكتابة والقول بصورة دائمة وما خرجوا عن هذا الخط إلا في حالات قليلة فرضت مراضاة الفقهاء والفئات المحافظة كما حدث مثلاً في ظل المنصور ابن أبي عامر، ولضرورات سياسية وعسكرية آنية ومرحلية.

والواقع إن الخلفاء قدموا للعلماء والباحثين في قرطبة، كما في سائر مراكز البحث الأندلسية، الاستقرار السياسي والحرية الفكرية، وحتى الدعم المادي، مما سهل تقدم وتطور الثقافة والعلوم إلى حد كبير. وما تأخرت قرطبة كثيراً في أن تصبح بالفعل مركزاً للدراسات والأبحاث العلمية انتشرت نتائجها وثمارها في كل أنحاء شبه الجزيرة الإيبرية. ومما عجل في نمو الحركة العلمية في الأندلس أن علماءها لم يواجهوا مشكلة ترجمة تراث الشعوب التي سبقتهم في هذا المضمار إلى العربية لأن التبادل مع الشرق كان قد نقل إلى قرطبة كل ما كان علماء بغداد قد ترجموه إلى لغتهم. إضافة إلى ذلك أفادوا كثيراً من اطلاعهم على كل ما صدر في المشرق من نتاج الحضارة الإسلامية التي كانت قد تكونت ونضجت منذ أمد. وبفضل ما حصلت عليه قرطبة من نتاج بغداد الخاص أو مما ترجمته من نتاج الأمم

السابقة، ما كان عليها أن تنتظر كثيراً قبل أن تدخل مرحلة الهضم ثم العطاء. وهكذا في نهاية القرن العاشر ومطلع الحادي عشر كانت قرطبة قد تحولت إلى مركز أساسي للإنتاج العلمي يشع ثقافة ومعرفة من جامعة الأندلس الكبرى في المسجد الجامع. وبصورة خاصة مع قيام مدرسة مسلمة[1] في هذه الفترة بالذات بدأت الحركة الفلسفية والعلمية تعرف تطوراً مدهشاً.

والجديد في الحركة الثقافية الناشئة في قرطبة إنها، رغم جذورها المشرقية الكثيرة، ما افتقدت العنصر المحلي الخاص مما جعل لها طابعها المميز وشخصيتها الواضحة وبمعنى أوضح فإن علماء الأندلس مع أنهم في كثير من المجالات اقتفوا أثر علماء بغداد وجعلوهم قدوة لهم ومثلاً أعلى، فإنهم وضعوا دوماً في إنتاجهم الكثير مما كانت تعطيه أرضهم، ومما كان يقدمه محيطهم، ومما كانت تفرضه الشخصية الإيبرية الوطنية. وفي أقل من قرن كان الخلفاء الأمويون قد نجحوا في إقامة مركز علمي وثقافي عظيم في قرطبة قادر ليس فقط على مجاراة بغداد وإنما على منافستها على الزعامة الفكرية في العالم الإسلامي. إنما لسوء الحظ فإن الجو السياسي المستقر الذي أوجده الخلفاء الأمويون والذي كان ملائماً بدرجة كبيرة لنمو هذه الحركة ما عمر كثيراً إلى ما بعد العقد الأول من القرن الحادي عشر حين أطاح

(١) أيام الخليفة العالم الحكم المستنصر، وبفضل ما أسبغه على العلم والعلماء من رعاية وحماية وتشجيع بدأ المشتغلون بالعلوم يتجمعون بمدارس تعنى كل واحدة منها بفرع من الفروع العلمية. وبفضل رعاية هذا الخليفة وتشجيعه بصورة خاصة لعلوم الرياضيات والفلك ظهرت مدرسة «مسلمة المجريطي» (أبو القاسم مسلمة بن أحمد). وقد عرف صاعد الطليطلي أحمد هذا بقوله: «إنه أمام الرياضيين في الأندلس في وقته وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك وكانت له عناية بإرصاد الكواكب» وذكر له صاعد كتباً كثيرة في الرياضيات والفلك كما ترجم كتاب قبة الفلك Planisphaerium لبطليموس الذي وصلتنا ترجمة له إلى اللاتينية. «أنجب تلاميذ جلة ولم ينجب عالم بالأندلس مثلهم».

انهيار الدولة العامرية بالاستقرار في الأندلس وأدخل البلاد في مرحلة مرعبة من الفتنة والتمزق والحروب الأهلية. مرحلة الفتنة هذه بما رافقها من فوضى واضطراب وصراعات داخلية خلقت جواً من عدم الاستقرار في السنوات الأخيرة من حياة الخلافة الأموية غير موآت لمتابعة مسيرة تقدم الثقافة والعلوم. لهذا آثر عدد كبير من علماء ومفكري قرطبة الخروج منها والبحث في الحواضر الأندلسية الأخرى عن ملجأ أكثر أمناً واستقراراً. وهكذا تفرق معلمو وطلاب مدرسة مسلمة الفلسفية الكبرى في مراكز عدة واضعين بذلك نهاية لأشهر وأعظم قاعدة فلسفية وفكرية عرفتها قرطبة على امتداد تاريخها.

وفي الفترة الممتدة بين بداية عصر الفتنة وسقوط الخلافة الأموية النهائي كان على الحركة الثقافية والعلمية في الأندلس أن تعاني من جمود شل مختلف أوجه نشاطاتها. إذ ما كان توالي الأحداث السياسية في تلك المرحلة موآتياً لها على الإطلاق. ومع قيام وتجذر ممالك الطوائف أتيحت للحضارة الأندلسية فرصة جديدة لاستئناف مسارها في طريق التقدم والازدهار. فملوك الطوائف، ربما لتغطية ضعفهم السياسي، تباروا في تقديم العون والرعاية، كل في ممتلكاته، للحركات العلمية والأدبية. وبالرغم من الصراعات التي استمرت بين هؤلاء حتى سقوطهم جميعاً، وقيام حكم المرابطين، فإنهم حققوا نجاحات باهرة في ميادين العلوم والثقافة وظهرت في أيامهم ثمرات مدهشة لتلك الحركة التي أطلقها ورعاها الخلفاء الأمويون في القرن العاشر للميلاد. وقد حاولت أكثر من واحدة من ممالك الطوائف أن تدفع النشاط الفكري في رحابها بحيث تصبح هي الأقدر على أن تأخذ مكان قرطبة كعاصمة للحضارة الأندلسية. وفي هذا الإطار ومن أجل هذا الهدف كانت المنافسة حادة جداً بين عدة من هذه الممالك. كانت الدعوات تتوالى من كل جانب على العلماء والفقهاء والمحدثين والشعراء

لزيارة الحواضر الأندلسية وحتى للإقامة فيها. وهناك كانوا يتلقون الهدايا النفيسة والعطايا الكبيرة والمساعدات المادية والمعنوية على السواء ودون حساب. هذه الظروف جعلت الحركة العلمية والأدبية في الأندلس على أيام ملوك الطوائف ليس فقط تستأنف مسارها وتقدمها وإنما تبلغ قمة ازدهارها وبهائها مما جعلها قادرة على مشاركة الحواضر الثقافية الكبرى في العالم الإسلامي في دفع حضارة العصور الوسطى إلى قمة تطورها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

بنو عباد وبنو الأفطس وبنو هود وبنو ذي النون بالغوا بتقديم العون والمساعدة للعلماء والفقهاء، وبرعاية الحركة الفكرية عموماً. بل أن كثيرين منهم شاركوا بصورة شخصية ومباشرة في هذه الحركة فكان منهم علماء وشعراء وباحثين.

وبالفعل فإن مدناً أندلسية عدة صارت، ابتداءً من مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر مهداً لمراكز ثقافية وحضارية ناشطة. وقد تميزت من بين هذه المراكز إشبيلية التي استقطبت الشعراء والأدباء وتفوقت في مجال الدراسات الأدبية، وطليطلة التي تجمع فيها أكبر عدد من العلماء والباحثين في مجالات الرياضيات والفلك وعلم النبات مما جعلها أهم مركز للعلوم التطبيقية في الأندلس إن لم نقل في غرب أوروبا. ذلك إن جهود بني ذي النون الوافرة جعلت طليطلة، في زمن قصير قادرة على إيواء مثل هذه الحركة. فمنذ الأيام الأولى لقيام مملكة بني ذي النون في طليطلة عمل مؤسسها إسماعيل على إشاعة الاستقرار في عاصمته بشكل دائم. وطبعاً هذا لا يعني إن عصره كان مرحلة سلام في المملكة وإنما إنجازه الهام كان في كونه قد تمكن من نقل الحروب والصراع إلى أطراف مملكته بعيداً عن طليطلة. ومع أن خصوماته وحروبه الكثيرة مع جيرانه من ملوك الطوائف وأيضاً من الإسبان النصارى كان لها تأثيرات سيئة في العاصمة إنما ليس

بالقدر الكافي لعرقلة مشاريع إسماعيل الظافر الثقافية والحضارية. ذلك إن هذا الملك بالرغم من كل ما عرف عنه من تشدد وحرص على أموال الدولة فإنه كان قد نجح منذ اجتاحت قرطبة الفتنة في استقطاب عدد كبير من العلماء والباحثين جعلهم يقيمون في عاصمته لينعموا برعاية مادية ومعنوية كانوا بحاجة إليها. وكذلك أعطى المراكز الهامة في حكومته لأناس عرفوا بحكمتهم ومقدرتهم وعلومهم الواسعة. وإذا كانت جهود الظافر ما أثمرت كثيراً في المدى القصير، في مجالات العلوم والثقافة، فإن ما قام به كان تمهيداً لتلك النهضة الباهرة التي ستقوم على عهد ابنه المأمون. فعند ارتقاء هذا الأخير عرش طليطلة كانت المملكة قد صارت راسخة الجذور، والسلطة فيها مستقرة، والخزانة عامرة. ومنذ يومه الأول في الملك اتخذ لنفسه لقب المأمون وفي ذهنه أن يجعل نفسه أهلاً لهذا اللقب. كان يريد أن يجعل من عاصمته طليطلة ما كانته بغداد على أيام الخليفة المأمون العباسي. وكان هذا أمراً عادياً ومقبولاً في فترة سادت إسبانيا الإسلامية رغبة في تقليد ومحاكاة بغداد في مختلف مظاهر الحياة. فكل ملك من ملوك الطوائف اختار لنفسه لقباً من الألقاب التي تكنى بها العباسيون ثم عمد إلى السعي لجعل نفسه بقدر المستطاع أهلاً لذلك اللقب. وقد أشار إلى مثل هذا غرسية غومس في مقال عنوانه «بغداد وملوك الطوائف»[1] عندما وصف العقلية السائدة في ممالك الطوائف قائلاً عن سادتها: «ملوك لحواضر استقروا في قصورهم وفق التقاليد الساسانية وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد الصقالبة والمغنين والموسيقيين والطفيليين». والمأمون بالذات ليس فقط حاول الدخول في منافسة مع بغداد وإنما أراد التفوق في مجال الحضارة على إشبيلية لجعل عاصمته طليطلة إن لم تكن قاعدة الحياة السياسية الأولى في إسبانيا الإسلامية فعلى الأقل المركز الأول والأنشط للحياة الثقافية والعلمية.

(١) مجلة Occidente صفحة ٩، كانون ثاني سنة ١٩٣٤.

وفي النهاية ومع أن مطامح المأمون السياسية لم تتحقق كلها كما أراد فإن ما سعى لإنجازه في المجال العلمي قد تحقق وإلى حد كبير. ففي ظل حكمه وتحت حمايته وأحياناً بمبادرات شخصية منه صارت طليطلة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ليس فقط المركز الثقافي والعلمي الأفعل في شبه الجزيرة الإيبرية وإنما وإلى حد كبير في كل أرجاء العالم الإسلامي. ويمكن الجزم في هذا المجال بأن البذور التي غرست في أيام الخلافة قد أعطت ثماراً عظيمة في طليطلة على أيام المأمون ابن ذي النون.

الفصل الثاني

الشعر والكتابة

في دولة إسلامية في العصور الوسطى كان يعتبر الاهتمام بالشعر ورعاية فنون الكتابة والبلاغة أمراً عادياً ومرغوباً. فكل الذي كانوا، في هذا العصر، يطمحون إلى المراكز المميزة في المجتمع كما في الحكم كان يفترض فيهم معرفة الشعر قولاً ونظماً، والبراعة في الكتابة كما في الخطابة، لكون مثل هذه الأمور كانت مظهراً أساسياً من مظاهر الثقافة العالية. ووجود شعراء متفوقين وكتاب بلغاء في قصور الملوك المسلمين كان في تلك العصور ضرورة لا يستغنى عنها. بل إن كثرة تواجد الشعراء والكتاب في محيط أحد الملوك كان دليلاً لا يخيب على قوته وازدهار دولته وغنى خزانته. وملوك الطوائف في مساعيهم لتقليد بغداد وخلفائها، وفي تنافسهم مع بعضهم البعض، ما شذوا عن هذه القاعدة فتباروا في استجلاب الشعراء والكتاب إلى قصورهم يغدقون عليهم الأموال والهدايا. شعراء كثيرون وكتاب بلغاء أسندت إليهم أرفع المناصب لا لشيء إلا لفصاحتهم ولبراعتهم في فنون الشعر والأدب. أدرك بنو ذي النون منذ الأيام الأولى لقيام مملكتهم

في طليطلة هذه الحاجة. وقد جمع الظافر، الذي كان هو نفسه شاعراً مجيداً، حوله وفي محيط قصره عدداً من الشعراء الذين كانوا في أكثريتهم من الطبقة الثانية. ذلك إنه في حرصه على مراقبة مصاريف خزانته وفي بعده عن كل إسراف وتبذير ما استطاع أن يقرب إليه فحول الشعراء ومشاهيرهم لما يكلف ذلك من مال ونفقات. إلا أن الاهتمام بالشعر والشعراء كان مع ابنه وخليفته المأمون أكثر وأوضح. وفي كل الحالات ومع كل ما أغدق المأمون، على من أموا قصره من الشعراء من مال وما أفاض عليهم من رعاية واهتمام فإن الشعر في مملكة طليطلة ما بلغ ما بلغه في إشبيلية وقرطبة من ازدهار في ذلك العصر. ومع إن شعراء عديدين تألقوا واشتهروا في بلاط طليطلة ومحيطه فإن أحداً منهم ما بلغ ما وصل إليه واحد كابن زيدون أو ابن عبدون من شهرة ومجد. والواقع إنه كانت هناك في مملكة طليطلة، بالرغم من كل جهود وإرادة سادتها، أسباب تجعل قدرة الشعر والأدب على التقدم والارتقاء محدودة منها:

- لقد كان جل سكان مملكة طليطلة من البربر والمولدين والمستعربين. وما كانت العربية اللغة الأم لهؤلاء. وما كانت أساساً الحضارة العربية راسخة الجذور في ضمائر هؤلاء، ولا كانت رابطتهم السياسية بالعنصر العربي المسيطر في الأندلس قوية، إذ طالما عبروا عن رفضهم للهيمنة العربية عبر ثوراتهم المستمرة على سلطات قرطبة. ومن هنا وطيلة العصر الأموي، إذا كانت طليطلة قد أطلعت علماء وفقهاء وقضاة من الطبقة الأولى، فإنها ما أعطت البلاد شاعراً أو كاتباً بهذا المستوى.

- ومع كل ما أظهره ملوك بني ذي النون من إلمام بالشعر والأدب ومن معرفة بأيام العرب وتقاليدهم وثقافتهم فإنهم ما كانوا قادرين في هذا المجال على منافسة عظيم كالمعتمد بن عباد، لأنهم في كل الأحوال ما كانوا عرباً وإنما من البربر الذين استعربوا أو بعبارة أصح تحولوا إلى أندلسيين.

واستعرابهم بقي وإلى حد كبير سطحياً، وما كان في أي يوم من الأيام جذرياً، وما استطاعوا اكتساب كل الخصائص الحقيقية للأرستوقراطية العربية التي بقيت أقدر منهم على التعاطي مع التراث العربي. وهم في الحقيقة تعلقوا بالتراث العربي من شعر وأدب وتاريخ، أو بعبارة أصح أظهروا الاهتمام بهذه الفنون، لرغبتهم في إعطاء بلاطهم المظاهر الثقافية والحضارية التي كانت تميز بلاط بغداد أو على الأقل بدافع الرغبة في منافسة إشبيلية.

حقق بنو ذي النون بعض الانتصارات في مجال استقطاب حركة شعرية في عاصمتهم إنما في الظاهر فقط. لقد تمكن المأمون لكثرة ما قدم من هدايا ومنح ولوفرة ما أغدق من حماية ورعاية على أهل الشعر من أن يستقدم إلى بلاطه عدداً ممن اعتادوا من الشعراء التنقل بين قصور ملوك الطوائف. وبعض من وفدوا إلى طليطلة ممن كانت لهم سمعة ومكانة استطابوا العيش فيها بصورة دائمة كابن شرف وابن خليفة المصري[١] والضيرمي البغدادي[٢] الذي كان فيما مضى وزيراً للخليفة العباسي المتوكل. إنما لو نظرنا إلى المسألة كلها بصورة أكثر عمقاً ولو تفحصنا نتاج الحركة الشعرية والأدبية في طليطلة في القرن الحادي عشر لوجدنا أن نجاح بني ذي النون ما كان إلا ظاهرياً وشكلياً، وكل الذين أموا بلاطهم أو الذين نزلوا طليطلة في حماهم ما كانوا إلا من الطبقة الثانية، وظلت الوجوه البارزة في الشعر كما في الأدب خلال القرن المذكور بعيدة عن هذه العائلة لا تستطيب القرب منها ربما لأصلها غير العربي. نذكر على سبيل المثال أنه في ذلك الاحتفال الشهير في تاريخ إسبانيا الإسلامية باعذار ابن ذي النون والذي أقامه بترف وإسراف لا حدود لهما ما تواجد إلا شعراء من طبقة عادية[٣].

(١) المغرب في حلى المغرب، جزء ٢، صفحة ١٢٨.

(٢) نفح الطيب، جزء ٢، صفحة ٧٧.

(٣) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٠٧.

والأسوأ من ذلك أنه ما ظهر في صفوف شعراء مملكة بني ذي النون تيار مجدد أو حركة خلق وإبداع كما حدث عند العلماء والباحثين. ومواضيع هؤلاء كانت في أكثر الحالات من الشائع اكتفوا منها بتقليد القدماء تقليداً عادياً. فقد تخصص جلهم بشعر المناسبات وبصورة خاصة المديح الموجه إلى صاحب الدولة والعرش. وفي فنون أخرى كالغزل والوصف ما برع واحد منهم واكتفوا بتقليد أسلافهم دون إبداع وإجادة. وسنحاول هنا أن نعرض باختصار لتاريخ وخصائص بعض من تميز من شعراء طليطلة ولو في مجال ضيق عن سائر أترابه.

- ابن أرفع رأسه:

ولد أبو بكر بن أرفع راسه من عائلة طليطلية عريقة[1]. درس الفقه والآداب العربية على أفضل أساتذة عصره ثم تفرغ للتدريس في مسجد طليطلة. مارس قول الشعر ونظمه وبرع في فن المديح، مما جعل المأمون يقربه إليه ويجعل منه شاعر البلاط الرسمي[2]. ومع الوقت تميز عن أقرانه واشتهر بكونه أفضل شعراء المملكة. أعطى شعره نفحة مجددة مما ميزه عن معاصريه، وساهم في حركة بعث الموشحات، كما نظم عدة قصائد منها مدح فيها المأمون[3]. وقد أفرد عدة موشحات أخرى لوصف جمال بلاده وبهائها وحسنها. وبرع في فن الموشحات بالذات لدرجة جعلت ابن خلدون[4] يصفه على أنه ثاني المبرزين في هذا الفن في القرن الحادي عشر. ونظراً لمساهمته الكبيرة مع ابن القزاز[5] في المرية في

(١) المغرب في حلى المغرب، جزء ٢، صفحة ١٨.

(٢) المغرب في حلى المغرب، جزء ٢، صفحة ١٨.

(٣) المغرب في حلى المغرب، جزء ٢، صفحة ١٨.

(٤) أزهار الرياض، جزء ٢، صفحة ٢٠٧.

(٥) أبو عبد الله بن عبادة القزاز الذي كان أول من برع في فن الموشحات الذي كان قد اخترعه =

إحياء ونشر فن الموشحة ذي الطابع الإسباني الصرف يمكن اعتباره أحد أبرز وجوه الشعر في عصره. ومساهمته هذه في نشر هذا الفن الجديد أعطته شهرته الواسعة وميزته عن سائر شعراء المملكة. توفي في طليطلة في سنة ١٠٤٩.

ـ ابن شرف:

أبو عبد الله محمد بن شرف ولد في مدينة القيروان حيث قضى طفولته وصرف بعض شبابه في تعلم اللغة العربية والتفقه في آدابها وتاريخها وشعرها. وقد برع بين ابناء بلده حتى شاع صيته فيما وراء حدودها ووصل إلى الحواضر الأندلسية. وحين اجتاحت بلده حركة عصيان قامت بها العناصر العربية فيها غادرها في رحلة إلى إسبانيا الإسلامية. وفي شبه الجزيرة الإيبرية تنقل بين بلاطات ملوك الطوائف وقصورهم وتلقى الكثير من عطاياهم ومنحهم. كاتب المعتضد ابن عباد وارتبط بصداقة معه إلا أنه ما تجرأ على زيارته في بلده لكونه ظل يهابه. نظم الكثير من قصائد المديح وجهها إلى الملك العبادي كما أرسل إليه كتابه «أبكار الأفكار» ونال عليه مكافأة كبيرة. ومع إنه تلقى دعوات لزيارة إشبيلية فإنه لم يغير رأيه في سيدها وآثر الإقامة في طليطلة في حماية ورعاية صاحبها المأمون. ومع الوقت زادت صلته بالملك الذنوني وصار شاعره المفضل حتى إنه ارتقى إلى ما يمكن اعتباره الشاعر شبه الرسمي للمملكة. كان يرأس جميع شعراء وكتاب المملكة ويتقدم عليهم في الحفلات والمناسبات الرسمية التي كانت تقام في بلاط طليطلة[1]. إلا أن هذا النجاح بقي في إطار المملكة الذنونية ولم يتقدم ليصبح قادراً على أن يعتبر في عداد الشعراء المميزين على صعيد إسبانيا

= شاعر الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبري وعجز عن إشاعته ونشره في الأندلس إلى أن نجح في ذلك في القرن الحادي عشر ابن أرفع راسه وابن القزاز.

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٥٤.

الإسلامية في القرن الحادي عشر.

وإلى جانب شهرته في أوساط طليطلة الشعرية تميز أيضاً ككاتب وأديب. وبرع كناثر بليغ وضع مصنفات عديدة منها «أعلام الكلام» «وأبكار الأفكار» وجههما إلى المعتضد العبادي. وقد حاول أن يجدد في نثره بمحاولته إدخال فن المقامات إلى الأندلس مقلداً بنجاح محدود الهمذاني.

الفصل الثالث

علم التاريخ

باشر علماء إسبانيا الإسلامية منذ مطلع القرن التاسع للميلاد حركة ناشطة في مجال تأريخ الأحداث التي وقعت في شبه الجزيرة الإيبرية منذ بداية غزو العرب لها. ذلك إنه حتى ذلك الحين كانت الأخبار المتعلقة بتاريخ الأندلس ووقائع فتوحها موجودة فقط في مصنفات المشارقة الذين ما كانوا على معرفة دقيقة بالأحداث ولا كانوا وثيقي الصلة بها. فهؤلاء لبعدهم عن الأندلس ما كانوا شديدي الاهتمام بأيامها وأخبارها ولا عارفين بتطور الحياة فيها. وكان ابن حبيب[1] من أوائل الأندلسيين الذين شعروا بهذا الواقع فتعاطوا علم التاريخ. وكذلك شاركه هذا الاهتمام والنجاح أيضاً

(١) عبد الملك بن حبيب أقدم مؤرخي الأندلس (٧٩٦ - ٨٥٣ أو ٨٥٤). كان شاعراً وأديباً وعالماً في الفقه والشريعة والمعاجم والطب. نال شهرة واسعة في الأندلس على أيامه فلقبه الناس بعالم الأندلس. له كتب كثيرة في علوم مختلفة يرد ذكرها في كتب السير والتراجم. ولم يصلنا من مؤلفاته إلا كتابه «التاريخ». ويعتبر هذا المصنف أقدم ما كتب بيد أندلسي في تاريخ الأندلس.

مؤرخو آل الرازي الثلاثة[٢]. إلا أن كتب هؤلاء جميعاً على أهميتها، لكونها كانت المحاولة الأولى، كانت حافلة بالأساطير والأخبار البعيدة عن المنطق والواقعية وكانت أيضاً تفتقر إلى المنهج العلمي والتشدد في تحري صحة الأخبار والروايات. ويعود ضعف هذه المصنفات التاريخية لكون أصحابها قد اعتمدوا في تصنيفها بدرجة كبيرة على روايات المشارقة. إلا أن فضل هؤلاء المؤرخين الرواد يبقى كبيراً لكونهم أطلقوا ودفعوا في إسبانيا الإسلامية حركة التصنيف التاريخي التي ما انفكت بعدهم تنمو وتتقدم وتتكامل. وفي القرن الحادي عشر، مع ازدهار تلك الحركة العلمية والثقافية الواسع، كانت هناك حركة ناشطة جداً في مجال التأريخ شارك فيها مؤرخون عظام. في هذا القرن تميز مؤرخون اشتهروا بالتزامهم البحث العلمي

(١) آل الرازي: أغنت عائلة الرازي تاريخ دولة الإسلام في إسبانيا بثلاثة من انبه وأفضل وأيضاً أوائل مؤرخيها. أولهم محمد بن موسى الذي حل في الأندلس في منتصف القرن الثالث للهجرة ٨٦٤م آتياً من الري في بلاد فارس حيث كانت تقيم عائلته العربية الأصل المنتمية إلى قبيلة كنانة. استقر في مدينة قرطبة حيث عمل في خدمة الأمير محمد ونال عنده حظوة كبيرة. صرف وقتاً وجهداً كبيرين في التأريخ لأحداث الأندلس ووضع كتاباً في هذا المجال أسماه «الرايات». وقد عرض في هذا الكتاب ما جمعه من أحداث الفتح العربي لإيبريا وحملة موسى بن نصير. وكذلك ذكر فيه من رافق ابن نصير من وجوه العرب وقبائلهم. ولم يصلنا من هذا الكتاب غير شذرات موزعة في مصنفات الأندلسيين في التاريخ والتراجم. وقد سار ابنه إحمد على منواله في العناية بعلم التاريخ فبزه وتفوق عليه. كان أحمد بن محمد الرازي الذي يعرف بالتاريخي لبراعته بهذا العلم، إلى جانب ذلك شاعراً وأديباً ومحدثاً من الطراز الأول. وضع كتاباً في «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم» وآخر في أنساب مشاهير الأندلسيين أسماه «الاستيعاب» وثالث في «صفة قرطبة» ورابع ذكره ابن الأبار بعنوان «كتاب أعيان الموالي بالأندلس». ولم يصلنا من هذه المؤلفات غير قطعة صغيرة في صفة الأندلس نشرت باللغة الإسبانية في سنة ١٨٥٠ بعناية المؤرخ غايا نغوس نقلاً عن نص برتغالي وحيد حتى الآن. وعنوان هذه القطعة: Cronica del Moro Rasis توفي أحمد بن محمد الرازي في سنة ٩٣٦ تاركاً من بين أبنائه واحداً هو عيسى بن أحمد الرازي خلفه في العناية بعلم التاريخ. وقد وضع هذا كتاباً في «تاريخ الأندلس» وثانياً كرسه للحديث عن «حجاب الخلفاء بالأندلس».

وتقيدهم بالمنهجية التاريخية الصحيحة كابن حيان وابن حزم في قرطبة وصاعد والحجاري في طليطلة. وفي ظل المأمون ابن ذي النون وبفضل حمايته ورعايته تطور بشكل مدهش علم التاريخ في طليطلة. ولعل أهم ما حققه مؤرخو طليطلة في هذا العصر إهمالهم التام للأساطير والخرافات والتزام المنهجية العلمية إلى أقصى حد ممكن. وبما أفاضه المأمون على العلماء في بلده من حماية أبعدت عنهم أذى العناصر المحافظة والفقهاء المتشددين تواجد في طليطلة جو ملائم للدراسات التاريخية المحايدة والمنصفة. وفي هذا الجو أمكن لرجل عالم مثل القاضي صاعد ليس فقط أن يبرع كمؤرخ وإنما أن يبعث مدرسة تاريخية جديدة تعنى فقط بتأريخ العلوم والبحث العلمي.

ومن أشهر مؤرخي طليطلة في هذه الفترة:

صاعد الطليطلي:

كان صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن ابناً لعائلة قرطبية نبيلة ذات أصل عربي تواجدت في الأندلس مع طوالع الفتوحات الإسلامية الأولى. كان والده أحمد[1] عالماً وفقيهاً مشهوراً شغل حتى وفاته سنة ١٠٥٦ منصب القضاء في طليطلة. وكان جده قبل ذلك قد تميز بعلمه وفضله وشغل مناصب هامة في إسبانيا الإسلامية.

ولد صاعد[2] في مدينة المرية في سنة ١٠٢٩ ـ ١٠٣٠ حيث صرف سنوات عمره الأولى وتلقى بعض مبادىء العلوم والفقه. انتقل بعد ذلك إلى مدينة شاطبة[3]، على الأرجح، حيث أقام بعض الوقت

(١) الصلة، رقم ١١٥، صفحة ٥٨.

(٢) الصلة، رقم ٥٣٥، صفحة ٢٣٤.

(٣) مقدمة الطبعة الفرنسية لكتاب طبقات الأمم Blachere.

يحضر دروس الفقه والتاريخ على عالم الأندلس الكبير ابن حزم. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى طليطلة لدراسة العلوم البحتة. وهناك تعرف إلى العالم الطليطلي الشهير الوقشي[1] الذي بدأ يدرس على يديه الرياضيات والفلك والطب. وعلاقات صاعد بهذا العالم الكبير هي التي فتحت أمامه أبواب القصر الملكي حيث بدأ يلقى الرعاية المادية والمعنوية. وبتأثير العالمين الكبيرين ابن حزم أولاً والوقشي ثانياً بدأ يكرس وقته وجهده للعلوم والتاريخ. وشهرته التي حصل عليها بعد وقت قصير من حلوله في طليطلة كعالم كبير جعلت المأمون يعطيه وظيفة القضاء التي ظل يمارسها حتى نهاية حياته. إلا أن وظيفة القضاءالهامة والكبيرة ما شغلته أبداً عن متابعة أبحاثه ودراساته العلمية.

وفي سنوات حياته الأخيرة وضع كتابه «طبقات الأمم» الذي أعطاه شهرته كمؤرخ عظيم وربما أيضاً ميزته كأول من حاول أن يؤرخ للعلوم بمعزل عن التاريخ العام. وكتاب طبقات الأمم هذا يبحث في أصناف البشر كالفرس والكلدان والأقباط واليونان والرومان والعرب والعبرانيين الذين يعتبرهم مؤهلين للعلم والبحث العلمي ويورد بعض الأخبار عن منجزاتهم في هذا المجال. ويؤكد أن باقي شعوب عالم عصره ما اهتمت بأي شكل من الأشكال بالدراسات العلمية. وقد اهتم بصورة خاصة بالتأريخ لحياة ومنجزات من اعتبرهم أشهر رجال العلم من العرب واليونان واليهود.

ويمكن بصورة عامة اعتبار كتاب طبقات الأمم أهم مصنف في تاريخ العلوم وضعه العرب في العصور الوسطى. ويؤكد ذلك كون مشاهير المؤرخين من أمثال ابن أبي أصيبعة السوري والقفطي المصري والمؤرخ النصراني ابن العبري قد اعتمدوا أخباره في مصنفاتهم[2]. ويذكر حاجي خليفة أنه وضع

(١) الصلة، رقم ١٣٢٣، صفحة ٥٩٢.

(٢) مجلة Hesperis صفحة ٣٥٧، سنة ١٩٢٨، Blachere.

كتاباً في تاريخ الطب إلا أننا لا نعرف شيئاً عنه في الوقت الحاضر وليس له أثر في المصنفات العلمية التي بين أيدينا الآن. ويشير هو في كتابه طبقات الأمم إلى كتاب وضعه حول تاريخ العلوم في الهند وفارس غير أننا لم نعثر له على أثر حتى الآن[1].

ولصاعد الطليطلي في مجال التاريخ العام مصنف في تاريخ الإسلام وآخر في تاريخ إسبانيا الإسلامية أشار اليهما الغزيري في فهرسه المخصص للمخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الأسكوريال[2]. غير أنه ليس أمامنا أية إشارة أخرى، غير ما ذكره الغزيري، حول وجود هذين الكتابين[3]. وإلى جانب منجزاته كمؤرخ فإنه برع في طليطلة كرياضي وفلكي. وكان طيلة حياته على اتصال دائم بسائر علماء بلده وأقام معهم ما يشبه المدرسة أو الحلقة العلمية. وقد وضع انطلاقاً من أبحاثه الخاصة وتجاربه كتاباً حول تحركات النجوم.

تفرغ منذ سنة ١٠٦٧، وربما قبل ذلك بقليل للتدريس، إنما دون أن يترك مهمة القضاء. وكان يتحلق حوله في دروسه ومحاضراته طلاب يسعون للتخصص في الأبحاث العلمية. وربما أمكننا أن نطلق على هذا الفريق اسم مدرسة طليطلة أو على الأصح مدرسة صاعد التي أعطت أفضل ثمارها بعد ذلك مع العالم الفلكي الطليطلي المعروف بولد الزرقيال.

وفي سنة ١٠٧٠ توفي في طليطلة القاضي صاعد الذي طالما اعتبر أحد أبرز وجوه إسبانيا الإسلامية العلمية.

---

(١) كشف الظنون، حاجي خليفة، جزء ٢، صفحة ٦٣٦.

(٢) طبقات الأمم، صفحة ١١.

(٣) المكتبة العربية ـ الإسبانية، الغزيري، جزء ٢، صفحة ١٤٢.

ـ ابن مطاهر :

ولد أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر[3] في طليطلة من عائلة عربية عريقة. ولا نعرف تاريخ ولادته بشكل دقيق. درس الفقه والعلوم الدينية والتاريخ على أفضل أساتذة بلده وعصره. وقد برع في وقت مبكر في الدراسات التاريخية ووضع مصنفاً في تراجم فقهاء وعلماء ورؤساء طليطلة. وإذا كان هذا المصنف لم يصل إلينا فإن فقرات كثيرة منه تضمنها كتاب الصلة لابن البشكوال. ذلك إن هذا الأخير نقل تراجم الطليطليين عموماً عن كتاب ابن مطاهر وهذا سهل علينا وإلى حد كبير التعرف إلى مآثر الكثيرين من سكان طليطلة في القرن الحادي عشر. توفي في هذه المدينة في سنة ١٠٩٦ بعد إحدى عشرة سنة من سقوطها بأيدي الملك الإسباني ألفونسو السادس.

الحجاري[1] :

إبراهيم بن وزمور الحجاري ولد في مدينة وادي الحجارة في عائلة برع كثيرون من ابنائها في ميادين العلوم والآداب. واشتهر هوفي مدينة طليطلة بوفرة معارفه في الآداب والتاريخ. طلب إليه المأمون أن يضع مصنفاً حول تاريخ بلده وادي الحجارة. وقد جاء هذا بشكل تراجم لعلماء وفقهاء وشعراء المدينة إلا أنه تضمن فعلاً تاريخاً عاماً للمدينة تناول نشاطات ابنائها العلمية والأدبية والسياسية. ويعرف كتابه الذي اشتهر به، والذي ما وصل إلينا شيء منه، باسم «مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار». وكانت له فوق ذلك شهرة كبيرة كشاعر مجيد ساوت شهرته وبراعته كمؤرخ[2].

(١) الصلة، رقم ١٤٨.

(٢) المغرب في حلى المغرب، جزء ٣، صفحة ٣٣.

(٣) نفح الطيب، جزء ٢، صفحة ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

الفصل الرابع

علوم الطب والنبات

ما كان الباحثون والدارسون في بداية الحكم العربي في شبه الجزيرة الإيبرية يتعاطون الطب وسائر العلوم الأخرى. كان جل اهتمامهم ينصب على الآداب العربية التقليدية من شعر وكتابة وبصورة خاصة على الفقه وعلوم الشريعة التي كانت في الواقع محور اهتمامات الطبقة المثقفة الأساسية. صحيح إنه كان هناك أشخاص يمارسون مهنة الطب وزادهم المعلومات الطبية الخاصة بمعالجة بعض الأمراض الشائعة. إلا أن هؤلاء كانوا عادة يكتفون بإطلاع سريع وسطحي على بعض المصنفات الطبية اليونانية دون الوصول إلى تفهم ما فيها من معلومات بشكل صحيح وتمثلها. كانوا عادة يكتفون من هذه المصنفات بما يأخذونه منها من معلومات سهلة وسطحية تساعدهم في ممارسة مهنة الطب بالقدر الذي يكفي لكسب قوتهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جل هؤلاء الأطباء كانوا من النصارى[1]. وفي ظل حكم

(١) طبقات الأمم، صفحة ٧٨.

الأمير محمد أقدم ابن أياس وللمرة الأولى في تاريخ إسبانيا الإسلامية ، على التصدي لدراسة العلوم الطبية بصورة جدية فحقق نجاحاً واسعاً جعل له شهرة كبيرة عمت أنحاء شبه الجزيرة . وفي نفس الفترة الزمنية نزل في الأندلس آتياً من المشرق الطبيب الشهير الحراني فاستقر في قرطبة ومعه الكثير مما أنجز في بغداد من تقدم في مجال العلوم الطبية .

في القرن العاشر للميلاد ، بدأ الأطباء الأندلسيون يسعون لاكتساب المزيد من المعارف ، عن طريق زيارة بلدان المشرق الإسلامي حيث التقدم العلمي كان في قمة ازدهاره . وفي عودتهم كان هؤلاء يحملون معهم إلى الأندلس آخر ما صدر عن العلماء المشارقة من نظريات علمية وأفضل ما صنعوه من أدوات طبية. يضاف إلى ذلك إنهم ، في بغداد كانوا يطلعون بيسر وسهولة على الترجمات الأصلية لأفضل مصنفات اليونان الطبية .

وفي سنة ٩٤٨ ـ ٩٤٩ أهدى قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطية سيد قرطبة الخليفة الناصر نسخة كاملة من كتاب ديسقو ريدس في الأعشاب باللغة اليونانية . وقد تولى علماء قرطبيون بمساعدة راهب بيزنطي يدعى نيقولا ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية . وكان الكتاب المذكور قد ترجم قبل ذلك بزمن يسير إلى العربية في المشرق[1] وما وصلت هذه الترجمة على ما يبدو حتى ذلك الوقت إلى الأندلسيين . كان لهذه المحاولة ، التي نجحت على ما يبدو ، فضل في تطوير الدراسات الطبية في إسبانيا الإسلامية بدرجة كبيرة . وقد تلقت الدراسات العلمية بعد ذلك دفعة كبيرة إلى الأمام على زمن الخليفة الحكم المستنصر بما أعطاه للعلماء والباحثين من حرية واسعة جعلتهم في مأمن من ضغوط الفقهاء والأوساط المحافظة . وفي منتصف القرن

(١) طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ، جزء ٢ ، صفحة ٣٧ .

(٢) Historia de la Literatura Arabigo - Espanola. Palencia., p. 289.

العاشر عرفت العلوم الطبية وعلوم النبات تطوراً مدهشاً. إذ منذ ذلك الوقت توقف علماء قرطبة عن أن يكونوا عالة على علماء الأمم الأخرى وإنطلقوا في مجال العطاء والإنتاج وبدأوا يضعون المصنفات الأصلية وينشرون النظريات الجديدة المرتكزة إلى أبحاثهم وتجاربهم الشخصية. وقد كان الطبيب المشهور الزهراوي المتوفي سنة **١٠٣١** أفضل من يمثل مرحلة ازدهار هذه العلوم على امتداد القرنين العاشر والحادي عشر. وكان بارعاً في علوم النبات بصورة خاصة إلى جانب شهرته الواسعة في الطب والجراحة.

بعد سقوط الخلافة الأموية وعندما توقفت قرطبة عن أن تكون قاعدة الحياة السياسية في الأندلس والمركز الأساسي للحياة الثقافية والعلمية بدأت طليطلة تتقدم بسرعة لتصبح القاعدة الأساسية في إسبانيا الإسلامية للدراسات الطبية والفلسفية وعلوم الرياضيات والفلك والنبات. وقد احتضن أصحاب طليطلة من آل ذي النون هذه الحركة وقدموا لمن حلوا في عاصمتهم من العلماء كل الحماية وكل الرعاية المادية والمعنوية. ومن هنا رأينا كل من برعوا من الأندلسيين في القرن الحادي عشر في العلوم الطبية وفي علم النبات من الطليطليين أو ممن كانوا يقيمون في طليطلة.

وقد رأينا الظافر ابن ذي النون منذ سنوات حكمه الأولى يشمل بحمايته ورعايته العالم الكبير ابن البغونش ويعطيه منصباً كبيراً في الدولة. ومع إن هذا العالم انسحب من الحياة العامة على أيام المأمون وتفرغ بشكل كامل لدراسة الفقه وللإطلاع على المصنفات الطبية اليونانية إلا أنه ظل يتمتع وعلى نطاق واسع برعاية صاحب طليطلة المادية والمعنوية.

وقد ذهب المأمون بعيداً في منح العلماء والباحثين في بلده ما يحتاجونه من حرية ورعاية مادية مما جعل من طليطلة على زمنه أنشط مركز

(١) التكملة، جزء ٢، صفحة ٧١١.

للدراسات الطبية ودراسات علم النبات في سائر أنحاء أوروبا القرن الحادي عشر. وهذا جعل أكثر المهتمين بهذه العلوم من علماء وباحثين ودارسين في سائر ممالك الطوائف الأخرى يتجهون نحو طليطلة ليجعلوا منها دار إقامتهم الدائمة. ومن هنا رأينا علوم الطب والنبات تشهد على أيام المأمون مرحلة من النشاط والإنتاج المكثف. وتفرغ كثيرون آنذاك من العلماء للتدريس في هذه المجالات وذلك بقصد نشرها وتعميمها بين الناس. وما كان يكتفي كبار أطباء تلك الحقبة بممارسة مهنة الطب بما كانت تجره من مكاسب مادية، وإنما كانوا يعملون دوماً على وضع المصنفات المرتكزة من جهة على علوم اليونان القدماء، وإلى حد كبير على تجاربهم هم وأبحاثهم العلمية. وقد جعل المأمون من حديقته الشهيرة التي أسسها ورعاها العالم ابن وافد، مركزاً لتجارب وأبحاث علماء النبات والصيدلة. وقد قام علماء النبات في هذه الحديقة بتجارب واسعة في مجال أقلمة النباتات والأعشاب التي يؤتى بها من المشرق أو من مناطق أخرى في العالم لجعلها تعيش وتثمر في محيط ومناخ الأندلس. وجرت أكثر من تجربة في هذه الحديقة لتحسين أنواع النبات بحيث تصبح أكثر جودة وأوفر إنتاجاً.

ونظريات ابن وافد حول الأغذية والادوية والتي كانت لها أصداء كثيره في سائر الأندية والمراكز العلمية في أوروبا القرن الحادي عشر وما بعده رأت النور في طليطلة وكانت نتيجة تجارب وأبحاث عملية تمت في حدائق قصر المأمون. وكذلك كتاب ابن البصال[1] الشهير حول الفلاحة الذي وضعه مؤلفه للمأمون كان نتاج تجارب علمية أجريت في الحدائق المذكورة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نظريات التميمي حول الأمراض وكتاباته في موضوع التعليم التطبيقي والنظري للطب قد ساعدت بدرجة كبيرة

(١) Millas Vallicrosa Geoponos Hispano-Arabes (Revista del Instituto Egipcio) ano 56 f I P. 12.

في نمو وتطور علمي الطب والصيدلة. وقد دفعت نزعة المأمون نحو حماية حرية البحث العلمي علماء يهود كثيرين على المشاركة بجدية في مجال العلوم البحتة. وعلماء يهود عديدون برزوا آنذاك في مملكة طليطلة كأطباء مهرة وأيضاً كصيادلة وباحثين ومدرسين. ولعل أشهر هؤلاء الأطباء اليهود هو أسحق بن قسطر المتوفي في طليطلة سنة ١٠٥٦[١].

والطب، كما سائر العلوم الأخرى لا يمكن أن يتطور ويزدهر إلا في ظل جو من الاستقرار والازدهار الاقتصادي. وعند اختفاء هذين الحالين عقب وفاة المأمون وما ارتكب خليفته القادر من حماقات تعرضت العلوم الطبية وعلوم النبات لأزمة مميتة جعلت جل أطباء طليطلة وعلماء النبات فيها يغادرونها بحثاً عن حماية أوثق وملجأ أكثر أمناً.

ابن وافد:

عبد الرحمن بن محمد بن وافد اللخمي المولود في طليطلة سنة ٩٩٨[٢] ينتمي إلى عائلة عربية ذات مكانة كبيرة في إسبانيا الإسلامية عموماً مما وفر له إمكانية الحصول على زاد وافر من العلم والتربية الحسنة. وقد تفرغ عند بلوغه مرحلة الشباب، على عادة أبناء عائلته، للعلوم والآداب. وما اكتفى بمن لقي في بلده من علماء بل سافر إلى قرطبة حيث حضر على أجلة علمائها. وهناك تعرف إلى أفضل أطباء العصر فأخذ عنهم الكثير من علمي الطب والصيدلة[٣]. وكان في الوقت نفسه شديد الاهتمام بالعلوم الأخرى يحضر دروس الفلسفة والفقه على المبرزين من أساتذة جامع قرطبة. إلا أنه في النهاية تفرغ نهائياً لممارسة الطب والتعمق في نظرياته.

(١) طبقات الأمم، صفحة ٨٩.

(٢) التكملة، جزء ٢، صفحة ٥٥١.

(٣) التكملة، جزء ٢، صفحة ٨٣.

قرأ في بداية أمره ما وصله من كتابات جالينوس في الطب وفهمها جيداً ثم درس كتب أرسطاطاليس. وقد اهتم بصورة خاصة بدراسة علم الأدوية المفردة. ووضع فيما بعد كتاباً جامعاً في علم الأدوية استناداً لما أخذه في هذا المجال عن العلماء اليونان كما على النتائج الخاصة التي حصل عليها خلال عشرين عاماً من البحث والتجارب. هذا الكتاب أعطاه سمعته في كل أنحاء إسبانيا كواحد من أفضل أطبائها في القرن الحادي عشر. كذلك وضع كتباً عدة حول أمراض العيون[1] اعتمد فيها بصورة أساسية على أبحاث وتجارب قام بها هو شخصياً. أطلق نظرية جديدة بالنسبة لأهل زمانه في الطب ومعالجة الأمراض. كان يرى إن الأغذية هي عامل أساسي في معالجة الأمراض وكان يفضلها على الأدوية كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعند إضطرار الطبيب للجوء إلى الأدوية فإنه كان ينصح باستعمال الأدوية المفردة مقدماً إياها على المركبة. كثيراً ما اعتمد في معالجته بعض الأمراض على تجارب اكتسبها هو شخصياً في ممارسته لمهنة الطبيب.

وإلى جانب اهتماماته بالعلوم الطبية كان لابن وافد شغف بعلمي الزراعة والنبات. وقد وضع مصنفاً في علم الفلاحة اعتمد فيه بصورة أساسية على تجاربه وأبحاثه. ونجاحاته في هذه العلوم هي التي جعلت المأمون ابن ذي النون، حين كان يبني قصره الشهير، يكلفه بتأسيس وزراعة حدائقه البديعة التي أسميت فيما بعد «جنة المأمون».

نجاحاته الكبيرة كطبيب وكعالم نبات ونظرياته العلمية ومؤلفاته القيمة جعلت شهرته تتجاوز جبال البيرينيه لتعم بلدان أوروبا حيث عرف بين علمائها باسم « Eben Guefiet ».

استدعاه المأمون، في وقت غير معروف على وجه الدقة، وفوض إليه

(١) طبقات الأطباء، جزء ٢، صفحة ٤٩

وظيفة وزير في حكومته مما ساعده تنيراً في مواصلة أبحاثه وتجاربه إذ استفاد مما أعطاه إياه منصبه الكبير من إمكانيات مادية وافرة ومن مزيد من الحماية والدعم الرسمي. توفي ابن وافد في طليطلة في سنة ١٠٧٥م[١].

ابن خميس[٢]:

أحمد بن خميس بن عامر ولد في قلعة أيوب، في تاريخ مجهول حتى الآن. انتقل منها بعد ذلك إلى طليطلة للدراسة. التحق بمدرسة صاعد الطليطلي ومال بصورة واضحة إلى علوم الفلك والهندسة والطب فأخذ الكثير منها عن أساتذة المدرسة. وقد درس كتب مشاهير علم الطب عند اليونان وبصورة خاصة مصنفات جالينوس. وتميز بين علماء طليطلة ببراعته في العلوم الطبية وبمقدرته كطبيب ممارس إنما دون أن يكون في ذلك مهملاً للعلوم الأخرى التي حقق فيها تجارب ومنجزات هامة. وقد تفرغ في سنوات حياته الأخيرة لتدريس الطب والفلك. توفي في مدينة طليطلة سنة ١٠٦٢م.

ـ التميمي:

نكاد لا نعرف شيئاً عن الحياة الخاصة لهذا الرجل وعن نشاطاته. المعروف هو أنه كان في طليطلة على أيام المأمون ابن ذي النون وفيها برع كطبيب. وقد تميز بصورة خاصة بين أقرانه بقدرته الفائقة في تشخيص الأمراض وأساليبه المبتكرة في مداواتها. ومما زاد في شهرته ومكانته العالية طريقته العملية والتجريبية في تعليم الطب[٣]. ومن بديع الصدف أن كتابه الأشهر في علم الأمراض وأساليب تشخيصها قد حفظلنا وهو موجود اليوم في مكتبة الإسكوريال.

---

(١) التكملة، جزء ٢، صفحة ٥٥١.

(٢) طبقات الأمم، صفحة ٧٤.

(٣) Palencia., p. 290.

الفصل الخامس

علوم الرياضيات والفلك

علوم الرياضيات والفلك، التي باشر الأندلسيون دراستها والاهتمام بها في إسبانيا الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد، عرفت بعد مئة عام تقريباً في ظل الخلافة الأندلسية مرحلة من الازدهار المدهش. ذلك إن العلوم البحتة إجمالاً ما كان ازدهارها في هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى محصوراً في شبه الجزيرة الإيبرية وإنما عرفت في مشرق العالم الإسلامي تطوراً وازدهاراً كبيرين. والواقع إن حركة التبادل بين شقي العالم الإسلامي في هذه الحقبة ساعدت هذه العلوم في الأندلس على الإسراع في تحقيق ما أنجزته. فقد تعرفت قرطبة آنذاك عبر بغداد إلى أحدث وأفضل أجهزة الأسطرلاب التي توصل إلى صنعها علماء المشرق. وعرفت وبنفس الطريقة[1] جميع أنواع أرباع الدوائر والكرات[2].

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية، صفحة ٦٣، السنة ٥٧ .Millas Vallicrosa

(٢) ربع الدائرة وتعرف بالفرنسية باسم Quadrant وترجمها مترجمو العصور الوسطى عن العربية=

وفي نهاية القرن العاشر كانت مدرسة مسلمة قد تحولت إلى خلية ناشطة لتطوير ونشر دراسات الفلك والرياضيات. ثم جاء سقوط الخلافة الأموية ليضع حداً لهذه الحركة العلمية في قرطبة. وكان على علماء العاصمة الأندلسية أن يتفرقوا في أرجاء شبه الجزيرة بحثاً عن ملجأ أكثر أمناً واستقراراً يمكنهم فيه تأسيس مراكز علمية أخرى يستأنفون فيها أبحاثهم ونشاطاتهم العلمية. وقد استعادت الدراسات الرياضية والفلكية منذ بداية عصر الطوائف نشاطها ونموها في سرغوسة بحماية ورعاية أصحابها من بني هود الذين طالما أبدوا اهتمامهم بهذه العلوم. إلا أن الطليطليين ما لبثوا أن أخذوا المبادرة في مجال علوم الرياضيات والفلك فجعلوا من مدينتهم القاعدة الأولى للعلوم والأبحاث في كل أوروبا القرن الحادي عشر متقدمة على سائر حواضر الأندلس. ذلك إن ثاني ملوك طليطلة، من بني ذي النون، المأمون كان مولعاً بالعلوم، شديد الاهتمام كما أشرنا إلى ذلك سابقاً بمنافسة بغداد في هذا المجال وراغباً في أن يجعل نفسه أهلاً للقب الذي اختاره ومساوياً لمأمون العباسيين[1]. ومن هذه الحوافز انطلق ونجح في أن يجعل من عاصمته مركزاً ناشطاً لدراسات الفلك والرياضيات. ومنذ مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر كان في طليطلة جمع كبير من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين يكرسون وقتهم وجهدهم لمراقبة حركات النجوم ودراسة خصائصها. وكان أول من باشر هذه الحركة في طليطلة ودفعها بقوة في طريق النمو العالم الوقشي. وتفرغ بعد ذلك تلميذاه الشهيران صاعد والتجيبي لمتابعة عمله. ومع صاعد بلغت الدراسات الفلكية شأواً كبيراً وأعطت مدرسة طليطلة عدداً وافراً من العلماء والباحثين. والميزة العظيمة

= إلى الإسبانية ب Cuadrante - . Sphere بالفرنسية و Esferas عند مترجمي العصور الوسطى الإسبان.

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية، صفحة ٦٣، سنة ٥٧ .Millas Vallicrosa

لهذه الطبقة من العلماء هي أنهم في دراساتهم ومؤلفاتهم ما اكتفوا بالاطلاع والاعتماد على منجزات الأمم القديمة وعلى ما قام به المشارقة في ديار الإسلام وإنما ارتكزوا وبصورة أساسية إلى أبحاث وتجارب قاموا بها هم بأنفسهم. ومن ناحية ثانية فإنهم واجهوا بحزم وشجاعة المسألة المعقدة آنذاك والتي لخصها ميلاس فايكروزا بما يلي: «في إسبانيا القرن الحادي كان على الفلاسفة وعلماء النجوم والكونيين المنظرين أن يوفقوا بين النظام الهندي (سندهند) والبغدادي والبطليموسي، وما يتوصلون إليه في تجاربهم ومشاهداتهم. وهذا كله أدى إلى ظهور ما يمكن تسميته بالأدب الناقد والناقد المتشدد للأنظمة الفلكية»[١]. وسنعرض هنا بإيجاز لبعض الوجوه التي تميزت في طليطلة في القرن الحادي عشر في علوم الرياضيات والفلك.

النقاش:

إبراهيم بن يحيى النقاش، المعروف بولد الزرقيال، والذي يسميه الأوروبيون Azarquiel، ولد في مدينة قرطبة في تاريخ غير معروف منا. وليس بإمكاننا أن نوافق جورج سارتون على اعتبار السنة ١٠٢٩[٢] تاريخاً لمولده ذلك إن المؤرخين العرب لتلك الفترة لم يتركوا لنا أية إشارة حول مولده ثم إن العلماء والمؤرخين العبرانيين، على شدة اهتمامهم بترجمة حياته يعتبرون موعد ولادته غير معروف. كان ينتمي لعائلة يهودية وضيعة وفقيرة مما جعله يتعلم في بداية حياته مهنة النقش على الحديد والمعادن[٣]. ولم يحاول الدراسة على علماء عصره على كثرتهم في بلده.

وفي وقت غير معروف ولأسباب مجهولة انتقل إلى طليطلة حيث اشتغل

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية، صفحة ٥٩، سنة ٥٧. Millas Vallicrosa.

(٢) Sarton T. I., P. 758.

(٣) Estudios sobre Azarquiel., P. 12, Madrid - Granada, 1943 - 1950.

في حرفته ليكسب أسباب حياته. وعن طريق عمله تعرف إلى أفضل علماء النجوم في طليطلة واتصل بمحيط العلم والبحث في المدينة. وقد أشار العالم اليهودي الطليطلي إسحق الإسرائيلي في كتابه Yesod Olam إلى كيفية نشؤ هذه العلاقة قائلاً: «ما كان ولد الزرقيال في البداية غير فنان حاذق في النقش على المعادن والحديد يعمل على انجاز الآلات الفلكية التي يكلفه بصنعها العلماء المسلمون واليهود في طليطلة. وكان في مقدمة هؤلاء ابن صاعد الطليطلي الذي أضفى عليه رعاية اتسمت بالكرم والجود. وقد فاجأ ولد الزرقيال أولئك العلماء الذين كان عليه أن يعمل تحت إمرتهم، منذ البداية، بحذقه وعبقريته في صناعة الأدوات التي كانوا يكلفونه صنعها. ومما كان يثير إعجابهم معرفتهم بأنه كان يعتمد فقط على مواهبه الطبيعية، إذ ما تيسر له أن يتلقى أية تهيئة علمية. وفي أول الأمر اكتفوا باعطائه الأدوات التي وضعها أسلافهم فاستوعب طرق صناعتها وأنجزها بسهولة كبيرة مما جعلهم يوكلون إليه مهمة صنع الأدوات التي يصممونها على دقتها. بل أكثر من ذلك صنع أجهزة لأولئك العلماء ما عرفوا ولا شاهدوا مثيلاً لها»[1].

وهكذا يكون قد تعرف عبر مهنته إلى العالم الشهير ابن صاعد الذي ساعده على مباشرة الدراسة للحصول على تكوين علمي مما سيسمح له فيما بعد بالمشاركة في أعمال مدرسة طليطلة كمعلم وليس كتلميذ. وبعد ذلك ساعدته رعاية ابن صاعد له على الدخول إلى بلاط المأمون حيث بلغ مكانة متقدمة. وقد وفرت له علاقاته الجديدة مع الملك والبلاط الإمكانات المادية التي كان يحتاجها للقيام بدراساته وتجاربه في مجال علم النجوم. ومنذ السنة ١٠٦١، وكانت قد تجمعت عنده معلومات نظرية وافرة، انتقل إلى مرحلة النشاطات التطبيقية.

(١) Estudios sobre Azarquiel., P. 12.

وعبر مشاهداته ومراقبته للفضاء تعاون مع مجموعة من علماء مدرسة طليطلة التي أقامها صاعد، الذي ما شارك في هذه النشاطات وقتاً طويلاً إذ توفي في سنة ١٠٧٠ م، على دراسة حركة النجوم الثابتة وعلى تحديد الموقع المتوسط للشمس وبصورة خاصة في إصلاح الأخطاء التي وقع فيها العلماء الأندلسيون السابقون في انجازاتهم في ميدان علم الفلك. ومهارته كفنان سمحت له، واعتماداً على مشاهداته مع رفاقه ومساعديه في مدرسة طليطلة بأن يصمم ويصنع أفضل وأكمل إسطرلاب عرف في العالم حتى ذلك الحين. وقد اخترع أيضاً عدة أدوات فلكية أخرى مثل الزرقلية والصفيحة اللتين كانتا على درجة كبيرة من الدقة[١]. وجداوله الفلكية المعروفة في اللاتينية باسم Tabulae Toletanae والتي وضعها اعتماداً على مشاهداته وأبحاثه ما كانت أقل دقة من تلك التي وضعت في بغداد أو القاهرة. إلا أنه لا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الجداول المنسوبة إليه، هي في الواقع وكما يؤكد علماء من العصور الوسطى وممن يوثق برواياتهم من عمل كامل الفريق الذي كان يقوم بمشاهدة ودراسة الفلك في مدرسة طليطلة التي أقامها القاضي صاعد[٢].

وفاة المأمون حرمت ولد الزرقيال من حماية ورعاية كانتا أساسيتين لعمله فاضطرب مسار أبحاثه ومشاهداته الفلكية مع أن خليفته القادر ما بخل عليه بعون أو رعاية. والواقع إنه مع ما ساد مملكة طليطلة من اضطراب مع مجيء القادر افتقد استقراراً كان بأمس الحاجة إليه فانتقل إلى قرطبة حيث لقي واحة سلام أكثر ملائمة لأبحاثه ومشاهداته الفلكية[٣]. وفي قرطبة، بحماية المعتمد ابن عباد استأنف نشاطاته العلمية وأنجز الصفيحة الكونية

(١) Palencia., P. 284.

(٢) Estudios sobre Azarquiel., P. 34.

(٣) التكملة، رقم ٣٥٨، صفحة ١٦٩، (طبعة الجزائر).

التي باشر العمل فيها في طليطلة.

وفي ظل الملك الإسباني ألفونسو العاشر العالم درست وترجمت من العربية أفضل مؤلفات ولد الزرقيال التالية:

- كتاب أفق الدنيا Horizonte Universal
- الصفيحة الكونية .Lamina Universal
- طريقة عمل إسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها.
- رسالة في العمل بالصفيحة.

والمؤسف أن جل مصنفات إبراهيم بن يحيى النقاش بنصوصها العربية الأصلية قد فقدت والقليل الذي وصلنا من كتاباته نجده اليوم مبعثراً في مخطوطات موزعة في مكتبات أوروبا. ويعود الفضل لترجمات ألفونسو العاشر ولما أنجزه العلماء اليهود من ترجمات لمؤلفاته في حفظ ما وصلنا من تراث هذا العالم الأندلسي الكبير. وقد ظل في مدينة قرطبة، مع جمع من تلاميذه ومساعديه، يتابع أبحاثه ودراساته للكون حتى وافاه الأجل في الخامس عشر من تشرين أول سنة ١١٠٠ م. وبوفاته غاب واحد من أبهى وأنبل وجوه الحضارة الإسبانية العربية على امتداد العصور الوسطى. وبتعاونه المخلص والصادق مع علماء مدرسة طليطلة التي أقامها صاعد توصل لأن يقدم خدمات جلى للعلوم في العصور الوسطى وبصورة خاصة لعلم الفلك. ويمكن اعتبار ما أنجزه في ميدان البحث العلمي كحلقة ثمينة وأساسية في سلسلة تطور الحضارة العربية ـ الإسبانية.

وربما كانت انجازات ولد الزرقيال ودراساته العظيمة في طليطلة وكذلك ما حققه علماء يهود آخرون في طليطلة هي التي جعلت بعض المؤرخين الغربيين يفترضون، كما في دائرة المعارف البريطانية[1] أن

(١) دائرة المعارف البريطانية، جزء ٢٢، مقال Toledo طبعة ١٩٦٠.

الثقافة الطليطلية في القرن الحادي عشر كانت ذات طابع عربي - عبراني. إلا إنني أعتقد أن هذا الزعم فيه الكثير من التطرف والمبالغة ذلك أن الحضارة الأندلسية في ذلك العصر كانت واحدة متكاملة لا مجال فيها للثنائية أو المشاركة. لقد كانت من عمل شعب واحد هو الشعب الأندلسي المسلم في جل أبنائه. وتعاون عدد من اليهود في هذه الثقافة المسلمة قد تم من داخلها وفي إطار اللغة العربية والمحيط الأندلسي وبالتعاون مع العلماء المسلمين لا يغير من طابعها الحقيقي. والشيء الوحيد الذي كان يميزها عن مثيلتها المسلمة المشرقية هو ما كانت تضفيه عليها الأرض الإسبانية من تأثير. فالعلماء اليهود، على عظيم ما أنجزوا إنما هم أساساً قد شاركوا في حضارة تأسست منذ أكثر من قرنين اعتماداً على حضارة أخرى أطلقها ووضع دعائمها عرب مشارقة. ومشاركة اليهود كانت عملياً غير قادرة على تغيير طبيعة تلك الحضارة ولا حتى على اعطائها صفة إقليمية، تنسب إلى طليطلة حيث شاركوا هم، بمعزل عن الحضارة الأندلسية الشاملة لكل شبه الجزيرة الإيبرية. وما تدعيه دائرة المعارف البريطانية يفترض وجود حضارتين في مدينة طليطلة في القرن الحادي عشر واحدة عربية والأخرى عبرانية. أو ربما كانت تريد القول إن الحضارة الإسبانية في القرن الحادي عشر كانت نتاج تمازج الحضارتين العربية والعبرانية. صحيح إن علماء يهود تعاونوا وشاركوا مع الأندلسيين في تطور هذه الحضارة إلا أن ذلك قد تم من ضمن حضارة لها منذ زمن طويل شخصية متكاملة وخاصة. ومنجزات هؤلاء اليهود لم تصل إلى حد تكوين حضارة خاصة بهم تميز نتاجهم عن محيطه، ولا تمكنت من أن تعطي الحضارة الأندلسية بعض الخصائص أو الميزات العبرانية.

- الوقشي:

هشام بن أحمد الوقشي ولد في مدينة وشقة سنة ١٠١٧ م. ومنها انتقل إلى طليطلة حيث درس اللغة العربية وقواعدها وعلوم القرآن وتاريخ العرب

وآدابهم[1]. وعند بلوغه الثلاثين، وكانت قد ظهرت له نجابة وبراعة وذاع صيته كلغوي وفقيه، صير إليه المأمون صاحب طليطلة منصب قاضي طلبيرة. ومهماته القضائية هذه ما شغلته عن متابعة أبحاثه ودراساته في مجال العلوم والآداب. تعمق في دراسة العلوم البحتة عبر المصنفات اليونانية المترجمة والمؤلفات العربية الأصيلة. وقد تميز في طليطلة كرياضي وفلكي بارع[2]. وهو وإن لم يبلغ منزلة النقاش أو ابن وافد العلمية إلا أن فضله كان كبيراً جداً في مجال تدريس العلوم وتشجيع عمليات البحث والتأليف العلمي في طليطلة. وكثيرون من علماء طليطلة النابهين في القرن الحادي عشر كانوا من تلامذته. وكانت له مزية أخرى وهي نزعته الموسوعية في إطار العلوم[3]. فقد اهتم بمختلف أبواب العلم وفنون الأدب دون تمييز. واشتهر في طليطلة بصورة خاصة كشاعر[4] مجيد حفلت المصادر التاريخية والأدبية الأندلسية بعدد وافر من قصائده. إثر سقوط طليطلة بيد الملك الإسباني ألفونسو السادس أو قبل ذلك بقليل انتقل إلى بلنسية ثم إلى دانية حيث توفي في سنة ١٠٩٦ م.

التجيبي:

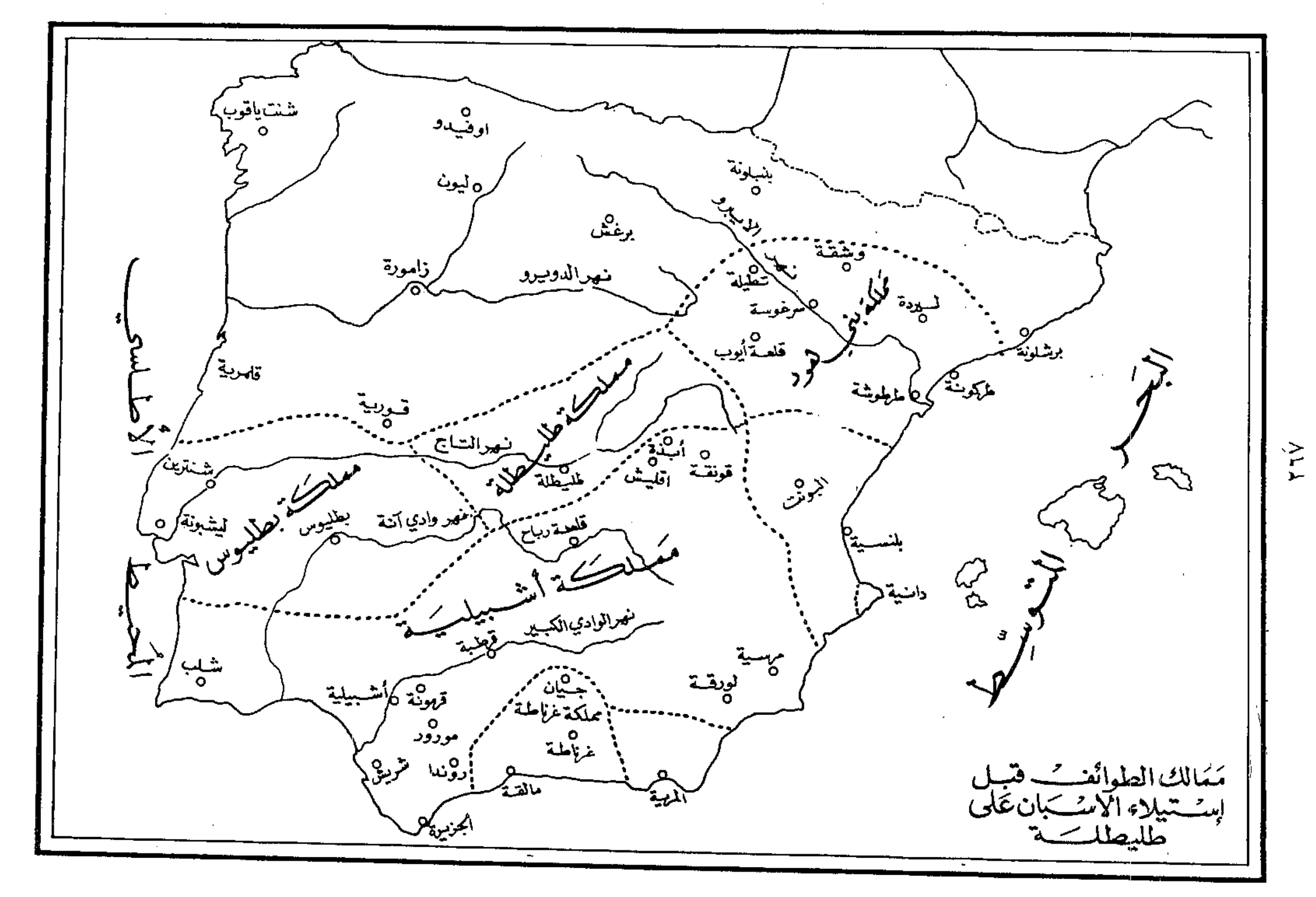
إبراهيم بن لب بن إدريس التجيبي ولد في مدينة قلعة أيوب حوالي السنة ١٠١٨ م. وفي وقت غير معروف انتقل إلى مدينة طليطلة لدراسة الفقه والآداب. وما لبث أن تفوق بين زملائه بمعارفه في اللغة العربية وآدابها وشعرها وأيضاً في العلوم الفلسفية. وقد كرس قسماً كبيراً من حياته وجهده للتدريس في مسجد قرطبة. ومع الوقت بدأ يهتم بصورة متزايدة بالعلوم

(١) طبقات الأمم، صفحة ٧٤.

(٢) الصلة، رقم ١٣٢٢، صفحة ٥٩٢.

(٣) La Ciencia Arabe en la Edad Media. Sanchez Perez., P. 25.

(٤) نفح الطيب، جزء ٢، صفحة ٥١٥.


ممالك الطوائف قبل
إستيلاء الأسبان على
طليطلة
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
مملكة بطليوس
مملكة طليطلة
مملكة أشبيلية
مملكة بني هود
مملكة غرناطة
شنت ياقوب
اوفيدو
ليون
زامورة
برغش
نهر الدويرو
بنبلونة
نهر الإيبرو
وشقة
تطيلة
سرقسطة
لبردة
قلعة أيوب
برشلونة
طركونة
طرطوشة
قلمرية
قورية
نهر التاج
شنترين
ليشبونة
بطليوس
نهر وادي آنة
طليطلة
أبذة
اقليش
قونقة
قلعة رباح
البونت
بلنسية
دانية
نهر الوادي الكبير
قرطبة
شلب
أشبيلية
قرمونة
مورور
رندة
شريش
جيان
غرناطة
مالقة
المرية
الجزيرة
مرسية
لورقة

البحتة وبصورة خاصة بعلمي الفلك والهندسة. وقد ساعده صديقه العالم الوقشي في دراسة وفهم المبادىء الأساسية لعلم الهندسة وكذلك عاونه على دراسة وفهم «مبادىء إقليدس» عالم الهندسة اليوناني الشهير. وبعد أن فهم بصورة جيدة مبادىء إقليدس انطلق منها لدراسة مصنفات علماء الرياضيات الآخرين. وفي النهاية شغله اهتمامه بعلم الهندسة بصورة كاملة وانقطع عن تدريس العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية ليتفرغ حتى نهاية حياته لتعليم الرياضيات. ومع الأسف فإنه لم يصلنا شيء من مصنفاته ونظرياته في هذه العلوم. وتوفي التجيبي في طليطلة في سنة ١٠٦٢ م.

وإلى جانب من ذكرنا من كبار علماء الرياضيات في طليطلة في القرن الحادي عشر نذكر ممن تفوقوا في هذه العلوم، وإن كانوا أدنى مرتبة، عالم الهندسة ابن العطار[١] والفلكي ابن الخياط[٢].

(١) التكملة، جزء ١، صفحة ١٢٨ ـ طبقات الأمم، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) Sanchez Perez La Ciencia Arabe en la Edad Media., P. 25. ـ طبقات الأمم، صفحة ١١٧.

البَابُ الخَامِسُ

- يحيى القادر ابن ذي النون .
- سقوط طليطلة .

الفصل الأول

يحيى القادر بن ذي النون

لقد كانت، كما هو تاريخ مُلك بني ذي النون في طليطلة، مسألة خلافة الرجل الكبير المأمون على درجة كبيرة من الغموض والاضطراب. ذلك إن جل المؤرخين المسلمين من أندلسيين ومشارقة ما كانوا يضمرون وداً لهذه العائلة فكتبوا ما كتبوا من تاريخها وأخبارها، على قلته، بكثير من عدم الاهتمام وربما بعدائية متعمدة. لقد اكتفوا من أخبار وفاة المأمون بالإشارة إلى أنه قد مات في قرطبة وتسلم وريثه، حفيده القادر، العرش من بعده مهملين أية تفاصيل أو روايات جانبية حول الموضوع. وهذا يجعلنا نطرح تساؤلين هامين:

- من هم أولاد المأمون وما هو عددهم؟
- لماذا خلف المأمون حفيده القادر وليس ابنه إسماعيل؟

والواقع إن المؤرخين وكتاب التراجم المسلمين ما تركوا لنا أية إشارة حول حياة إسماعيل كبير أولاد المأمون وأخبار موته والدور الذي يمكن أن

يكون قد قام به في مملكة طليطلة على حياة أبيه. كل ما نعرف عنه أنه في العام ١٠٤٩ كان يعيش في طليطلة وكان يحمل لقب الحاجب تكريماً له وتشريفاً لمكانته[١]. إنما، غير ذلك لا نملك أية إشارة تتعلق به وبحياته. وهناك من ناحية أخرى رواية مختلفة نقلها إلينا مؤرخ إسباني نصراني قديم[٢] ورد فيها إن المأمون قد خلفه ابنه هشام الذي حكم لفترة قصيرة ثم توفي في نفس السنة التي مات فيها المأمون. ولا تقدم لنا المصادر الأندلسية أية إشارة تساعد في التعرف على شخص هشام هذا أو الدور الذي ربما يكون قد قام به في حياة المأمون أو بعد موته ونحن لا نستطيع أن نجاري دنلوب[٣] في افتراضه بأن المؤرخ المذكور قد التبست عليه الأمور وجعل من إسماعيل هشاماً وأنهما شخص واحد ذلك إن من المعروف والمسلم به أن هذا المؤرخ كان على معرفة تامة بأخبار طليطلة وأنه كان يعتمد دوماً على روايات لمؤرخين أندلسيين عاصروا العائلة الذنونية. وهناك أمر مؤكد، أشار إليه ابن بسام في ذخيرته وهو إنه كان من الشائع في الأيام الأخيرة من حياة المأمون أن وريثه وخليفته على العرش هو حفيده. ذلك إن المأمون قبل وفاته بفترة قصيرة استدعى حفيده القادر وأمره بأن يلتزم دوماً بنصائح وإرشادات الوزير ابن الحديدي كما أخذ على هذا العهود والمواثيق بأن يستمر وفياً مخلصاً للعائلة الذنونية ممثلة بشخص حفيده الأمير الشاب يحيى القادر[٤].

ومن كل هذا يمكننا أن نستنتج ما يلي:

١ ـ لا بد أن يكون إسماعيل المذكور قد توفي بعد فترة قصيرة من نهاية العام ١٠٤٩ في وقت كانت فيه مملكة طليطلة ما تزال ضعيفة وعائلتها

(١) Levi Provencal, Inscriptions Arabes en Espagne., P. 190.

(٢) Cronica General de Espana., P. 537.

(٣) Dunlop, P. 91.

(٤) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٨.

الحاكمة مغمورة ما حققت بعد لنفسها من الشهرة ما يلفت إلى أخبارها ومنجزاتها اهتمام المؤرخين. وبهذا فقط يمكن أن نفسر إهمال المؤرخين وكتاب السير والتراجم لأخبار بكر المأمون. عندما سجل المؤرخ ابن حيان أخبار الاحتفال الشهير المعروف باعذار ابن ذي النون توقف عند أبسط التفاصيل، وعدد أسماء جميع الأشخاص البارزين الذين شاركوا فيه دون أن يعرض من بعيد أو قريب لذكر اسم إسماعيل والد يحيى صاحب الاحتفال الذي اجتمع الناس للاحتفال باعذاره. ولا بد من التسليم بأن عدم إيراد اسم إسماعيل بين الحضور هو دليل قاطع على أنه كان قد غادر الحياة قبل ذلك الاحتفال.

٢ ـ وفيما يتعلق بهشام الذي أشار إليه المصدر الإسباني فإني أميل إلى الاعتقاد بأنه ولد آخر للمأمون. إلا أنني لا أستطيع أن أقبل كما فعل هذا المصدر أنه قد تسلم العرش بعد أبيه وأنه صار بذلك ولو لفترة قصيرة ثالث ملوك هذه العائلة. ذلك إنه كان من المعروف أنه حين وصول جثمان المأمون من قرطبة إلى طليطلة استقبله عند مشارفها القادر بصفته سيد المملكة و «ملكها الجديد»[١] والرحلة على الأقدام أو بالقوافل بين البلدين لا تستغرق إلا أياماً عدة. ومن هنا لا نجد من المقبول والمعقول أن يكون هشام قد ملك بعد أبيه المأمون وقبل أن يصير العرش إلى يحيى القادر. والأرجح أنه قد توفي في تاريخ غير معروف وإنما على حياة أبيه المأمون. ذلك أن مجرد تسمية المأمون لحفيده القادر على حياته كوريث له وكولي للعهد يفترض أنه ما بقي له ولد ذكر على حياته يرث ملكه.

يحيى القادر:

لا نعرف الشيء الكثير عن مولد يحيى القادر بن ذي النون وكذلك عن

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٨.

طفولته . وقد جاء وهو ولد صغير إلى بلاط جده في طليطلة حيث عاش مدللاً بين خدم ونساء وجواري القصر[1] مما جعله يكتسب تربية أنثوية . ثم إنه كان بطبيعته ضعيفاً ، عاجزاً غير مهيأ لشغل المنصب الهام الذي كان ينتظره . شكا طيلة حياته من مرض حاد في أمعائه[2] . وبذا تكون قد تعاونت العناصر الطبيعية وظروف تربية القادر لتعطي مملكة طليطلة أضعف ملوكها وأقلهم مقدرة وكفاءة مما سيذهب في فترة قصيرة بكل انجازات العائلة الذنونية . فضائله القليلة تمثلت في فصاحة حديثه ، وحبه الشديد للآداب والعلوم ، إذ كان من كبار جامعي الكتب وحماة مؤلفيها[3] ، وكذلك في حسه الاجتماعي . إلا أن هذه الميزات وإن كانت ضرورية وهامة لديبلوماسي أو وزير أو عالم أو رجل مجتمع فهي ما كانت أساسية ولا كانت كافية لرجل كان عليه أن يدير شؤون مملكة وكانت تنتظره أحداث جسام . ومن هنا فإنه حين ارتقى عرش طليطلة ، وهو الرجل الذي طالما رأى نفسه تحكمه وتدبر شؤونه نساء القصر وجواريه ما وجد غريباً ولا غير مناسب أن يسلم قيادة أموره إلى أرستوقراطية طليطلة وأن يبدي كل استعداد لتلبية مطالبها وتحقيق طموحاتها مما جعله يرتكب في أيام مُلكه الأولى سلسلة من الحماقات والأخطاء الكبيرة . وبذا فتح باب السقوط السريع والمؤكد أمام مملكة بني ذي النون .

مقتل ابن الحديدي :

تحدثنا سابقاً عن الدور الخطير الذي كان يقوم به الوزير العالم الحكيم ابن الحديدي في ظل مُلك المأمون ابن ذي النون . لقد اعتبره المأمون دائماً أهم ركائز حكمه وذلك لما عرف به من كفاءة وخبرة وحزم

(١) كتاب الاكتفاء ، صفحة ١٥٥ .

(٢) الذخيرة ، جزء ٤ ، صفحة ١١٨ .

(٣) Espana del Cid T I., P. 80.

وإخلاص للعرش ولسيده. ولذا رأيناه قبل وفاته ولضمان ديمومة مُلك عائلته ينصح حفيده وولي عهده بأن يثق بوزيره دوماً وأن يلتزم بنصائحه وإرشاداته.
وكانت أولى أخطاء يحيى القادر في الحكم الإصغاء لدسائس ووشايات مقدمي ووجهاء المملكة. وكان هؤلاء يعادون الوزير ويحقدون عليه وقد حاولوا أكثر من مرة أيام المأمون دون نجاح إزاحته عن منصبه. ونتيجة لما كان يعرفه هؤلاء عن ضعف القادر فإنهم على أيامه ما عادوا يسعون فقط لإزاحته وإنما صاروا يطالبون برأسه. وقد استغلوا وجود الوزير ابن الحديدي في قرطبة، مشغولاً بتجهيز المأمون بعد موته ونقله إلى عاصمته، فتحلقوا حول القادر يؤلبونه على وزير جده. وما وجدوا أية صعوبة في إقناعه بإصدار أمره بقتل الوزير الأمين المخلص. وقد أقنعوه بأنه لن يتمكن من أن يحكم مملكته باعتباره سيدها وصاحبها الوحيد المطلق ما دام ابن الحديدي على قيد الحياة لأنه سيراقب أعماله دوماً وسيجعله عملياً تحت وصايته[1].
ولما كان القادر ضعيفاً وعديم الكفاءة والمقدرة كما ذكرنا سابقاً فإنه ما استطاع أن يقاوم هذه النصائح وانساق مع أهواء أصحابها. ولقتل ابن الحديدي أمر قائد الفرقة العسكرية التي ندبت لاستقبال جثمان المأمون بأن يتذرع بأي سبب كان أو أية حجة مهما كانت تافهة فيقتل بها ابن الحديدي ويعلن بعد ذلك أنه قتل بسبب حادث طارىء[2].

وقد وصلت إلى ابن الحديدي، بواسطة أحد أصدقائه المخلصين له، أخبار المؤامرة المعدة للتخلص منه قبل وصوله إلى مشارف طليطلة. لذا انفصل عن موكب الجنازة مع حاشيته واتجه إلى مزرعة له في الريف ليلجأ إليها[3]. إلا أنه سريعاً ما مل العزلة وحياة الريف فأخذ سراً طريق العودة إلى

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٨.
(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٨.
(٣) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٨.

طليطلة ودخلها ليلاً بغفلة عن الحراس والمراقبين. وإثر تدخل أحد أصدقائه ومحبيه ويدعى ابن المشاط لدى يحيى القادر استحصل له على رضى الملك ووعده بضمان سلامته. وقد وثق ابن الحديدي بهذه العهود وترك مخبأه في العاصمة ودخل البلاط لمقابلة سيده. والواقع إن الملك كان في أعماقه مصمماً على التخلص من وزير جده مهما كانت النتائج. ولما كان يخشى نفوذه وشعبيته بين الناس فقد استقدم عدداً من أعداء الوزير كان قد سجنهم في حصن وبذة على أيام المأمون وأدخلهم إلى البلاط[١]. وبوصول ابن الحديدي إلى الباحة الرئيسية للقصر وجد نفسه وسط أعدائه وأدرك نوايا الملك الحقيقية تجاهه وعرف أن صديقه ابن المشاط قاضي قونقة قد خانه وخدعه[٢]. وقد أسلمه الملك إلى أعدائه مباشرة الذين قتلوه بحضرته. حدث هذا يوم الجمعة في السادس والعشرين من آب سنة ١٠٧٥م[٣]. وما أن ذاع خبر مقتله حتى هاجم أعداؤه وعناصر الفوضى والاضطراب في المدينة دوره ودور أقاربه[٤] فنهبوها وقتلوا عشرين شخصاً من أنصاره ومؤيديه. وقد سجن ابنه سعيد قاضي طليطلة المعروف بعلمه وتقواه في سجن وبذة حيث ظل حتى وفاته في سنة ١٠٧٩م.

كانت نتائج هذه الجريمة خطيرة ومدمرة بالنسبة لأمن وسلامة المملكة. فعلى الصعيد الداخلي أعادت انقسام سكان المملكة إلى حزبيتين متعاديتين على استعداد دائماً للوصول بالبلاد إلى الحرب الأهلية. ذلك إن مكانة ابن الحديدي كانت كبيرة جداً في أوساط العلماء والفئات المتدينة التي

---

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٧٩.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١١٨.

(٣) الصلة، رقم ١٣٦٠، صفحة ٦٠٨.

(٤) أعمال الأعلام، صفحة ١٧٩.

(٥) الصلة، رقم ٥٠٥، صفحة ٢٢٢.

كانت ترى في وجوده في الحكم ضمانة لاستمرار الهدوء والسلام في البلاد. يضاف إلى ذلك إنه كان من المعروف والمسلم بـه أن مقتلـه سيفتح الباب واسعاً أمام دسائس ومؤامرات الأرستقراطية الساعية دوماً لتحقيق مطامعها وصيانـة مصالـح أفرادهـا الشـخصية. وعلـى صعيد العلاقـات مع البلـدان المجاورة كانت النتائج أسوأ والعواقب أخطر.

لقد ذهب مقتل ابـن الحـديدي بأفضـل رجـال السياسـة في طليطلـة وبأقدرهم على الدفاع عن سيادتهـا وأراضيهـا. كان خبيراً في التعامـل مع الممالك الإسبانية المسيحية، عارفـاً بأسـاليب مداراة الملـوك الأنـدلسيين المعادين لطليطلة الطامعين بأقاليمها. غياب هذا الـوزير المفاجـىء أبقـى حدود المملكة تحت رحمة ملك ضعيف جاهل وأرستوقراطية مهترئة غافلـة عن مصالح عامة مسلمي إسبانيا آنذاك. والخلافات الداخلية التي ظهـرت مباشرة بعد مقتل الوزير أعطت ابن هود صاحب سرغوسة وابـن عبـاد سيد إشبيلية الفرصة المناسبة التـي طالمـا انتظراهـا للتدخـل في شؤون مملـكة طليطلة واقتطاع بعض أقاليمها.

انفصال بلنسية:

كانت أولى وأسوأ نتائج سياسة يحيى القـادر الخرقـاء وغير الحكيمـة انفصال بلنسية عن مملكة طليطلة. لقد رأينا سابقاً أن بلنسية قد ألحقت مع سائر أقاليمها بمملـكة طليطلـة في سنـة ١٠٦٥ بمبـادرة من الملك القـوي المأمون. وقد رأينا أيضاً أن هذه المدينة ظلت على إخلاصها وولائها للعائلة الذنونية حتى وفاة المأمون وأن حاكمها «أبو بكر» كان دائماً يمسك بزمـام الأمور فيها باسم المأمون وبدعم منه. إنما ما ارتكبه القـادر من حماقـات ومظالم منذ أيامه الأولى في الملك، وما تلى ذلك من فوضى واضطراب في سائر أنحاء المملكة أعطـى حاكم بلنسية الفرصـة الثمينـة والمناسبـة ليفـكر

بالاستقلال ببلده. ذلك إن القوة العسكرية والسياسية التي كانت دائماً ضمانة استمرار الاتحاد بين البلدين ما عادت قادرة على تأمين استمرار سيادة العرش الذنوني في أراضي بلنسية كما كان يحصل أيام المأمون. وعلى هذا عندما باشر ابن هود سيد سرغوسة دسائسه ومؤامراته ضد الذنونيين في طليطلة ما وجد كبير صعوبة في إقناع صاحب بلنسية وحاكمها بالانفصال والاستقلال ببلده. وما تردد «أبو بكر» حين وجد الدعم والتأييد اللذين كان يحتاجهما في اللجوء إلى القوة وإعلان استقلاله ببلنسية وأراضيها[1]. ولتقوية تحالف بلنسية مع سرغوسة بادر صاحب هذه، بعد فترة قصيرة إلى، الزواج من ابنة حليفه الجديد سيد بلنسية. ولا أظن أن هذا الانقلاب قد تم بمعزل ودون موافقة أعداء القادر الكثر من الطليطليين وخاصة أولئك المعارضين لحكم جده المأمون والذين أذلهم كثيراً، وآذاهم دون حدود على حياته، فحقدوا على حفيده وانتقموا منه[2].

كانت لهذه العملية الانفصالية آثار مؤلمة داخل مملكة طليطلة لأنها كشفت الحد الخطير من الضعف والانحلال الذي بلغته المملكة في ظل القادر، وبعد مرور وقت قصير جداً على وفاة المأمون. وإضافة إلى ذلك أعطت الحجة والمبرر للفئات المحافظة والمتدينة التي آلمها مقتل ابن الحديدي لتشدد من معارضتها للقادر وحكمه.

وما كان بإمكان الجار القوي ألفونسو السادس ملك قشتالة أن يقف متفرجاً وهو يرى أراضي جاره تتناقص لصالح أعدائه من ملوك الأندلس المسلمين. وعلى هذا رآى أن يلجأ للقوة ليظهر لأهالي طليطلة عامة، وللحزب المحافظ بصورة خاصة، أن أمجاد مملكتهم قد طويت بوفاة الرجل

---

(١) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٥.

(٢) Adefonsus **Imperator** Toledtanus, **Menendez Pidal., P.** 134.

القوي المأمون وأنهم لا يستطيعون بعد الآن الاستغناء عن حمايته لهم ولبلدهم. استغل المتاعب التي أعقبت انفصال بلنسية، فعبر الحدود مع مملكة طليطلة واجتاح الأراضي الواقعة شمالي المدينة دون أن يواجه أية مقاومة جدية من جيش القادر. ومع أن هذا قد قدم للإسبان تنازلات هامة فإن جيشهم ظل يزرع الرعب والخوف في قلوب أهالي المملكة[1]. إلا أن التفاصيل الحقيقية لما جرى في هذه الغزوة ولما نتج عنها ما تزال مجهولة منا، ذلك لأن رواية ابن بسام وهو الذي نقل إلينا خبرها كانت مقتضبة جداً[2]. وعلى كل حال أعتقد إنه لا يمكن اعتبار هذه الغزوة بمثابة حملة عسكرية جدية إذ كانت بمثابة غارة صغيرة محدودة الهدف على اعتبار أنه وحتى ذلك التاريخ كانت ما تزال لمملكة طليطلة سمعة ومهابة وما كان أحد يتوقع لها سقوطاً قريباً.

غزوات ابن هود:

كان سيد سرغوسة آنذاك ابن هود يحمل أرثاً كبيراً من الحقد والعداء مما طالما أظهرته عائلته تجاه مملكة طليطلة. وقد اعتبر مع مجيء القادر الوقت ملائماً لغزو أراضي المملكة المجاورة وإنجاز ما عجز جده المستعين، قبل ثلاثين عاماً، عن إنجازه على حساب أراضيها. بعد أن ساهم في تحقيق استقلال بلنسية وضمن حياد صاحبها بتوقيع عقد تحالف معه أعلن مطامعه بالاستيلاء على بعض أراضي الحدود مع طليطلة. وعندما رفض القادر ابن ذي النون التجاوب مع هذه الأطماع وأظهر الرغبة في الدفاع عن سلامة حدوده، باشر المقتدر ابن هود اتصالات مع سانشو راميزر صاحب آراغون للتعاون معه في غزو أراضي طليطلة. دخلت قوات الملكين

---

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٠.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٠.

أراضي بني ذي النون[1] واستولى ابن هود على مليقة[2] وشنتبرية مهد وموطن العائلة الذنونية في الوقت الذي كان فيه الملك الإسباني يلقي الحصار على مدينة قونقة ويزرع الخوف والدمار في أحوازها. وقد أحكم هذا حصاره على المدينة وضيق على أهلها حتى عضهم الجوع واضطروا لمراضاته بمبالغ كبيرة من المال مقابل انسحابه ورفع أذاه عنهم. عندما تلقى القادر أخبار هذا الغزو قرر اللجوء إلى القوة للدفاع عن سمعته وحدود بلاده ولتهدئة خواطر الحزب المناوىء له. شكل جيشاً خاصاً أوكل قيادته إلى الفتى بشير وأمره بطرد الغزاة الهوديين والآراغونيين الذين ما لبثوا أن انسحبوا يحملون معهم وافر الغنائم قبل أن يواجهوا جيش طليطلة.

ومع أن الجيوش الغازية قد انسحبت والأراضي المحتلة قد استعيدت فإن القادر ما استعاد مهابته ولا تغيرت قناعة رعاياه بضعفه وعدم قدرته على حماية حدود البلاد وسلامتها. وهذا جعله يقتنع في أعماقه بأنه لا يستطيع الاستمرار في الملك بمواجهة معارضة أخصامه المتناهية دون تأييد ودعم صديقه وصديق عائلته ألفونسو السادس.

طليطلة سنة ١٠٧٩:

يبدو لي أن الصورة التي رسمناها في مقدمة هذا الكتاب لتاريخ مدينة طليطلة منذ بداية الفتح العربي لشبه الجزيرة الإيبرية حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة كافية لتكوين فكرة واضحة عن التركيبة السكانية لهذه المدينة ونزعات أهلها السياسية المختلفة والمتضاربة أحياناً مما يساعد كثيراً على فهم الأوضاع الداخلية والانقسامات والصراعات التي سبقت سقوطها النهائي بأيدي الإسبان. من المعروف أن أهل طليطلة ما كانوا متجانسين في

(١) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٥.

(٢) المقصود هنا حصن في مقاطعة قونقة. يعرف اليوم باسم Molina de Aragon.

ظل دولة الإسلام لتكونهم من جماعات مختلفة في العنصر والدين والعقلية.
وإذا كان الإسلام السياسي قد توصل على أيام الخليفة الناصر لإخضاع هذه المدينة فإنه ما أفلح أبداً في دمجها بصورة كاملة ودائمة في الوحدة الوطنية للأندلس. وعدد كبير من أهل طليطلة أصر ليس فقط على الاحتفاظ بدينه المسيحي وإنما أيضاً بحس وطني إسباني ما خبت ناره في يوم من الأيام.
ومع قيام مملكة طليطلة نجح المأمون بشخصيته القوية وذهنه المتحرر في استقطاب ولاء سائر سكان البلد ومحبتهم مما أمن له إجماعاً عاماً حول نظامه وعرشه. إلا أن هذا الرجل قد خلف بعد وفاته فراغاً سياسياً مرعباً كان، مع حفيده القادر، في تزايد مستمر بسبب ضعف هذا الأخير وعدم كفاءته. وقد جاءت الأحداث المتوالية والسريعة، من مقتل ابن الحديدي وانفصال بلنسية إلى غزوات ابن هود والأراغونيين لتكشف ضعف اللحمة الوطنية بين أهالي طليطلة ولتكشف الفروقات والخلافات بين سائر فرقهم وأحزابهم. وعندما عمد القادر إلى الاستنجاد بألفونسو السادس وطلب العون والمساعدة منه اشتدت الأزمة وانقسم السكان حول هذا الموضوع بالذات إلى حزبين متعاديين متصارعين.

١ ـ الحزب المحافظ والمتشدد: من الناحية العملية والتاريخية ما كان هناك في يوم من الأيام حزب يحمل هذا الإسم. ولكن نظراً لإهمال المؤرخين الأندلسيين الإشارة إلى الكثير من التفاصيل المتعلقة بالتجمعات الطليطلية وأخبارها فقد اخترنا أن نطلق نحن هذا الاسم على تجمع من الطليطليين انطلاقاً من أفكارهم ومواقفهم السياسية وتحركاتهم. وكان يدير أمور هذا الحزب ويوجه أفكاره ونشاطاته فقيه وجيه يدعى ابن مغيث. وكان هذا يظهر دوماً تشدداً كبيراً حيال الإسبان النصارى في الشمال ويرفض كل تعاون أو تحالف أو حتى مجرد التفاهم معهم. كان ابن مغيث شديد الاهتمام بمصلحة إسبانيا الإسلامية العليا بصورة عامة يبشر دوماً بضرورة المحافظة

على سلامة وحدود واستقلال الأندلس. ومع أننا لا نملك معلومات وافية عن الجماعات التي كانت تؤلف هذا الحزب إلا أنه من المنطقي الافتراض، اعتماداً على ما نعرفه من تاريخ المدينة، أنه كان يضم بالدرجة الأولى طبقة الفقهاء ورجال الدين والعرب وأيضاً الأندلسيين المتدينين سواء من كانوا من أصول إسبانية أو بربرية. وهذه الجماعات عارضت القادر ورفضت سياسته ونهجه معتبرة أن ضعفه واستعداده الدائم للتساهل وربما للتنازل حيال الإسبان سيوديان بسلطان الإسلام في هذه الأراضي إلى الهاوية.

ـ الحزب المعتدل: الذي كان يتألف من الجماعات التي أظهرت، منذ نزول العرب في إسبانيا، ميلاً دائماً واستعداداً للتعاون مع الجيران الإسبان النصارى. وكانت هذه الجماعات بصورة عامة كارهة للهيمنة العربية ورافضة لتسلط الأرستوقراطية العربية على شؤون إسبانيا الإسلامية. وقد رأينا هؤلاء على امتداد حياة الدولة الأموية في الأندلس لا يترددون في التعاون، وأحياناً التحالف، مع جيرانهم الإسبان النصارى بوجه سلطة قرطبة كلما رأوا ذلك ضرورياً أو مفيداً لهم. ومع بني ذي النون، وقد تحقق لطليطلة وأقاليمها استقلال كامل، كانت هذه العناصر المعتدلة شديدة الرغبة في الاستمرار بما هي عليه تفيد من الاستقرار الاقتصادي والازدهار الثقافي والعلمي مما تحقق في طليطلة في القرن الحادي عشر. وما كانت ترى هذه العناصر من وسيلة لذلك في ظل الملك الضعيف القادر، إلا عبر تحالف مع القشتاليين وحماية من سيدهم ألفونسو السادس وأيضاً بعد عن مشاكل وصراعات إسبانيا الإسلامية الكثيرة والمعقدة. وللوصول إلى السلام المنشود والدائم ما كان هؤلاء يرون مانعاً حتى في دفع المال لألفونسو السادس. وانطلاقاً من مواقف هذا الحزب وميول أهله أجدني أفترض أن هؤلاء كانوا في أكثريتهم الساحقة من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام واحتفظوا في الوقت نفسه بإحساس وطني إسباني عميق جعلهم يتأثرون

بالروابط القومية التي ظلت تشدهم دائماً إلى إسبان الشمال النصارى. وكان من أهل هذا الحزب أيضاً جماعة المستعربين المعادين أساساً ولو ضمنياً لسلطان دولة الإسلام في إسبانيا.

وهكذا جاء مقتل الوزير ابن الحديدي وما تلاه من أحداث مأساوية ليكشف هشاشة الوحدة الوطنية التي فرضتها شخصية المأمون القوية حول عرشه ونظامه وانطلاقاً من الاستقلال الكامل الذي حققه لأهل طليطلة. وازداد انقسام الطليطليين حدة وعنفت الصراعات بينهم حين طرح بصورة جدية مصير المملكة كلها بعد أن تأكد فشل سياسة القادر الكامل، وظهر عجزه التام عن إدارة شؤون الدولة. وقد زادت في تصلب جماعات الحزب المحافظ ممارسات ألفونسو السادس المتزايدة عداء للمسلمين. فقد قاد حملة على أراضي طليطلة على ما بينه وبين صاحبها من روابط حسنة، وحارب ابن الأفطس صاحب بطليوس، واسترد مدينة قورية من أهلها المسلمين. وتجذر تصميم هذه الجماعات على الصمود ومقاومة سياسة القادر المهادنة للإسبان انطلاقاً من اعتبارين اثنين: لقد تأكد لهم أنه لا يمكن الركون إلى سياسة ألفونسو السادس، كما فعل ملكهم الضعيف، لأنه كان يمارس فعلاً حرب موت أو حياة ضد دولة الإسلام في إسبانيا وبالتالي فإن كل مهادنة له أو تعاون معه سيقود إلى الاستسلام. ثم إنه يمكن توقع الحصول على عون ومدد من إفريقيا[1]، إذ استنجد بأسيادها المرابطين المتوكل صاحب بطليوس وهو ينتظر نجدة من هناك.

وإضافة إلى ما كان يعانيه الطليطليون من انقسامات تضعف صفوفهم، كانت ممارسة القادر السياسية تزداد كل يوم سوءاً وتفقده تأييد وعطف من كانوا ما يزالون واثقين به على ندرتهم. لقد التزم الحياد الكامل أو بعبارة أصح اللامبالاة حيال صراع الحزبين الرئيسيين حول التعاون مع ألفونسو

(١) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٥.

السادس اعتقاداً منه أن الصراع سيضعف الاثنين مما يؤدي إلى تقوية سلطانه هو. وقد جاءت النتيجة مخالفة تماماً لما توقع إذ بعد وقت قصير من بداية ملكه أضاع كل شعبيته ومصداقيته حيال أتباعه وفتح الباب واسعاً أمام ثورة ضد حكومته وعرشه. وبسبب ضعفه وعدم كفاءته ترك نفسه تنساق مع أحقاده ضد الحزب المحافظ المعارض أساساً لسياسته فأوكل إدارة شؤون دولته وبلده إلى عناصر وصولية فاسدة أساءت معاملة الناس وعملت على جمع أكبر كمية من مال الضرائب في أقصر وقت ممكن لتلبية مطالب ألفونسو السادس المتزايدة ثمناً لحماية مزعومة لعرش طليطلة وأيضاً لجمع ثروات شخصية لكل واحد منها.

هرب القادر:

مع تردي الأوضاع في طليطلة بصورة خطرة ما وجد القادر في نفسه الشجاعة اللازمة والمقدرة والكفاءة لمواجهة الأحداث ومحاولة معالجتها وتفادي الأسوأ. لقد اختار الحل الذي اعتقده الأسهل والأيسر وقرر المغامرة بطلب مساعدة عسكرية مباشرة من الإسبان غير عابيء بما قد يكون لذلك من محاذير ومما قد يستتبع من أخطار. وجه رسالة إلى صديقه وحليفه ألفونسو السادس يطلب إليه أن يرسل له عوناً عسكرياً فعالاً. ومع أن هذا كان شديد الرغبة في التدخل في شؤون مسلمي طليطلة واستغلال انقساماتهم وخلافاتهم، لجمع مزيد من المال والاستيلاء على مزيد الأرض إلا أنه تباطأ في تلبية الطلب وكتب إليه: «وجه إلي مالاً إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك وإلا سلمتك لأعدائك»[1]. ولما كان القادر مصراً على الحصول على تلك المساعدة، لاعتباره اياها وسيلته الوحيدة للخروج من محنته، ولرغبته الشديدة في قهر أعدائه ومعارضيه فقد جمع كبار موظفيه ووجهاء ومقدمي مملكته وأخبرهم بموافقته على مطالب الملك الإسباني وأمرهم بجمع المال المطلوب منذراً إياهم:

(١) كتاب الاكتفاء. ص ١٥٥.

«أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين لأجعلن عنده رهناً جميع من عندكم من العيال والبنين»[1]. وقد أصابت الدهشة والذهول المجتمعين لضخامة المبلغ المطلوب وعجزوا عن تقديم الإجابة المناسبة إلى أن تجرأ الزعيم الشجاع ابن لبون وأجاب القادر: «لقد خلعت نفسك بما قلت وبما أزمعت عليه وعولت»[2].

أثر هذه المقابلة اعتبر الطليطليون أنفسهم في حل من ولائهم لملكهم وأحراراً من القسم الذي أعلنوه بالخضوع لحكمه. لقد اقتنعوا بأنه يستحيل عليهم الاطمئنان إلى سلامتهم ومستقبلهم طالما بقي على رأس الحكومة في بلدهم ملك خائن وقرروا البحث عن أسباب النجاة مما هم فيه خارج بلدهم. وعندما عرف القادر قرار أهل مملكته اختار، على عادته، الحل الأسهل وقرر الهرب تاركاً بلاده ورعاياه في ظل الفوضى وغياب السلطة. ولما كان اليأس قد سيطر عليه تماماً خاصة وأنه ما كان ينتظر وصول مساعدة الملك الإسباني إذ لم يدفع له المبالغ المطلوبة، فقد بدت له طريق الخلاص أن يكون خارج طليطلة. وهكذا غادر قصره سراً في ليلة من ليالي سنة ١٠٨٠م مع نفر من خدمه المخلصين له يحمل كل ما ورثه عن أسلافه من أموال وتحف وجواهر. وكان على زوجته ابنة ملك بلنسية السابق وابنته أن تلحقا به على الأقدام مسيرة فرسخين قبل أن يتيسر لهما ما تحملان عليه[3]. اتجه أولاً نحو حصن وبذة مهد آبائه وأجداده القديم إلا أن سيده ابن وهب رفض استقباله وإيواءه مما أجبره على اللجوء إلى حصن آخر حيث قضى بعض الوقت قبل أن يحل في مدينة قونقة التي استقبله حاكمها ابن الفرج[4]

(١) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٥.

(٢) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٥.

(٣) أعمال الأعلام، صفحة ١٧٩.

(٤) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٤.

بترحاب. وهناك اتخذ القادر مقراً له وبدأ اتصالاته بصديقه الإسباني ألفونسو السادس يلح عليه لكي يساعده على استعادة سلطانه على عاصمته طليطلة.

المتوكل في طليطلة:

في الليلة التي هرب فيها القادر كان عدد من وجهاء طليطلة ومقدميها من أنصار التيار المحافظ يجتمعون ويتداولون في أوضاعهم وشؤون بلدهم بحثاً عن مخرج يقي المملكة مهاوي الحرب الأهلية[1]. وحين وصل إلى المجتمعين خبر هرب القادر أصيبوا بالذهول والدهشة وقرروا البحث لمملكتهم عن سيد قادر خارج طليطلة ومن غير العائلة الذنونية. وكان بين المجتمعين رجل مغامر، عميل للمتوكل بن الأفطس سيد بطليوس، فبادر لاستغلال المناسبة ووجه المناقشات لصالح سيده وجعل المجتمعين يقررون استدعاءه[2]. وعلى هذا توجهت بعثة من وجهاء طليطلة إلى مدينة بطليوس لتعرض على سيدها أن يشغل عرش مدينتهم الشاغر. ولما كان هذا ينتظر مثل هذه الدعوة فقد مشى فوراً إلى عاصمته الجديدة ودخلها في شهر حزيران من سنة ١٠٨٠م[3].

كان المتوكل سيد طليطلة الجديد من عائلة بني الأفطس التي تحكم مدينة بطليوس منذ بداية عصر الطوائف. وكانت هذه العائلة، مثل بني ذي النون، من أصول بربرية ولو أن أبناءها كانوا يصرون على أنهم من أصل عربي يعود بهم إلى عرب الجنوب[4]. كان الملك الجديد شاباً مثقفاً، شديد الولع بالعلوم والآداب، إلا أنه من ناحية أخرى كان يحب حياة اللهو والمرح ويكثر من الشراب. ما فكر عند استلامه الحكم في طليطلة حتى

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٢.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٣.

(٣) أعمال الأعلام، صفحة ١٨٠.

(٤) Levi - Provencal, Hesperis 1931., P. 44.

بمجرد السعي لإخراج المملكة مما كانت تتخبط فيه من انقسامات داخلية وفراغ سياسي ولا شغل نفسه بمعارضة دسائس ومؤآمرات القادر ابن ذي النون ومطامع ألفونسو السادس بمملكته وأراضيها. لم يبذل أي جهد لإصلاح أوضاع المدينة المتردية وجعلها أقدر على مواجهة خطر غزو إسباني محتمل بل ومتوقع. لقد وثق كثيراً بأسوار المدينة القوية واطمأن إلى قدرات أبراجها الدفاعية فشغل نفسه بجمال حدائق قصر المأمون الشهيرة وانصرف إلى اللهو ومعاقرة الخمرة حتى «تمكن من الري والشبع، وتذكر عواقب الطمع ورأى أنه إن زاد على ملء بطنه كان كالسراج المنغمس في دهنه»[1]. ومع الوقت بدأ يشعر بعجزه عن مجابهة وضع طليطلة السيء وأخذ يفكر بالفرار وترك المدينة البائسة وأهلها لمصيرهم.

الطليطليون الذين استدعوا المتوكل وأملوا الخلاص على يديه أصيبوا بخيبة أمل مريرة من ممارساته. وأولئك الداعون للتعاون والسلام مع الإسبان النصارى وجدوا في تصرفاته مبررات إضافية تدعم وجهة نظرهم. في هذا الوقت كان القادر ينظم أموره بالتعاون مع ألفونسو السادس ويوثق تحالفه معه كما سنرى فيما بعد استعداداً لمهاجمة العاصمة طليطلة واحتلالها. هاجم ألفونسو السادس طليطلة واقترب من أسوارها استعداداً لاقتحامها فما وجد المتوكل من مخرج سوى تنفيذ ما سبق أن عزم عليه من الهرب، دون أن يفكر بمجرد محاولة الدفاع عن المدينة تاركاً أهلها لمصيرهم. وقد انتهت سيادة المتوكل الأفطسي على طليطلة في شهر نيسان من سنة ١٠٨١م أي بعد حوالي عشرة أشهر من دخوله إياها[2] دون أن تحدث في مقدرات مملكتها ومسارها أي جديد إيجابي ودون أن تخفف بقليل أو كثير من محنة من دعوه وأنسوا فيه الخير وأملوا الخلاص على يديه.

(١) الذخيرة، جزء ٤، مجلد ١، صفحة ١٦١.

(٢) أعمال الأعلام، صفحة ١٨٠.



الفصل الثاني

سقوط طليطلة

بعد أن رد عن أبواب مدينة وبذة اتجه يحي القادر إلى مدينة قونقة حيث استقبله بنو فرج الذين كانوا ما يزالون على ولائهم لبني ذي النون وقدموا له الملجأ والحماية، وأيضاً لحاشيته، وبذا ردت إليه روحه واستعاد سكينته. وما كان آنذاك يعتبر خروجه من طليطلة نهائياً ومقبولاً منه ولذا بدا عازماً على استعادة عاصمته بأي ثمن كان. بادر للكتابة مجدداً إلى حليفه وصديقه القديم أالفونسو السادس طالباً منه العون والمساعدة لما بين الرجلين من تحالف قديم ومذكراً بالضيافة السمحة التي قدمها له جده المأمون حين كان مبعداً عن موطنه. وما استطاع ألفونسو السادس إلا أن يتحسس تلك الذكريات القديمة، ولا قدر أن يبقى غير مبال بفرصة عظيمة يقدمها له القادر تتيح له التدخل في شؤون المملكة المنكودة الداخلية وتسمح له بتحقيق مكاسب هامة مالية وإقليمية. بادر الملك الإسباني فوراً بالتوجه إلى قونقة حيث اجتمع بالقادر ابن ذي النون واتفق معه على مساعدته وطرد الملك

الأفطسي من عاصمته وإعادته إلى عرشها على أن يتخلى له عن السيادة على هذه المدينة متى استعاد له مدينة بلنسية.[1] وقد تعهد له القادر فوق ذلك بأن يدفع من ماله كل تكاليف الحملة العسكرية وأن يسلمه كل ما كان قد بقي في طليطلة من موجودات وكنوز العائلة الذنونية. وكتأكيد على نيته في تنفيذ سائر أحكام هذا الإتفاق الثنائي أعطاه رهينة، حصنين لهما أهمية عسكرية واسراتيجية عظيمة هما سورية في غرب أراضي مملكة طليطلة وقورية في الجهة الشرقية[2] وقد باشر ألفونسو السادس فوراً بتجهيز الحصنين بالسلاح والمؤن والرجال وحولهما إلى نقطتي انطلاق أساسيتين لمهاجمة إسبانيا الإسلامية. والواقع إن هذا الاتفاق يظهر المدى الذي وصل إليه ضعف يحي القادر واستهتاره وإلى أي حد تسلطت عليه أنانياته وشهواته وأحقاده. مدفوعاً بحقده الأعمى على معارضيه المتشددين من أهل طليطلة وبرغبته في استعادة سلطانه ما تردد في الذهاب إلى حد التآمر على مواطنيه ورعاياه والتعهد بتسليم عاصمته، الحاضرة الأندلسية الكبيرة، إلى الملك الإسباني. وهنا تجدر الاشارة إلى أن ابن الكردبوس لا يجعل تسليم طليطلة من شروط اتفاق قونقة الثنائي وإنما يرى أن القادر عرض على ألفونسو السادس مبادلة طليطلة ببلنسية بعد ذلك حين اشتدت معارضة أهل المدينة له ولحكمه أثر استعادته السيطرة على عاصمته بحراب الملك الإسباني وبعد أن تعرضت أراضيه للغزو من قبل ملكي سرغوسة وإشبيلية. إلا أنه يبدو لي من المنطقي والمعقول التسليم مع بيدال[3] بأن الرجلين قد اتفقا فعلاً على تسليم طليطلة للإسبان في اتفاقية قونقة لورود هذه الرواية عند ابن الخطيب[4] وابن

---

(١) أعمال الأعلام، صفحة ١٨١ - الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٦.

(٢) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٧.

(٣) Espana del Cid T. I P. 265.

(٤) أعمال الأعلام، صفحة ١٨١.

بسام[1] المؤرخين المعروفين بشدة معرفتهما بأخبار القرن الحادي عشر عموماً وطليطلة بصورة خاصة.

بعد الاتفاق بين الملكين جمع ألفونسو السادس جيشاً كبيراً وانطلق يباشر غزو أراضي مملكة طليطلة يخرب أراضيها وينشر الخراب والرعب بين أهلها ويدمر ضواحي عاصمتها. وعندما تسربت هذه الأخبار إلى المتوكل الأفطسي وأدرك قوة الخطر الإسباني وعجزه عن رد الغزاة خان الطليطليين وفر تاركاً إياهم لمصيرهم السيء. ألقى ألفونسو السادس حصاراً قوياً على طليطلة كان يشتد بصورة متزايدة. شدة الحصار ونفاذ الأغذية والمؤن من المدينة والخوف من انتقام المحاصرين كل ذلك جعل الطليطليين يفتحون أبواب مدينتهم ويدخلون ملكهم السابق. وما لبث يحيى القادر أن توج نفسه مجدداً في شهر أيار من سنة ١٠٨١ في عاصمة عائلته القديمة.

وفى القادر بتعهده وقدم إلى ألفونسو السادس كل ما وجده في القصر الملكي من تحف وثروات ومن أموال آل ذي النون. وقد اعتبر ألفونسو السادس ما قدم له قليلاً وغير كاف واتهم القادر بأنه قد أخفى الكثير مما وجده في المدينة ولذا طالب بأن يعطى بالمقابل كرهينة حصن قنالش الهام[2]

هكذا خرج ألفونسو السادس من هذه الصفقة بمكاسب عظيمة على الصعيدين المادي والمعنوي. فقد استولى على ثلاثة حصون هامة ومبالغ ضخمة من المال ومن ناحية ثانية حقق كسباً معنوياً هاماً إذ ارتفعت مكانته وازدادت هيبته وظهر في أواخر القرن الحادي عشر بين الإسبان من مسلمين ونصارى بمثابة السيد الحقيقي والأقوى لكل شبه الجزيرة الإيبرية.

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان السؤال الهام التالي. لماذا لم يستغل

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٤.

(٢) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٧.

ألفونسو السادس المناسبة التي أتيحت له ويستولي على طليطلة إذ كان قادراً على ذلك؟ ولماذا اختار تأجيل مثل هذا الأمر خمس سنوات أخرى؟ .

ليس من المنطقي الإجابة بأنه ما استولى على طليطلة مفضلاً انتظار فرصة مناسبة تتيح له الاستيلاء على بلنسية ليقدمها للقادر عملاً باتفاق قونقة لأنه في سنة ١٠٨١ كان قادراً بالفعل على احتلال هذه المدينة الأخيرة لو أراد. أعتقد أننا نجد الجواب الحقيقي في هذا المقطع من مذكرات الملك عبدالله الزيري يوجز فيه سياسة ألفونسو السادس بصورة عامة تجاه ممالك الطوائف وعلى لسانه شخصياً إذ يقول حين عرض عليه الوزير الإشبيلي ابن عمار الاستيلاء على غرناطة لحسابه شخصياً مقابل مبلغ ضخم من المال : «وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسي وكلما أكثر الثوار ووقع بينهم التنافس كان لي أفأد! فإني على نية أخذ مال الفريقين يكسر رؤوس بعضهم ببعض ولا كان أيضاً في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه فإن عمل لذلك حساباً أن قال: أنا من غير الملة وكل الناس يشنأني فبأي وجه أطمع في أخذها؟ إن كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن وإن كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه إن صارت إلي ولو صارت لم تمتسك إلا بأهلها ثم لا يؤمنون ولا في الممكن أن تستبيح أهلها وتعمرها بأهل ملتي! ولاكن الرأي كل الرأي تهديد بعضهم ببعض وأخذ أموالهم أبداً حتى ترق وتضعف ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت وتأتي عفواً»[1] .

ومن هنا أميل إلى الاعتقاد بأن سبب تمهل ألفونسو السادس في الاستيلاء النهائي على طليطلة يعود من جهة إلى رغبته في استنفاذ طاقات وقدرات ملوك الطوائف في صراعاتهم فيما بينهم المستمرة بحيث يأتي زمن

(١) مذكرات الملك عبدالله الزيري، مجلة الأندلس، ١٩٣٥، جزء ٢، صفحة ٣٢٠.

لا يستطيعون فيه مقاومته ولو أرادوا ذلك ومن جهة ثانية للصعوبة التي كان يجدها في إعمار طليطلة وأحوازها بأناس من الإسبان النصارى. إلا أن الشيء المؤكد هو أنه منذ ذلك الوقت صار سقوط طليطلة يعتبر وكأنه أمر واقع ومؤكد. وما كانت عودة القادر ابن ذي النون إليها وإعادة تتويجه على عرشها بالنسبة لألفونسو السادس إلا أموراً آنية ومؤقتة. وانطلاقاً من هذه القناعة دخل الملك الإسباني في مباحثات مع قداسة البابا لإعادة كرسي رئيس أساقفة إسبانيا إلى طليطلة تلك الرئاسة التي افتقدتها الأسقفيات الإسبانية منذ زمن طويل[1].

الثورة في طليطلة:

بعد إعادة يحي القادر إلى عرش طليطلة عمد الملك الإسباني إلى تحصين القلاع الثلاث التي استولى عليها وتموينها بالأغذية والعدد وشحنها بالمقاتلة مما جعله من الناحية العسكرية ليس فقط سيداً على طليطلة وإنما على سائر أراضيها. وبعد أن تأكد من تفوق وضعه العسكري بالنسبة إلى المسلمين عاد إلى موطنه في قشتالة مجللاً بأكاليل المجد والانتصار ومعه الأموال والثروات التي حصل عليها ثمناً لتدخله في شؤون المملكة التعيسة[2]. وقد ترك وراءه فرقة من جيشه ترابط قريباً من طليطلة لمساعدة وحماية الملك الذنوني من جهة ولمراقبة تحركات الجماعات المحافظة والمتشددة والقضاء على أي عصيان قد تقدم عليه.

والواقع أن ردود فعل الأوساط المحافظة في طليطلة على الحماية التي أسبغها على القادر الملك الإسباني والشروط المهينة والمذلة التي فرضها عليه كانت عنيفة بل ومأساوية. ومع إن عناصر العرب بين هذه

---

(١) Adefonsus Imperator Toletanus., P. 143.

(٢) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٧.

الفئة كانت قليلة إلا أن أبناءها كانوا مع الوقت قد استعربوا بعض الشيء بعقليتهم وبرزت عندهم نزعة تفوق واستعلاء كعرب وكمسلمين في آن واحد. ومن هنا ما استساغوا ولا استطاعوا أن يتعايشوا مع الوضع الذي أوصل إليه القادر ابن ذي النون مملكتهم وعاصمتها. وهم كمسلمين أتقياء ما استطاعوا، على ما كان بين أسلافهم وسلطات قرطبة من نفور دائم، إلا أن يستعيدوا ذكريات أيام الناصر والمنصور العظيمة والحافلة بالأمجاد والانجازات الكبيرة. ومن هنا ما كانت عندهم أية إمكانية لتقبل الوضع المخزي الذي وضع فيه ملكهم الإسلام الأوروبي. ثم إن هذه الجماعات كانت تدرك تماماً أخطار التنازلات التي قدمت لألفونسو السادس إذ كانت تعرف أن الرجل ما كان يهدف فقط إلى الاستيلاء على عاصمتهم وإنما كان يعمل على إزالة سيادة العرب والمسلمين عن شبه الجزيرة الإيبرية بكاملها. ومن هنا رأينا روح التمرد والعصيان تسيطر على ضمائر وعقول هذه الفئات منذ غادر ألفونسو السادس أراضيهم وصاروا وجهاً لوجه مع ملكهم الخائن بنظرهم. والأسوأ من ذلك أن السياسة الخرقاء التي مارسها القادر حيال رعاياه طيلة السنة التي تلت عودته إلى عرشه ما كانت إلا لتزيد غضب هؤلاء ونزوعهم نحو الرفض والتمرد. وقد أوجز دوزي هذه السياسة بقوله: «بعودة القادر صار ما ورثه عن أسلافه يتناقص وموارده المالية باتت في تراجع مستمر وصار هو عاجزاً عن اتخاذ القرار الحكيم والمناسب. كان يعلم أن ألفونسو السادس يسلط على رأسه سيفاً رهيباً يضربه به عند أول ظاهرة تمرد قد تبدر عنه. كان يعطيه الذهب ومزيداً من الذهب ويسلم إليه الحصون بعد الحصون. ولإرضاء الملك الإسباني استنفد طاقات رعاياه مما جعل هؤلاء يهجرون المملكة. ما كان بإمكان القادر أن يفعل غير ذلك[1] . .» ومع هذا فإن الملك الإسباني ما اكتفى. وكلما أخذ طلب المزيد وإذا أقسم القادر

---

(١) Dozy T II, P. 292.

على أنه ما عاد يملك ما يعطيه بادر ألفونسو إلى غزو أحواز طليطلة وتخريب أراضيها وزروعها. هكذا كانت سياسة القادر حيال ملك قشتالة أما تصرفاته مع رعاياه فكانت ذات مردود أسوأ. لقد تعمد نشر بذور الفرقة والخلاف بينهم ظناً منه أن في وحدتهم خطراً يتهدد سلامة عرشه. كان يحرض فريقاً منهم على الآخر ويعطي المناصب العليا في حكومته وإدارته إلى المغامرين والانتهازيين ممن عرفوا بعدائهم للفئآت المحافظة. وكان يثير الفقراء والضعفاء على أقوياء ووجهاء بلده وينشر الخوف والقلق في كل جهة. وقد أوجز ابن بسام ذلك بقوله: «فضرب مدبرهم بمقبلهم، وولى آخرهم كبر أولهم، حتى طمع فقيرهم في غنيهم وأجترأ ضعيفهم على قويهم وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله[1]. »

هذا الوضع المتردي ما كان إلا ليقود بالبلاد إلى الثورة التي حدثت فعلاً في الثاني عشر من أيار من سنة ١٠٨٢م[2]. ذلك إن الطليطليين بعد أن غمرهم اليأس خاصة وأن أكثر من محاولة لاغتيال القادر قد فشلت وجدوا أنفسهم مجبرين على حمل لواء العصيان. وفي صبيحة يوم عيد الأضحى من ذلك العام، خرج الناس في ما يصاحب هذه المناسبة عادة من احتفالات ومهرجانات إلى الشوارع متظاهرين فهاجموا دار الحكومة واقتحموا مراكز الجيش وثكناته ورفعوا لواء الثورة على مدينتهم. ولما كانوا لا يرجون صلاحاً ولا خيراً على يد سيدهم القادر فقد رأوا أن يرسلوا وفداً من وجهائهم وفقهائهم إلى الملك الإسباني الذي كان آنذاك قريباً من طليطلة يزور جيشه المعسكر هناك منذ أعاد الملك الذنوني إلى عرشه، ليعرضوا عليه الحال التي أوصلهم إليها سيدهم وليشكوا إليه معاملة القادر السيئة على أمل الوصول

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٧.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٦.

إلى سلم معه مباشرة[١]. إلا أن ألفونسو السادس رفض التفاوض معهم وأساء معاملتهم وأمر جنوده بإخراجهم من معسكره ورشقهم بالحجارة[٢] إذ كان يعتقد أن خلافات الطليطليين مع مليكم وانقساماتهم على بعضهم تقوي مركزه وتعجل في اهتراء الوضع واستسلام المملكة المنكودة الحظ. استغل القادر إلى أبعد الحدود الإهانة التي لحقت بأعدائه المحافظين وأخذ يلاحق زعماءهم وينتقم من وجهائهم. جاءت بعد ذلك بقليل وفاة العالم الفقيه ابن مغيث زعيم المعارضين للملك الذنوني لتزيد في مصاعب هؤلاء ولتدعم سياسة الملك وأنصاره دعاة التعامل مع الإسبان النصارى. وعندما تحرج وضع الثائرين في طليطلة كثيراً واشتد أذى الملك عليهم رأى فريق منهم أن يغادر المدينة هرباً. وقد استولى هذا الفريق على قلعة مجريط وتحصن بها، وشحنها بالأعتدة والأغذية واستعد لمقاومة وصمود طويلين. وفي هذا الحصن أعلن هؤلاء خلعهم لطاعة القادر واستقلالهم عن سلطانه وحكومته. ولم يأخذ القادر هؤلاء بالرأفة والمرونة وإنما بادر إلى إرسال جيش أمره بالقاء الحصار على قلعتهم وفي نفس الوقت سارع إلى مصادرة أموال الفارين في طليطلة وإلى ملاحقة أقاربهم وأنصارهم. وقد صلب بالفعل عدداً من هؤلاء الأخيرين وقعوا بين يديه[٤]. ما تمكن العصاة الثائرون من مقاومة الحصار طويلاً لنفاذ مؤنهم ولقلة امكاناتهم فما لبثوا أن استسلموا للجيش الذنوني خاصة بعد أن قطعوا كل أمل بالحصول على العون والمساعدة من الهوديين أصحاب سرغوسة أو العباديين سادة إشبيلية مع كل ما كان الفريقان يحملانه من عداء لملكهم القادر ابن ذي النون. انتقم الملك الذنوني من

---

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٦.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٦.

(٣) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٧.

(٤) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٧.

معارضيه بشكل مريع ومرعب ومغرق في الدموية. والأسعد حظاً من بينهم هم أولئك النفر القليل الذين نجحوا في الهرب إلى سرغوسة حيث استقبلهم سيدها ابن هود وآواهم واكرمهم. ومن المنفى الجديد استمر هؤلاء يتآمرون على عرش طليطلة ويغذون المعارضة ضد صاحبه مادياً ومعنوياً.

طليطلة في طريق الاستسلام:

وكأن ألفونسو السادس وهو يستعد للأستيلاء نهائياً على عاصمة إسبانيا القديمة أراد أن يتسبب بمزيد من الإحراج والإذلال لدولة الإسلام في إيبريا فاستغل خلافاً قام بين المعتمد ابن عباد ووفد انتدبه هو لمقابلته فقاد حملة عسكرية في أراضي مملكة إشبيلية. هاجم أحواز شذونة وخربها ونشر الدمار فيها ووصل في غزوته هذه حتى شواطيء بلدة طريف[1]. ومع أن هذه الحملة ما عادت على الملك الإسباني بمكاسب مادية أو إقليمية ذات قيمة وأثر إلا أنها زادت من مكانته وقدره في أوساط ممالك الطوائف الأندلسية وزادت في يأس أهالي طليطلة وأقنعتهم باستحالة الحصول على مدد ينقذهم يأتيهم من المسلمين وأقوى ممالكهم إشبيلية هي على ما هي عليه من ضعف بمواجهة الملك الإسباني.

وفي كانون الأول من هذا العام ١٠٨٢ م سمحت فرصة طارئة للملك الإسباني باستئناف غاراته على أراضي ابن هود صاحب سرغوسة. ذلك إن سيد حصن روضة الثائر والعاصي على سيده ابن هود استنجد بألفونسو السادس الذي بادر فوراً مع جيشه بالحضور إليه[2]. إلا أن الزعيم الأندلسي الثائر ما لبث بعد قليل أن خان الملك الإسباني مما أوقع هذا وجيشه في السادس من كانون ثاني سنة ١٠٨٣ في هزيمة عسكرية شنيعة قتل فيها الكثير من السادة

---

(١) Espana del Cid T. II., P. 299.

(٢) Espana del CidT II., P. 290.

النصارى وفر ألفونسو السادس نفسه من ساحة القتال ناجياً بنفسه. هذه الهزيمه ما كانت لها نتائج سلبية كثيرة بالنسبة للملك الإسباني لأنها جاءت نتيجه خيانة حليف له وليس بسبب ضعف عسكري. ولذا فإنه بعد ذلك مباشرة توجه، ربما ليسترد ثقته بجيشه وبنفسه وليزيل عن دولته آثار الهزيمة، إلى طليطلة ليحكم الحصار عليها وليسد مداخلها ومخارجها بقصد قطع كل صلة بينها وبين سائر ممالك الطوائف والقضاء على كل إمكانية لإيصال مدد أو مساعدة من مسلمي جنوب وغرب الأندلس لأهلها.

تقوية الحصار على المدينة واشتداد حدته أوجدا فيها أزمة اقتصادية حادة، إذ ارتفعت الأسعار بشكل حاد وغير مقبول، وبدأت الأغذية تتناقص في الحوانيت، وافتقدت الصناعة التي طالما كانت مصدر ثروة وازدهار للعاملين في هذا القطاع إلى المواد الأولية الآتية من خارج أسوار المدينة مما أشاع البطالة بين الناس. ولما كانت الجيوش المحاصرة تعسكر في الحقول المحيطة بالمدينة فإنه استحال على المزارعين الحصول على موسم ذلك العام من القمح. وقد شاركت الطبيعة في تضييق الخناق على أهل طليطلة إذ ما كانت الأحوال الجوية آنذاك مناسبة لحفظ المخزون في أقبية المدينة من القمح ففسد بسرعة بعد أن كان في السابق يحتفظ بجودته سنوات عديدة[1]. وقد عرفت المدينة وبسرعة كبيرة وضعاً تموينياً حرجاً وبدأ الجوع ينتشر بين أهلها ويهددهم بكارثة رهيبة. ومما زاد في بؤس أهل المملكة المنكوبة ذلك العام أن تحركات المعارضين لآل ذي النون المقيمين في سرغوسة نجحت في جعل ابن هود وابن عباد يهاجمان أراضيها. فقد غزت جيوش ابن هود أقاليمها الشمالية الشرقية بينما هاجم المعتمد جهاتها الجنوبية[2]. وذكر في هذا المجال منندز بيدال في مقال له،

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٧.

(٢) كتاب الاكتفاء، صفحة ١٥٨.

اعتماداً على رواية لمؤرخ إسباني هو رودريغو الطليطلي لا نجد لها أثراً أو ما يؤكدها عند المؤرخين الأندلسيين، أن الجماعات المعتدلة والمنادية بالتعامل والتعاون مع الإسبان النصارى، بادرت بوجه تردي الأوضاع في المدينة إلى الاتصال بألفونسو السادس في محاولة لحل مشكلة طليطلة وحصارها. «عندما كان الحصار يشتد على أهل طليطلة وتمزق صفوفهم الخلافات الداخلية وتجتاح أراضي مملكتهم جيوش إشبيلية وسرغوسة كان هؤلاء يشعرون أنهم دون مخرج حقيقي من محنتهم وكان المحافظون المتشددون، ككل الذين يبشرون بنزعات قومية أو يحتكرون لأنفسهم شرف الوطنية يفرضون على الآخرين الصمت والسكوت. ومن هنا ما كان أمام الداعين إلى الاتصال بألفونسو السادس والتفاهم معه إلا العمل سراً وبصمت فوجهوا رسالة اليه يعرضون عليه مساعدته في الاستيلاء على طليطلة (كما كان قد عرض القادر) شرط أن تسبق ذلك مقاومةمشرفة تقنع المتشددين بعدم قدرتهم على الصمود وتبرر أمام العالم الإسلامي تسليم مدينة، تعتبر نسبة لموقعها الجغرافي منيعة. ومن هنا يدعونه لجعل الحصار أكثر شدة وأوفر فعالية[1]». ومع أن هذه الرواية لا تجد ما يؤيدها في المصادر الأندلسية فإنها تبدو منطقية ومعقولة إلى حد كبير. ذلك إن الجماعات المعتدلة والمتعاونة مع الإسبان كانت في طبيعتها وتركيبتها ونزعاتها التقليدية والأفكار التي طالما نادت بها، دائماً أكثر قرباً إلى إسبانيا المسيحية منها إلى إسبانيا الإسلامية. ما كانت هذه الجماعات، على تمسك المسلمين منها بدينهم، ترى في التعاون مع إسبان قشتالة خيانة ضد الوطن أو خروجاً على مصالحه لكون الفريقين كانت تجمعهما تطلعات قومية واحدة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار شهادة رئيس الأساقفة المؤرخ رودريغو فإن أكثر الذين راسلوا ألفونسو

(١) Menendez Pidal Adefonsus Imperator Toletanus., P. 148.

السادس سراً من الطليطليين كانوا من المستعربين النصارى[1]. ومن المعروف أن هؤلاء، مع استعرابهم الكامل ظلت تربطهم بنصارى الشمال الإسباني روابط الدين والدم والوطنية الإسبانية. ثم إن فترات الإضطراب التي أخذت تتوالى في طليطلة والأزمة الاقتصادية كانتا تتهددان حياتهم ومصالحهم مما يجعل من المعقول والمقبول أن يبحثوا عن النجاة والخلاص عند إخوانهم في الدين والقومية. ويبدو مما تقدم أن الميول الانهزامية والاستسلامية كانت شائعة بين فريق من الطليطليين منذ بداية الاضطرابات وإلا لما تجرأ القادر ابن ذي النون على الاتفاق مع ألفونسو السادس على ما اتفقا عليه مهما بلغت عنده روح اللامبالاة ونزعات الأنانية والهرب من المسؤولية.

وعلى كل حال فإذا كانت هناك شكوك حول وجود تنسيق واتفاق بين ألفونسو السادس والطليطليين المعتدلين فمن المؤكد أن القادر كان مصراً منذ نفي من عاصمته على مبادلة طليطلة ببلنسية. ومع ظهور النتائج المأساوية لثورة سنة ١٠٨٢ م وغزوات سيدي إشبيلية وسرغوسة في أراضي مملكة طليطلة وأيضاً مع تكاثر دسائس ومؤامرات معارضي حكمه ونظامه ازداد القادر قناعة بضعفه وعجزه عن مواصلة الصمود في موقعه بوجه الأعاصير الآتية من الداخل والخارج وصار يستعجل الأحداث لأنهاء وضعه المخزي والمخجل. وعلى هذا وجه إلى الملك القشتالي رسالة شخصية يجدد فيها رغبته بالتخلي له عن العاصمةالإسبانية القديمة مقابل إعطائه مدينة بلنسية يملك عليها. وما كان هذا يرغب بأقل من ذلك لأنه كان قد مل الحرب والحصار فبدأ يجمع المزيد من الجنود والسلاح والعدد ليقوم بالاستيلاء على طليطلة بضربة صاعقة. ومما كان يشجعه على المضي في مشروعه معرفته

---

(١) Simonet., P. 276.

بعجز الممالك الإسبانية المجاورة عن إنجاد الطليطليين وانشغالها بخلافاتها فيما بينها واهتمام ملوكها بمصالحهم الشخصية.

وفي إحدى ليالي خريف سنة ١٠٨٤ م انتقل مع فرقة من فرسانه من معسكره في جوار طليطلة إلى القصر العظيم الذي كان قد أقامه المأمون ابن ذي النون عند أسوار المدينة وجعل من حدائقه البديعة مقراً لخيالته[١]. ومع أن هذه الخطوة أتت بمثابة تعبير عن قرار اتخذه الملك القشتالي بإنهاء مقاومة المدينة فإن العناصر المحافظة والمتشددة فيها ما تراجعت ولا تركت مجالاً لليأس والقنوط ورغب مقاتلوها في مواصلة الصمود مهما كان الثمن وكانت النتائج. في هذا الوقت كان يحي القادر يعيش في قصره بمعزل عن رعاياه ينتظر ما ستأتيه به الأحداث.

شتاء العام ١٠٨٥ م كان قاسياً وبارداً وكثير المطر، مما جعل الطرق الموصلة مع الشمال الإسباني موحلة يصعب عبورها ونقل المؤن عليها وهذا جعل الاتصال صعباً للغاية بين قشتالة والجيش المحاصر لطليطلة وأوجد في صفوفه أزمة غذاء حادة كادت تصل بالجنود إلى حافة الجوع والموت. ضعف ملوك الطوائف الآخرين وتفرق صفوفهم هوما أنقذ ألفونسو السادس من هزيمة محققة حين بادروا إلى تموينه بما كان يحتاجه من الحبوب واللحوم[٢]. والغريب في الأمر إنه في هذا الوقت بالذات كان المسلمون المحاصرون داخل أسوار طليطلة يشكون من الجوع الضارب بين السكان وأيضاً من دسائس الفريق المؤيد لمهادنة ألفونسو السادس وجيوشه. وفي النهاية أرسلت السماء أمطاراً غزيرة دامت أياماً تهدمت خلالها كثير من منازل المدينة وانهارت بعض تحصيناتها مما قضى نهائياً على كل قدرة على

---

(١) الذخيرة، جزئ ٤، صفحة ١٢٨.

(٢) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٨.

المقاومة والصمود وعلى كل أمل بالنصر. ومع هذا ما استسلم المقاومون لليأس بل قرروا مع نهاية فصل الأمطار انتداب رسل منهم إلى ملوك الطوائف يطلبون منهم العون والنجدة وذلك كمحاولة أخيرة لمنع بلدهم من السقوط. وكانت تقاليد الحرب في العصور الوسطى تسمح للمحاصرين بطلب المساعدة من أية جهة أرادوا. وعلى هذا خرجت الرسل من المدينة وذهبت إلى قصر المأمون حيث كان يقيم ألفونسو السادس وطلبت إليه السماح لها بتجاوز قوى الحصار لزيارة بعض الملوك المسلمين. استقبلت حاشية الملك الإسباني مجموعة الفقهاء والوجهاء ببرودة وجفاء وحاولت منعها من مقابلة سيدها بدعوى أنه نائم إلا أن تدخل نصراني مستعرب يدعى سسنندو، وكان يقوم بوظيفة أمين السر الخاص لألفونسو، سهل مهمة الرسل وأدخلهم غرفة سيده. وقد ترك لنا ابن بسام وصفاً دقيقاً لتفاصيل ما جرى في ذلك اللقاء إذ قال: «فأدخل على أذفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى عن عينيه، ثائر الرأس، خبيث النفس. . . . ثم أقبل عليهم بوجه كريه ولحظ لا يشكون أن الشر فيه، وقال لهم: إلى متى تتخادعون، وبأي شيء تطمعون؟ قالوا بنابغية ولنا في فلان وفلان أمنية وسموا له بعض ملوك الطوائف. فصفق بيديه، وتهافت حتى فحص برجليه ثم قال: أين رسل ابن عباد؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة وينبسون بالسنة السمع والطاعة. فقال لهم مذكم تحومون علي، وترومون الوصول إلي؟ ومتى عهدكم بفلان، وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان؟ فجاؤوا بحملة ميرة، وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة. ثم ما زاد أن ركل ذلك برجله وأمر بانتهابه كله، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله وكانت حاله حال من قبله، وجعل أعلاجه يدفعون في ظهورهم، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم، فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم[1]».

---

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٢٨ ـ ١٢٩.

هذه المقابلة أو بعبارة أصح هذه المسرحية المضحكة المبكية أقنعت المقاومين وسائر العناصر المتشددة من أهل طليطلة باستحالة الحصول على عون ومدد من أي من ملوك الأندلس. ذلك إن هؤلاء إضافة إلى ما هم عليه من ذل وتبعية للملك الإسباني كانوا أضعف من أن يقاوموه ويحبطوا مشروعه. وقد عاد الرسل إلى المدينة البائسة بقناعة تامة بأن سقوط مدينتهم قد بات أمراً واقعاً لا مرد له.

استسلام طليطلة:

وهكذا ما عاد أمام الطليطليين بعد أن استنفذ صمودهم الطويل كل امكاناتهم وقدراتهم وبعد أن فقدوا الأمل بالحصول على العون من أبناء دينهم مسلمي إسبانيا إلا البحث عن طريق للاستسلام تحفظ فيه كرامتهم وتحترم معتقداتهم وتصان أرواحهم وممتلكاتهم. وبعد ثلاثة أيام من المقابلة المشؤومة استسلمت المدينة لألفونسو السادس وفتحت أبوابها له ولجنوده يوم الأربعاء في ٦ أيار سنة ١٠٨٥[١] بعد أن حصل أهلها من الإسبان على الشروط الآتية:

- لأهل طليطلة الأمان المطلق في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وبنيهم.
- من أحب من أهل طليطلة الخروج لم يمنع منه، وإن رجع بعد

(١) يرى عدد من الباحثين مثل Menendez Pidal في كتابه: (Adefonsus Imperator صفحة ١٥٤) و Prieto y Vives في كتابه (los Reyes de Taifas صفحة ٥٥) و Dozy في كتابه (Historia de Los Musulmanes de Espana جزء ٢، صفحة ٢٩٢) أن استسلام طليطلة قد تم في ٢٥ أيار سنة ١٠٨٥ اعتماداً على المصدر الإسباني المسيحي (Primera Cronica General de Espana صفحة ٥٣٨). إلا أنه يبدو لي من المنطقي والأصوب الذهاب مع ليفي بروفنسال كما ورد في مقاله في مجلة (Hesperis سنة ٣١، صفحة ٤٨) واعتماد الرواية التي نقلها المؤرخ ابن علقمة المعاصر لتلك الأحداث وجعل التسليم في ٦ أيار سنة ١٠٨٥ خاصة وأن مؤرخين أندلسيين آخرين موثوقين في أخبارهم أكدوها (نفح الطيب، جزء ٦، صفحة ٨٤)

رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه لا في كثيره ولا في قليله.

- من أحب المقام لم يلزمه سوى إداء الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص[1].

- تجري على المسلمين في طليطلة أحكام شريعتهم ويحتفظون بقضاتهم ونظمهم وتقاليدهم.

- يحتفظون بالمسجد الجامع في طليطلة.

- يؤدي المسلمون المقيمون في طليطلة إلى ملك قشتالة من الضرائب ما كانوا يدفعونه لملوكهم[2]. وبفتح أبواب طليطلة دخلها ألفونسو السادس مكللاً بالمجد والفخار وإلى جانبه كبير فرسان إسبانيا المسيحية آنذاك السيد الكمبيطور وفارس بارز آخر هو الفار فانيز[3]. عبر الجميع من باب شاقره الشهير[4]. تلى سقوط طليطلة استيلاء القشتاليين على جميع أراضيها الممتدة شمالي نهر التاج بين مدينة طلبيرة غرباً وبلدتي وادي الحجارة وشنتبرية في الشرق. لقد كانت خسارة المسلمين في ذلك كبيرة مدمرة إذ تركوا للإسبان ربع مساحة إسبانيا الإسلامية، فيها من المزارع والقرى ما لا حصر له بينها ثمانون موضعاً في كل منها مسجد ومدن طالما كانت حواضر مزدهرة للإسلام مثل ماقدة والفهمين ومجريط وطلمنقة ووادي الحجارة وكركي ومورة وأقليش والمدور واليط ومدينة سالم وأبلة وشقوبية وقورية وأوسما. وبذا خرجت عاصمة القوط نهائياً من العالم الإسلامي لتستعيد موقعها القديم

---

(١) كتاب الاكتفاء، ابن الكرديوس، صفحة ١٥٨.

(٢) Espana del Cid T., P. 306.

(٣) Alvar Fanez.

(٤) Visagra كان هذا الباب يسمى في ظل حكم المسلمين «باب شرقي».

كعاصمة للأمة الإسبانية ورمز لوحدتها وكقاعدة رئيسية للنصرانية في شبه الجزيرة الإيبرية بعد أن ظلت ولمدة ٣٧٠ عاماً تقريباً واحدة من أجمل وأبهى وأسنى حواضر الإسلام في العصور الوسطى.

اختار ألفونسو السادس الإقامة في قصر المأمون العظيم، المشرف على طليطلة باحيائها وشوارعها وأبراجها الأندلسية، والمطل على نهر التاج العظيم الذي يطوق المدينة ويعطيها حصانة وقدرة فائقة على الدفاع والصمود. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أفدح ما في خسارة الأندلسيين آنذاك كان في جعل نهر التاج هذا حدوداً جديدة لدولة الإسلام في الأندلس والتخلي نهائياً عن خط الدويرو الواقع بعيداً إلى الشمال وما بين النهرين من مدن وأراض طالما حافظ أمراء وخلفاء بني أمية على علم الإسلام خفاقاً فيها باصرار وتضحيات لا حصر لها.

إقامة ألفونسو السادس في قصر المأمون وتحول طليطلة إلى عاصمة لمملكة قشتالة كانا أكثر من دليل على انقلاب ميزان القوى في إيبريا وانتقال المبادرة والتفوق العسكري من أيدي الأندلسيين إلى الإسبان. بل أكثر من ذلك كان استيلاء القشتاليين على طليطلة ومملكتها وعودة لواء النصرانية الإسبانية إلى سماء هذه المدينة الإنجاز الأول والأهم في مسار حركة الاسترداد. وقد فهمت أوروبا المغزى الحقيقي لما تحقق على يد ألفونسو السادس فاحتفلت به بحماس كبير واعتبرته كمنعطف أساسي على طريق إخراج الإسلام والمسلمين من القارة الأوروبية. أما ألفونسو السادس فقد نظر إلى ما تحقق على أنه انتصار شخصي له ودليل على نجاح سياسته في إيبريا. وتأكيداً لذلك عمد إلى تسمية نفسه بالامبراطور وجعل لقبه الرسمي بين الإسبان «امبراطور إسبانيا[1]». وما تجرأ أحد من الملوك الإسبان الآخرين، على ما يفصلهم عنه من

(١) Imperatur totius Hispaniae.

حساسيات، على الاعتراض على هذه المكانة المتميزة التي أخذها لنفسه لما كان لانتصاره من أهمية وبريق.

وبالنسبة لرعاياه الجدد من المسلمين سمى نفسه في الرسائل الصادرة عنه والواردة إليه بالامبراطور ذي الملتين وكأنه يريد أن يشير بذلك إلى رغبة في المحافظة على رعاياه المسلمين واحترام نصوص العقد الموقع معهم قبل دخوله طليطلة. وربما تأكيداً لهذه الرغبة وانطلاقاً من هذا النهج اختار لحاكمية المدينة مستعرباً من أتباعه يدعى سسند[1] عرف بعلاقاته الوثيقة مع المسلمين وكبير احترامه لعقائدهم وآدابهم وعلومهم وتقاليدهم. ويبدو أن هذا الرجل كان صادقاً في منحاه مؤمناً بما كان ينادي به من تسامح ومرونة في التعامل مع المسلمين فعمل بجهد متواصل على جعل سيده يحترم بصورة كاملة شروط الاستسلام. نجحت سياسة سسنندو إلى حد كبير واطمأن الطليطليون إلى مصيرهم وأمنوا على دينهم ومقدساتهم حتى أنه استمال قلوب بعض أعلامهم وحبب التنصر إلى بعض عامتهم[2].

ولكن إلى أي حد كان ألفونسو السادس صادقاً في نهجه المرن المتسامح مع المسلمين؟ وإذا كان صادقاً حقاً، وكما تؤكد المصادر الإسبانية، فهل كان قادراً على السير شوطاً بعيداً في هذا المنحى المخالف لاتجاهات سائر المحيطين به من علمانيين ورهبان؟ ذلك إنه في الشهر التالي لدخول طليطلة وأهلها في طاعة هذا الملك غادرها في زيارة رعائية إلى أراضي ليون فأقدم من حوله وبصورة خاصة زوجته الفرنسية الأصل كونستانس وبرناردو كبير رهبان دير سهاغون والذي سيصبح فيما بعد رئيس أساقفة طليطلة على اتخاذ قرار بتحويل مسجد المدينة الجامع إلى كاتدرائية

---

(١) Sisnando Davidiz

(٢) الذخيرة، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ١٦٧ (طبعة بيروت).

خلافاً للعهود والماثيق الصادرة عن ألفونسو السادس. لقد كان في بلاط ملك قشتالة إلى جانب زوجته مجموعة كبيرة من الرهبان الفرنسيين التابعين لأديرة كلوني Cluny الاصلاحية عرفوا بتشددهم وتعصبهم الديني وبعدهم عن الأفكار الحرة المتسامحة هالهم ما كان عليه هذا المسجد من فخامة وأبهة وغنى في وقت خلت فيه طليطلة من كنيسة كبيرة يمكن تحويلها إلى كاتدرائية تليق بالامبراطور الجديد وبعرشه. وبالرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها حاكم المدينة سسنندو ومن امتعاض السكان المسلمين فقد تمت عملية تحويل المسجد بتهديم محرابه وإقامة مذبح مكانه كما رفع جرس على مأذنته بحضور جمع كبير من مقدمي ووجهاء الإسبان النصارى. وكان آخر من تلى القرآن الكريم وأقام الصلاة في هذا المسجد من المسلمين العالم الفقيه الشيخ المغامي[١]. تم ذلك في شهر تموز من العام ١٠٨٥ م.

ومع أن المؤرخين الإسبان يؤكدون أن ألفونسو السادس، الذي طالما عرف باحترامه لعهوده ومواثيقه، استشاط غضباً عندما عرف بتحويل مسجد قرطبة إلى كاتدرائية وقطع رحلته عائداً إلى عاصمته الجديدة إلا أن كل شيء بقي على حاله وبرناردو صار فيما بعد رئيساً لأساقفة إسبانيا. فهل كانت زوجته ومن حولها من رهبان كلونين أقوى منه وأكثر نفوذاً فتغلبوا على إرادته الطيبة أم إنه كان في أعماقه موافقاً على ما فعلوا وراضياً بما استحدثوا؟

في الساعة التي كان ألفونسو السادس يدخل فيها قصر المأمون العظيم جانياً ثمرة أعظم انجازات حياته، كان في مكان آخر من طليطلة القادر آخر ملوك بني ذي النون وآخر من حكم هذه المدينة من المسلمين يعالج جهازاً

(١) ترجم له ابن البشكوال في الصلة رقم ١٢٢٥ فعرفه بأنه: محمد بن عيسى بن فرج التميمي المغامي المقرىء من أهل طليطلة. وكان عالماً بالقراءات ووجوهها، ضابطاً لها، مثقفاً لمعانيها، اماماً ذا دين وفضل.

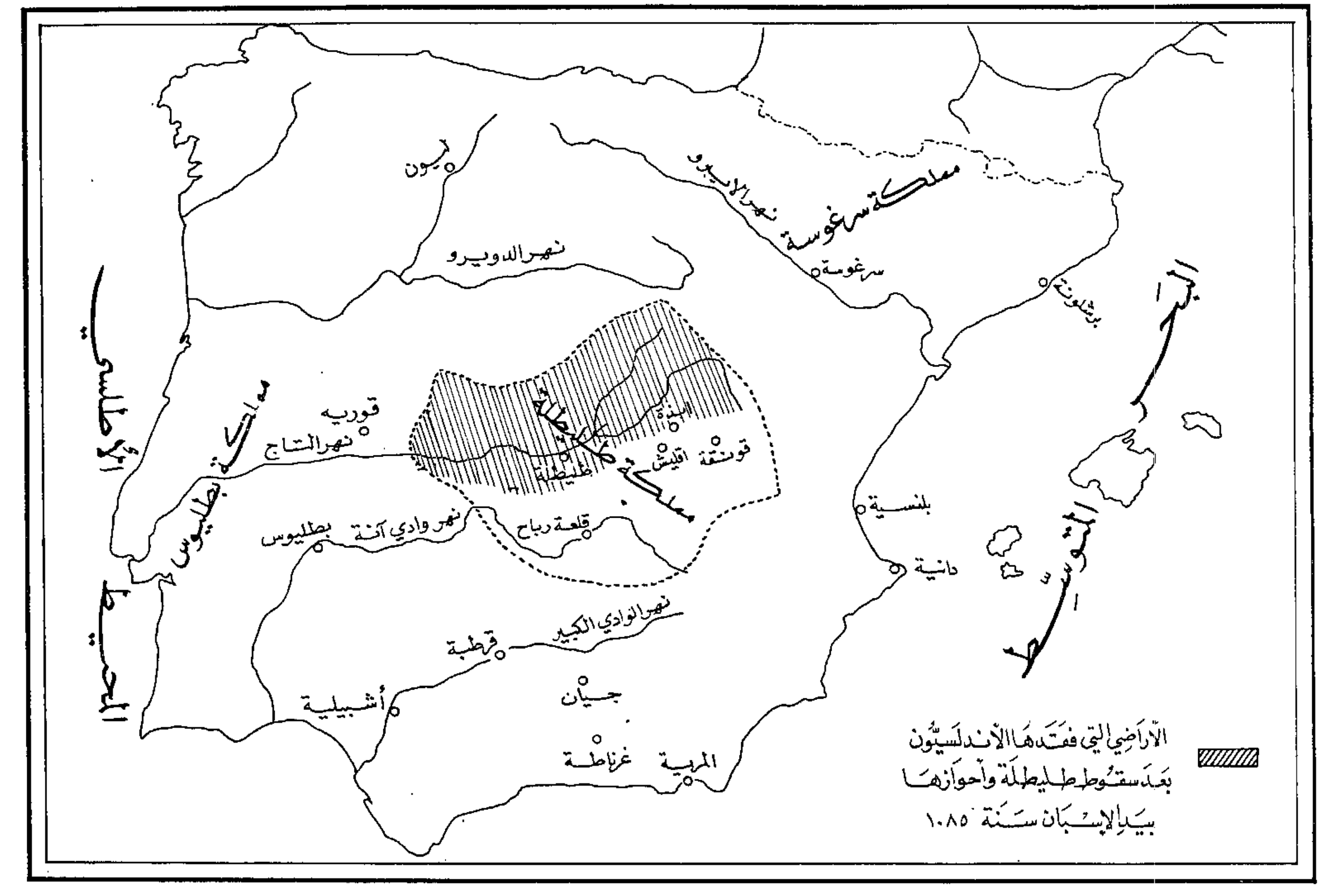
فلكياً (اسطرلاب) ليستشيره، بجهل وحماقة لا حدود لهما، عن الوقت المناسب لمغادرة عاصمة ملكه وعن الطريق التي يستحسن خروجه عبرها. حقاً لقد كانت تلك الساعة، وإلى حد كبير، أسعد أوقات تاريخ إيبريا المسيحية، منذ حل المسلمون فيها وحتى أواخر القرن الحادي عشر، إذ ما رأى الإسلام قبل ذلك في هذه الأرض ملكاً مسلماً يضع مصيره ومصير ملكه وعاصمته بيد سيد إسباني.

وبذل وحقارة لا حدود لهما تهافت ملوك الطوائف في الأندلس في ذلك الحين على ارسال البعثات والسفارات إلى بلاط الملك القشتالي لتهنئته بما أنجز ولإهدائه التحف والنفائس. أتت تصرفاتهم الانهزامية والاستسلامية هذه بمثابة اعتراف بتبعيتهم له وقبولهم بأن يتحولوا إلى جامعي ضرائب لخزانته. إلا أن الأندلسيين عموماً لم تكن تصرفاتهم على صورة ممارسات سادتهم. لقد نظر المسلمون عموماً، وبصورة خاصة أولئك الذين هم من أصول عربية، إلى ما حدث بمنتهى الجدية وأدركوا معناه وأبعاده الحقيقية. بل إن بعض من اتصفوا منهم ببعد النظر والقدرة على تفهم الأحداث ونتائجها في المدى البعيد أدركوا أن ما أصاب الأندلس بسقوط طليطلة كان أكثر من كارثة أصابت الإسلام كدين وكدولة ووضعتهما على دروب الخروج من إيبريا. وقد عبر بصورة واضحة عن مخاوف هؤلاء الفقيه الشاعر ابن العسال في قصيدة كان أبلغ ما فيها قوله:

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط.

ومع هذا فإن الأندلسيين استمدوا من ضعفهم قوة واستبدلوا بأسهم وتشاؤمهم بالشجاعة والأمل وبادروا لمباشرة القيام بجهود كبيرة واستثنائية إن

(١) الذخيرة، جزء ٤، صفحة ١٣٠.



الأراضي التي فقدها الأندلسيون
بعد سقوط طليطلة وأحوازها
بيد الإسبان سنة ١٠٨٥
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
مملكة سرغوسة
مملكة بطليوس
مملكة طليطلة
ليون
نهر الدويرو
نهر الإيبرو
سرغوسة
برشلونة
قوريه
نهر التاج
البذة
قونقة
اقليش
طليطلة
قلعة رباح
نهر وادي آنة
بطليوس
بلنسية
دانية
نهر الوادي الكبير
قرطبة
أشبيلية
جيان
غرناطة
المرية

لم يكن من أجل استرجاع أرض فقدوها ومملكة خرجت من حوزتهم فعلى الأقل لإيقاف الزحف الظافر لألفونسو السادس وجيوشه باتجاه الجنوب ولوضع حد لما صار إليه الإسلام في إسبانيا من وضع قلق وخطير. ولما لم يكن أحد من هؤلاء يرجو خلاصاً على أيدي من هم في داخل إيبريا من ملوك وسادة مسلمين فقد اتجهوا بأبصارهم إلى ما وراء البحر، إلى العدوة المغربية. في ذلك الوقت كانت تتكون وتزدهر دولة بربرية مسلمة ناشطة وفتية تعرف باسم دولة المرابطين. من جنود هذه الدولة الشجعان وعلى أيدي سيدها يوسف بن تاشفين انتظر الأندلسيون الخلاص والانقاذ. ولم يطل الانتظار كثيراً إذ ما لبث المرابطون البربر أن عبروا مضيق جبل طارق وسلكوا الدروب نفسها التي عبرها قبل حوالي أربعة قرون تقريباً ابن جلدتهم طارق بن زياد وردوا على انتصارات ملك قشتالة بموجة كاسحة من الجيوش اجتاحت أراضي ممالك الطوائف. وفي مواجهة عسكرية حاسمة، في معركة الزلاقة في العام ١٠٨٦ م، بين جيوش قشتالة والجيوش المرابطية أنزل يوسف بن تاشفين سيدها هزيمة ساحقة بالإسبان أوقفت مد الاسترداد وصانت جنوب شبه الجزيرة الإيبرية المسلم ولزمن طويل. إلا أن طليطلة استمرت أبداً بأيدي الإسبان النصارى وفشلت كل المحاولات التي قام بها يوسف بن تاشفين ومن أتوا بعده في إعادتها إلى سيادة دولة الإسلام. والمسلمون الذين طالما كانوا فيها أغلبية كبيرة حين كان لواء الإسلام يخفق في سمائها تحولوا بعد ذلك إلى أقلية وإن كانت بقيت ولعدة قرون كبيرة ومقدمة وفاعلة إلا أنها كانت في تناقص مستمر حتى غابت نهائياً مع مطلع العصور الحديثة.

المصادر العربية القديمة

ابن الأبار:

- الحلة السيراء، ليدن ١٨٤٧ ـ ١٨٥١.
- التكملة لكتاب الصلة، مدريد ١٨٦٨.

ابن أبي أصيبعة:

- عيون الأنباء، القاهرة ١٨٨٢.

ابن الأثير:

الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.

ابن بسام:

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٥، بيروت ١٩٧٨.

ابن بشكوال:

- الصلة، مدريد ١٨٨٦.

ابن جلجل:

- طبقات الأطباء والحكماء، القاهرة ١٩٥٥.

ابن حزم:

- جمهرة إنسان العرب، القاهرة ١٩٧٧.
- طوق الحمامة، الجزائر ١٩٤٧.

ابن حيان :

ـ المقتبس، باريس ١٩٣٧ ـ مدريد، الرباط ١٩٧٩ .

ابن خلدون :

ـ كتاب العبر، القاهرة ١٢٨٤ هـ.

ابن خلكان :

ـ وفيات الأعيان، القاهرة ١٢٩٩ هـ.

ابن خاقان :

ـ مطمح الأنفس، استانبول ١٣٠٢ هـ.

ابن الخطيب :

ـ أعمال الأعلام، بيروت ١٩٥٦ .

ـ الإحاطة في أخبار غرناطة، مصر ١٩٥٦ .

ابن سعيد :

ـ المغرب في حلى المغرب، القاهرة ١٩٥٥ .

ابن عبد ربه :

ـ العقد الفريد، القاهرة ١٣٣١ هـ.

ابن عذاري :

ـ البيان المغرب، ليدن ١٩٥١، باريس ١٩٣٠ .

ابن القوطية :

ـ تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد ١٨٦٨ .

ابن الكردبوس :

ـ كتاب الاكتفاء، مخطوط أكاديمية التاريخ، مدريد رقم ٥٦ غايانغوس ـ ومدريد ١٩٧١ .

الأدريسي :

ـ نزهة المشتاق، ليدن ١٨٦٤ .

البلاذري :

ـ فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ١٩٣٢ .

جاجي خليفة :

ـ كشف الظنون ، استانبول ١٩٤٧ .

الحميدي :

ـ جذوة المقتبس ، بيروت ١٩٨٣ .

الحميري :

ـ الروض المعطار ، القاهرة ١٩٣٧ .

الدمياطي :

ـ اقتباس الأنوار ، مكتبة جامع الزيتونة ـ تونس مخطوط ١٣٦١ .

صاعد الطليطلي :

ـ طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٢ .

الضبي :

ـ بغية الملتمس ، مدريد ١٨٨٥ .

القفطي :

ـ أخبار العلماء ، القاهرة ١٢٢٦ هـ.

مجهول :

ـ أخبار مجموعة ، مدريد ١٨٦٧ .

مجهول :

ـ مفاخر البربر ، الرباط ١٩٣٤ .

مجهول :

ـ سيرة الناصر ، غرسنية غومس ، غرناطة ١٩٥٠ .

المراكشي :

ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٤٩ .

المقري :

ـ نفح الطيب ، القاهرة ١٩٤٩ .

النويري :

ـ نهاية الأرب، غرناطة ١٩١٧ .

ياقوت :

ـ معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليعقوبي :

ـ تاريخ اليعقوبي .

مؤلفات حديثة

إحسان عباس :

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت ١٩٦٢.

أحمد بدر:

- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها.

حسين مؤنس :

- فجر الأندلس، القاهرة ١٩٥٩.

شكيب أرسلان :

- تاريخ غزوات العرب.
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية.

العبادي عبد الحميد :

- المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة ١٩٥٨.

محمد عبدالله عنان :

- دولة الإسلام في الأندلس جزء ١، القاهرة ١٩٦٠.
- الدولة العامرية، القاهرة ١٩٥٢.
- دول الطوائف، القاهرة ١٩٦٠.

مَراجــع أجنبـيَّة

Aguado Bleye (Pedro):
— Manual de Historia de Espana, Madrid 1947.
Amir Ali Sayed:
— History of Sarracens, London 1921.
Aschbach (Jose):
— Histoire des Almoravides et des Almohades en Andalousie, Tetuan 1940.
Asian Pena (Jose):
— Manual de Historia de Espana, Barcelona 1954.
Becker Jeronimo:
— Trabajos geograficos Y Astronomicos de Los Hebreos Peninsulares durante la Alta Edad Media, Madrid 1918.
Blachere :
— Ibn Said Hesperis 1928.
Bosch Vila (Jacinto):
— Los Almoravides, Tetuan 1956.
Cagigas (Isidoro):
— Los Mozarabes, Madrid 1949.
Casiri:
— Biblioteca, Arabo - Hispana.
Conde:
— Historia de la Dominacion de Los Arabes en Espana, Madrid 1847.
Dozy:
— Historia de Los Musulmanes de Espana, Barcelona 1954.
Dunlop:
— The Dumunids in Spain (Journal of the Royal Asiatic Society), London 1942.

Garcia Gomez:

— Bagdad y Los Reinos de Taifas,(Revista de occidente) 1934.

Levi Provencal:

— L'Islam d'occident, Paris 1948.

— Inscriptions Arabes en Espagne, Leyde - Paris 1931.

— Histoire de l'Espagne Muslmane (Historia de Espana), Madrid 1957.

Menendez Pidal:

— Primera Cronica General de Espana, Madrid 1955.

— Adefonsus Imperator, Toletanus Magnificus Triunphator, Madrid 1956.

— Espana del Cid, Madrid 1956.

Millas Vallicrosa:

— Estudios sobre Azarquiel, Madrid - Granada 1943 - 1950.

Palencia:

— Historia de la Literatura Arabigo - Espanola Barcelona 1954.

Pons Boigues:

Historiadores Y Geografos Arabo - Espanoles, Madrid 1898.

Prieto - Vives:

— Los Reyes de Taifas, Madrid 1926.

Ribera Y tarrago:

— Disertaciones Y Opusculos, Madrid 1928.

Sanchez Perez:

La Ciencia Arabe en la Edad Media, Madrid 1954.

Sarton:

Introduction to the History of Science Baltimore 1927.

Seimonet:

— Historia de Los Mozarabes de Espana, Madrid 1897 - 1903.

Stones:

— Moslems in Spain, Paris 1913.

Encyclopedies:

— Encyclopaedia Britannica 1960

— Encyclopedie de l'Islam.

— Jewish Encyclopedia.

فهرس الأماكن والمدن

* * *

- ع -

* * *

- غ -

* * *

- ف -

* * *

- ق -

* * *

- ل -

فهرس الأعلام

* * *

- هـ -

* * *

- و -

* * *

- ي -



محتويات الكتاب

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الخامس

الدكتور عبد المجيد نعنعي

الإسلام في طليطلة

دار النهضة العربية